

صباح

رواية

جهد نصر مقلد " نبيل "



دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد



اسم العمل : صباح

اسم المؤلف : جهاد نصر مقلد -نبيل

الجنسية : سوريا

التصنيف الأدبي : رواية

الطبعة الأولى : ٢٠١٩

الترقيم الدولي : ٩٣ - ٩٧٧ - ٦٧٠٧ - ٩٧٨ - ١

رقم الإيداع : ٢٠١٩ / ٢٦٣٤٨

تدقيق لغوي : هبة ماردين

تصميم الغلاف : محمد وجيه

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : ٠٠٢٠١٢١١١٣٢٨٧٩

إهداء

أولاً: إلى مؤسسة ديوان العرب للطباعة والنشر والعاملين فيها وعلى رأسهم الأستاذ المبدع صاحب الدار وصاحبها ومديرها العام الأستاذ "محمد وجيه" مع شكري واحترامي لكل من يساهم بدعم الدار ورفعتها، مع المباركة بجهودهم جميعاً.

وثانياً: القائمين على تدقيق الأعمال الأدبية واللغوية، والقائمين على خدمة وتطوير المجموعات الأدبية التي تمثل الدار.

أ.نجاح السرطاوي

أ.فادية محمد هندومة

أ.هبة ماردين

أ.فادية محمد بدر الدين

وتحية إكرام لجميع أعضاء المجموعات المنبثقة عن الدار

جهاد نصر مقلد

نبيل

تقديم

عندما يقع القدر يعنى البصر... مثل شعبي
روايتنا هذه تحوي من أفعال خلق الله الكثير، مما يعزوه
بعضنا إلى المسبب الحقيقي لتلك القضايا وهو القدر.
بينما المنطق قد يقول غير ذلك... والحكمة الإلهية تقول:
إن القدر بريء من أكثرها... لماذا؟ لأن الله منح لكل فرد
من عباده ما يكفيه من العقل ليستطيع التمييز به بين
الخير والشر.

هذه الرواية تحتوي على ثلاث حكايات في قصة واحدة،
تزخر بمواقفها المعززة بالخير، ومآسيها المشحونة بالشر،
وتتنوع ما بين متناقضات الحياة من إخلاص ونفاق.
قد يضرب القدر ضربة مؤلمة تصيب مواجع الإنسان دون
أن يعرض نفسه لها... على سبيل المثال... تصدمه سيارة
أفلت عقالها... بينما هو سائر على رصيف للمشاة، أو
تصيبه طائشة لا يُعرف مطلقها... عندها نعزو ذلك
للقدر. يحدث أن يرتبط القدر مثلاً بعمر الإنسان... أو
ولادته... عندها نكون صادقين إن قلنا لعب القدر
لعبته...

أما الأعمال التي يتعرض لها الفرد، ويكون هو من دبر لها، وله اليد الطولى في صناعة أحداثها... لا يمكن اتهام القدر بصنعها ... فتعزى تلك القضايا لنقص في سلامة التفكير، أو الغرور.

وروايتنا هذه من خلال قصصها الثلاثة التي تحكي حياة أسرة واحدة عبر مسيرة أقل من نصف قرن... لتقدم لنا من المآسي ما يطفئ الفرح من الصدور، ومن السعادة ما يمسح الحزن من قلوب تآست بسبب تصرفات وأهواء أفراد لم تسعفهم عقولهم المغلقة على التفكير السليم. فتمسخ إنسانيتهم وتحيلهم إلى آلة معطلة عن فعل الخير... فتؤذي أعمالهم من حولهم وتكون علة في المجتمع.

تحمل هذه الرواية الحكائية بين سطورها الكثير من المواقف الإنسانية، ما قد يصلح درساً لمن لم تقهرهم تجارب الحياة، ولمن يشعرون بأن الحياة لا تحمل إلا الشر، بينما نجد أن البعض يعمل ليسود السرور والفرح من خلال التصرفات والنوايا السليمة.

صباح

جراح وآمال

رواية من ثلاثة أبواب تجمعهم حكاية واحدة
الكاتب جهاد نصر مقلد
نبيل

أبطال الرواية	
١ - أسرة هاني	
هاني	رب الأسرة
صباح	ابنة هاني
مريم	أخت صباح
نسرین	الأم
٢ - أسرة أيوب	
أيوب	رب الأسرة
صفية	زوجته
هشام	أكبر الأبناء
أبطال مشاركون	
شادي كمال	
٣ - أسرة عبد الله	
عبد الله	الأب
شريف	ابن عبد الله
شاهر	ابن عم شريف
أبطال مشاركون	
المحقق عزيز	

مقدمة

(صباح)

فتاة تجاوزت منتصف العقد الثاني من عمرها، تقدم لها
فيما مضى الكثير من الشباب للزواج منها... وخاصة من
بين زملائها الطلبة في الجامعة، خاصة ممن يدرسون في
الجامعة نفسها، إلا أنَّها كانت ترفض كلَّ من تقدم لها،
والحجة أنَّها لن تفكر بالزواج قبل أن تنهي دراستها.
أما الآن... وها هي اليوم أصبحت تنتظر بشكل جدي
عريس الغفلة...

صباح... فتاةً متزنَّةً ليس لها علاقاتٍ مسبقة، أو واضحة
مع أحد من الشباب... لا من قريبٍ ولا من بعيد، إنما
ككلِّ فتاةٍ وصلت إلى هذا العمر المغلق، فتشعر بخوفٍ
دائمٍ، إسوةً بكثيرٍ من الصبايا في مثل سنِّها، والسبب
مجتمعا الشرقي المغلق... حتماً لا بد أن يأخذها الخوف
على مستقبلها، ويتسرب إلى قلبها من أن يكون انتظارها
للعريس بغير جدوى، ولا تريد أن تغامر بعلاقات ليست
مضمونة النتائج، أو تتورط دون أن تحصل من خلالها على

النهاية السعيدة ، خشية أن تدخل في مرحلة جديدة
مرعبة، وهي مرحلة العنوسة وإن كان الوقت مازال مبكراً
إلى حدٍ ما، لكن انتظار المجهول لا بد أنه قائم.

اليوم تسكن صباح في حيّ شعبيٍّ مع أهلها... أغرمت
حديثاً بشابٍ من سكان الحي... الشاب لم يبادلها الشعور
نفسه في البداية... عرفته في الجامعة، وكان سرورها لا
يوصف عندما وجدته هنا في حيّها... أما هو أبداً لم ينتبه
لها أو يعطيها اهتمامه.

الشاب اسمه (شريف) فهو تقريباً في عمر صباح، ويعمل
موظفاً اليوم في إحدى الشركات العامة، والصدفة البحتة
جعلتهما يلتقيان في هذا الحي، ويكتشفان فيما بعد
أنهما كانا زميلين في الجامعة نفسها من قبل، وإن لم
يكونا في كليةٍ واحدة.

الباب الأول

الفصل الأول

البداية

حبُّ بلا أمل

اجتاحت شريف نوبة عطاسٍ مفاجئة... توقف على أثرها
 في الممر بين زحام الطلبة المتدافعين للخروج من قاعة
 المحاضرات... مدَّ يده إلى جيبه وأخرج منديله على عجلٍ...
 تفاجأ بزميلٍ له ينبهه إلى أن ورقةً سقطت من جيبه دون
 أن ينتبه لها، أمسكها من يده شاكرًا... نظر مستغرباً
 وجودها في جيبه... الورقة مطويةً عدة طياتٍ يفوح منها
 عطرٌ نسائي، وقف حائراً يفكر بمضمونها، بينما أنامله
 تعمل على فتحها، ونظره يحول في الرواق بين زملائه في
 الكلية المارين حوله، ومن أمامه... يبادلهم ابتساماتهم، نظر
 إليها، أي إلى الورقة من جديد... لفتت أنظاره كلماتٍ
 ناعمةٍ كتبت فيها بخط أحمر جميل تقول الكلمات:

_ بماذا نفسر من يرى الماء وهو عطشانٌ ولا يقترب منه؟
 ومن ترى عيناه فيغمضهما... بينما هو يتلمس الجدران
 كيلا يُضل طريقه... أليس ذاك بحاجة لعصا يساق بها.

نهاية الورقة... مذيلة بقبلة مرسومة بأحمر شفاه! وقف شريف حائراً يتساءل:

_ من ذا الذي يتجرأ على أن يكتب مثل هذا الكلام المذلّ والمهين؟! ثم يقول لنفسه:

_ هذا الكلام لا يصدر إلا من فتاة عابثة لعوب، أو ربما عن دعابة صديق مزوج... ولكن الأقرب أن تصدر عن فتاة تهتم بي، ولا تجرؤ على التصريح بمشاعرها نحوي، بل يبدو أنها قطعت الأمل من تحاوي معها... لا أعرف إحداهن تمازحني أو تداعبني، لأنني جدي في علاقتي مع الجنسين... لكن ما يجعله يتذمر... عندما يتذكر الكلمات القاسية المكتوبة في الورقة... يحس بالإهانة من العبارة الأخيرة فيقول لنفسه متسائلاً:

من التي تجرؤ على رفع الكلفة بيننا بهذا القدر دون أن تظهر نفسها؟! ثم كيف تسللت هذه الورقة إلى جيبى؟ أسئلة حائرة تدور في ذهن شريف، وهو الطالب الأفقر بين طلاب الجامعة تقريباً، أي لا يمكن لفتاة تعرف وضعه المادي وتغامر بحب نهايته الجوع والتقشف، وحياة القلة؟ تبسم شريف وهو يفكر بخاطر طراً له تلك اللحظة، وقال:

يبدو أن الأمر تجاوز حد مزاح فتاة، وربما تكون هذه محاولة تضليل من أحد أصدقائي، كي يشعرني أن هناك من تهتم بي... ولكن لماذا كل هذا؟ أنا راضٍ بما قسم الله لي! والمستقبل مازال مفتوحاً أمامي؟

طوى القصاصة من جديد ووضعها في جيبه الداخلي؛ ثم تابع طريقه إلى صالة المطعم التي كان متجهاً إليها قبل قليل... يشق طريقه في زحمة زملائه الداخلين إليه، في الفرصة بين المحاضرتين.

منذ اليوم تغيرت حياة شريف... بدأ ينظر بإمعانٍ في وجوه جميع زملائه علّه يستدل على من يهتم به، لكن تلك المراقبة أخرجته أكثر مما أفادته، ولم تكن ذات جدوى... مرت شهور على تلك الحادثة، وأصبحت هذه الحادثة البسيطة في عالم النسيان.

واليوم يتكرر الموقف ثم يجد قصاصة أخرى ليس فيها سوى كلمة واحدة: أيّها القفل، ألا تفهم؟

لم يبال كثيراً هذه المرة بالورقة، لكنّه كان يود أن يعرف من هي تلك التي تلعب بأعصابه أو من هو؟!!! انتهى الأمر عند هذا الحد وسارت حياته طبيعية، كما كانت... تخرّج

جهد مقلد

من الجامعة وبدأت حياته العملية... البحث عن العمل،
والسكن وربما العروس.

الفصل الثاني

حلم بريء

دخلت السيدة نسرین... أم صباح على صوت أنین "صباح"
ابنتها الكبرى، التي تغفو في الداخل... لاحظت بأن ابنتها
تحلم أو أنها تحت تأثير كابوس مزعج، تمتت وهي تنظر
إلى صباح:

_ بسم الله الرحمن الرحيم... بسم الله الرحمن الرحيم... لا
إله إلا الله... اللهم صل على نبينا محمد سيد المرسلين، ما
بك يا بنتي؟ هل هو كابوس أم حلم مزعج؟

بهذه الكلمات كانت نسرین تهمس قرب أذن ابنتها في
الصباح الباكر، عندما دخلت إلى غرفة ابنتها صباح
ومريم، لتوقظ صباح فقط، كعادتها كل يوم... قبل أن
تشير عقارب الساعة إلى السادسة والنصف صباحاً...
بالذات تريد إيقاظها صباح فقط، دون أختها الأصغر منها
مريم وأولادها التي تزورهم وتبيت عندهم، لكن
المفاجأة كانت من القوة بحيث خفت من حدة لسانها،
وهي تدخل مسرعة لتنادي ابنتها بعصبية، كما اعتادت
كل صباح عندما تجد أن ابنتها تأخرت في النوم، وذلك كي
تساعدتها بأعمال المنزل... من شطف ساحة المنزل

المكشوفة، وتحضير القهوة والإفطار قبل أن يستيقظ أبوها
ليشرب قهوته المعتادة، وما أبعداها عن قهوة العقلاء... إنها
زجاجة الخمر التي تذهب بعقله وتشل تفكيره طيلة
يومه... الخ

دغدغت أم صباح أرنية أنف ابنتها صباح، وداعبت
وجهها بلطفٍ وحنانٍ عدة مرات حتى استفاقت، ثم قالت
لها باسمه:

_ ما بك يا بُنتي؟ بماذا تحلمين؟ بعريسٍ ما زال في علم
الغيب... أم رمى جمراته في القلب؟ أهو نفسه الذي رمى
فيه بارقة أملٍ؟ وكانت الأم تعلم برغبة ابنتها بالزواج من
شريف منذ أيام الجامعة وتعلم أنه لم يكن يبالي بابنتها!
_ إنه أملٌ يا أماه... تعرفينه أنتِ... والله أعلم إن كان
سيتحقق هذا الحلم أم لا؟! ولكن ليس هذا ما حلمت
به سأرويه لك بعد أن أرتب فراشي... هل أوقظ مريم
أيضاً؟

_ كلا، دعيتها تنام فمُدِّرْسةُ ابنها في عطلةِ اليوم... ما أن
تنتهي من ترتيب سريرك اتبعيني لتتمَّ أعمالنا، وتحكين لي
حلمك أثناء العمل.

دقائق وكانت الأم وابنتها تجولان بمياه الشطف في أرض الدار الواسعة، فقالت الأم: هيا يا بنتي احكي لي حلمك.

_ نعم... رأيت نفسي في الحلم بأنني كنت في سفر... لكنني في إجازة... وأجهز نفسي كي أقضيها بينكم، ذهبت إلى أحد مكاتب السفر لأحجز تذكري، وعندما عدت إلى البيت تفاجأت بسرقة أغراضي الخاصة وحقيبة يدي... لكنني وجدت محفظة نقودي ممزقة وفارغة، سوى من هويتي ورخصة القيادة، عندها خرجت إلى الشارع أنوح وأبكي، شاهدتني إحدى صديقاتي من اللاتي يسكن معي في الجامعة، وعندما سألتني... أخبرتها بما حل لي، وأنني سأذهب لأشتكي في المخفر... فقالت لي:

_ من ستتهمين؟

_ لا أحد... ولا أعرف من هو السارق

_ إذاً لا داعي لما ستفعلينه، لأنك بهذا ستجرين الجميع إلى التحقيق والتفتيش في السكن... كم هي نقودك المسروقة؟

_ كل ما وفرته من راتب الشهرين الأخيرين، وحمداً لله على ما قسم لي... لأنني بالأمس سحبت جميع نقودي من البنك، وكنت سأبقيها عندي وأحملها معي لكنني خشيت

من مخاطر الطريق فأرسلت الجزء الأكبر إليكم عبر
حوالة مالية.

_ ثم ماذا يا بُنتي كيف تدبرت أمرك؟

_ أماه... السذاجة ليست لهذه الدرجة... إنه حلم... حلم يا
أماه.

_ لا إله إلا الله يا صباح... وهل تظنينني غبية إلى هذا
الحد؟ أمزح معك يا بُنتي المهم أكمل... ماذا بعد؟

_ قادتني تلك الصديقة إلى صالة كبرى ربما تقام فيها
حفلة لم تبدأ بعد؟! لكن الصالة كانت مملوءة بالنساء،
والرجال فيها قلة لا يتعدى عددهم الثلاثة أو الأربعة...
وقفت صديقتي وشرحت للجميع موضوع السرقة التي
تعرضت لها فما كان من النساء إلا أن بدأن بوضع النقود
المعدنية في منديل وأعطيني إياه، أما الرجال فتقدم أحدهم
وأخرج رزمة وقال متحدياً:

_ إن كانت المسألة مسألة تبرع... خذوا. ووضع رزمة من
النقود ليست كبيرة... وفعل آخر مثله.

_ والثالث؟

_ سامحك الله يا أمي... جئت أنت وأيقظتني ولم يبقَ لا
ثالث ولا رابع، وأصبحت كمن عاد بخفي حنين.

_ إن شاء الله خيراً يا بُنتي... أعتقد أنك ستنالين مبتغاك
ونحن سنعود كما كنا... إلى عزّنا قبل أن يدمن أبوك على
الخمر والسكر، بعد أن غامر بأمواله مع رجلٍ لا يعرفه
وهرب بها... توكل على الله يا صباح... قولي، لن يصيبنا إلا
ما كتب الله لنا.

لم ينهيا حديثهما حتى صاح بهما زوجها "هاني"... وكان
يجلس في إحدى زاويا أرض الدار:
لعنة الله على النساء... لا يشغلن سوى الثروة
والقلاقل... هيا تحرّكا... أين طعام الإفطار... أين القهوة
أولاً؟

تمت أم صباح دون أن تنظر إليه:

_ أليس هذا أفضل من معاقرة الخمر... لقد خلق الله
للإنسان عقلاً يسيره ويهديه... ويبدو أن الله عاقبك ولم
يضعه في رأسك!

_ ماذا تقولين؟

_ لا شيء أكلم ابنتي... ثم اهدأ أنت وابحث عن عمل
يحسن حالنا... استسلمت للهموم لمجرد أن خسرت
مالك... وهي مصيبةٌ أوقعتَ نفسك فيها... ثم أخذت
تُتمّم بكلامٍ غير مسموع.

_ بماذا تهمسين يا امرأة... خافي الله وارفعي صوتك حتى
أسمع ما تقولين... لا أسمع منك طيلة الليل والنهار سوى
أصواتٍ كنقيق الضفادع وتمتمة غير مفهومة، أشبه
بمزلاج الباب الصدى... أو صوت صرصور البيدر في ليلة
صيف ساكنة!

_ أيها المفترى أنا أخاف الله أكثر منك... أصوم وأصلي
وأتعبد الله... لست مثلك ما أن يبرز فجر... لا عمل
لك سوى شرب الخمر والافتراء على خلق الله.

توقعت صباح شراً من وراء تلك المهاترات، وعلى الفور
هربت إلى الداخل رعباً وخوفاً مما قد تتطور إليه الأمور،
وربما تطاها بعض سياط والدها، عندما يختلف مع أمها
أحياناً.

الفصل الثالث

نورٌ وأملٌ

خرج شريف من بيته هذا الصباح ككلِّ يومٍ ذاهباً إلى عمله... لكن أهم ما كان يلفت أنظاره كل مرة في جميع أيام الدوام، التي تفرض عليه الذهاب من هذا الطريق، المؤدي به إلى واسطة النقل التي يركبها، كي ينتقل إلى عمله... فتاة تتعمد السير خلفه دائماً... لم يكن يهتم كثيراً لهذا الأمر... ويعتبره مصادفة طبيعية... ففي كل صباح يتخذ المارة طريقهم من هذا الاتجاه؛ يذهبون إلى موقف الحافلات الواقعة في الشارع العام، ومنها إلى أعمالهم.

أحس شريف هذا الصباح أن الأمر تعدى حدود المصادفات... بدأ يشعر بأن هناك من يطارده أو يراقبه، وما دلّ على ذلك أنه كان يرى الفتاة نفسها عند عودته... كأنها تنتظر مروره من الطريق نفسه الذي ذهب وعاد منه... أكد له ذلك تعدد الأساليب المتنوعة التي تتعمد أن تتخذها للفت نظره إليها كل يوم... كان يرى تلك الحركات ويعتبرها سخيفة جداً، خاصة حين تنظر مباشرة نحوه عند مروره، ويلمح ابتسامة واهنة ترتسم على شفثيها... لم

يبادلها شريف هذا التصرف، بل كان يلحظها بطرف عينية... لم يفته أن تكون معجبة به أو مغرمة، ولا يخفاه إنها تتفنن في محاولة الوصول إلى قلبه، ولكن لا تجرؤ على التصريح بمكنون صدرها.

ومع هذا لم تثر فيه أي نوع من العاطفة... لم يكن إهماله لها عن ترفع أو كبر... ولا عن قلب سكنت فيه فتاة أخرى.

كان همه أكبر من أن يعطيه لها فدائماً يتجاهلها ويتظاهر بقلة الانتباه أو عدمه أحياناً، ولكن تكرار المحاولات بشكل يومي؛ جعله يلين ويرق يوماً بعد يوم، إلا أنه في النهاية بدأ يجاريها في نظراتها، وأحياناً يبادلها الابتسامة ويلتفت نحوها، وبدأ يشعر وكأن وجهها مألوف لديه، حتى اقترب منها في أحد الأيام بعد أن صادفها في طريقه... أذهلته المفاجأة بعد أن تمنع فيها جيداً... إنها صباح زميلته في الجامعة سابقاً... لقد مضى وقت طويلاً على تلك المعرفة، خاصة ولم تجمععه علاقة معينة بها، سوى علاقة الزمالة دون صداقة، وبالذات الدراسة المشتركة في الجامعة... لم يكونا معاً في الفصل نفسه ولا تربطهم

معرفة متينة... كان يراها دائماً هناك في ردهات الكلية،
ويراها منضبطة ومؤدبة.

إنها زميلة ليس أكثر... يشاهدها كبقية زملائه في الكلية
أو حين تكون خارجة من قاعة المحاضرات، أو يراها في
المطعم أو في حديقة الكلية أو في حرم الجامعة.
أوقفته صباح هذا اليوم وسلمت عليه تعاتبه على تجاهله
لها، طيلة الأشهر الماضية التي سكنت فيه هذا الحي... وهي
تنتظر منه التفاته على الأقل.

قالت ممازحة:

_ أنا أعرفك من أيام الجامعة، ولن أقول لك ماذا كان
رأيي فيك...

أجابها: بل قل لي ما شئت، ولكن لا تقولي أنني مغرور،
كما كان يصلني عن لسان زميلاتك.
ضحكت، وقالت:

_ لقد ولى زمنٌ وجاء زمنٌ!

_ هل تزوجتِ؟

_ استشهد خطيبي قبل العرس بأيام... وأنت؟

_ حسرةٌ على زمني، رفضتني العروس!

_ لماذا؟ ... أنت جذاب... هل أزعجها فقرك؟

_ كلا... تريد أن تنهي دراستها، فهي في السنة قبل الأخيرة في كلية الحقوق.

_ وهل وافقتها؟

_ نعم وافقتها، ولكن على فسخ الخطبة فقط.

_ معقول!! لِمَ لَمْ تنتظرها عاماً آخر؟

_ أنا في عجلةٍ من أمري، قصري جاهزٌ بكامل فرشهِ

الوثير... ويطل على المدينة من جميع الاتجاهات، والأثاث

أوربيّ مستوردٌ من إيطاليا... استلمته حديثاً.

- لقد أغريتني بك، ثم قالت ضاحكة:

_ ألا تقبل بديلاً عنها، طالما لديك مثل هذه الثروة

الجاهزة؟

_ (دقّ على الخشب) اللَّهُمَّ كف عني شر الحسد...

_ ومن قال بأنني أحسدك؟!

ثم تابع ساخراً:

_ قصري على سطح تلك العمارة، وأثاثي من سوق الجمعة

المستعمل... حتى ربطة عنقي هذه، لا أعلم من كان

صاحبها... أحي هو أم ميت.

_ كدت أن أصدق أنك غدوت من الأثرياء.

_ يبدو أنك غيرت رأيك فيّ.

أجابت ساخرةً:

_ كلا... ومع هذا لن أرفض... تقدم واطلب يدي من والدي في الفيلا المجاورة... إنها هناك أترى تلك الفيلا.

_ نعم يا لها من فيلا فخمة ولكن أيقبل بفقير مثلي؟

_ والدي ديمقراطي... تهمة سعادتي لا تخف.

_ إذاً قريباً سأقرع باب فيلتكم.

_ تماماً... أهلاً وسهلاً، ولكن أترى ذلك الملحق المجاور

لتلك الفيلا؟

_ نعم أراه... وكأنني تأخرت عن مواعيدي... نظر إلى ساعته

وأردف:

لا يُمل الحديث معك... سنلتقي فيما بعد... إن أولويات

العمل لا يمكن الاستغناء عنها... بقي عليّ أن أسألك...

ذلك الملحق هل هو مكان إقامة بواب الفيلا؟

_ نعم هو والدي... أبارك الله، ونحن نسكنه

كمستأجرين، ولكن لسنا من عماله.

_ إلى اللقاء... ثم انطلق تسابقه أفكاره في حبه الجديد

والوحيد، لم يسبق أن وقع في غرام من قبل، ولم يفكر في

ذلك.

كان أشد ما يضايقه بعد هذا اللقاء... الحرقه التي جدت على قلبه وبدأت تعمل فيه، وكأنها شعله من نار، فيضع يده على صدره ليقول في نفسه:

_ الفتاة جميلة، وإن لم تكن من ربات الجمال، لكنها جذابة ولطيفة وليست ساذجة، ولا تشبه عارضات الأزياء، ثم تذكر شيئاً ما أقلقته... وهو سنّها... نعم إنها ليست كبيرة... عمري الآن أقل من ربع قرن، وهي بالعمر نفسه على ما أعتقد، ولكن ماذا أفعل؟ كم سنة ستمضي قبل أن تتوقف عن الإنجاب؟ أنا أحب كثرة الأطفال... ثم كم سنة حتى تفقد صباها؟ ثم تشوهها أعباء الحمل والولادة، أخيراً أقنع نفسه قائلاً:

وهل حياتي عصية عن الكبر أو العجز أو الإصابة؟ وصل شريف إلى موقف الحافلات ووقف ينتظر كغيره بينما فكره مشغول بتلك المقابلة مع صباح قبل قليل!

استيقظ من أفكاره على دفعة من زميل له نحو باب الحافلة، وقد بدأت تتحرك الآن بعد أن كادت أن تتركه... نظر إليه مبتسماً وهو يعبر له عن شكره؛ فلولاه لكانت غادرت وتركته... أفكاره أنسته الحافلة وما يقف ينتظر لأجله.

وفي المكان الآخر كانت صباح التي شعرت أن حياتها
أوشكت أن تتغير حين لأن شريف لها... وها هي الآن
أصبحت تعيش في أحلام حياة الاستقرار... والزواج التي
طالما تمنيتها.

لكن لابد من أن يأخذها الخوف من أن يغير شريف
رأيه فيها، أو ربما يتظاهر بحبها ويخدعها لغاية ما في
نفسه، فقررت الحذر الشديد من تطور العلاقة معه...
قررت التعامل ببرودٍ بعد أن أحست أن سنارتها علقت
لكن خافت من أن يدفعه هذا البرود الذي قررت افتعاله
لأن يغير رأيه فيها، ومع هذا قررت أن تتحدى في الحرص.
تغيرت أفكارها وبالتالي حياتها... ولم يفارقها الأمل، حتى
إن أمها استغربت الهدوء الذي حلّ فجأة على ابنتها هذا
اليوم بالذات، بعد أن كانت تشور لأتفه سبب.

ومع أن الفتاة تعلم بأن شريف لن يأتي من عمله قبل
الثالثة عصراً، لكنها خرجت تنتظره في الشارع وتنظر بين
الحين والآخر من النافذة، أو تنزل وتطل من الباب المطل
على الشارع، أو من أي مكان ترى فيه أملاً برؤية حلم
مستقبلها الواعد الذي سيكون سيده شريف.

لكن يبدو أن سوء الحظ لن يتركها اليوم أيضاً، مثلما كان يرافقها دائماً... وفيما هي تنظر من شق الباب الموارب، نحو نهاية الشارع بعد أن اقترب موعد عودته، تنتظر حبيب القلب الذي أصبح اليوم حلم العمر، تفاجأت بكثافة بشرية قادمة أشبه بالتظاهرة من بعيد، وضعت يدها على صدرها خوفاً وشعرت بهبوط قلبها، وللأسف كان إحساسها صادقاً فيما كانت تراه هذه اللحظة، تساءلت:

_ أهي مصيبة حلت؟! ولكن مع من؟ هل هي مع أبيها؟ أم مع أخيها، أم مع أمها؟ تتساءل من الذي يقترب الآن من ساحة الحي؟ يبدو أن هناك شخصاً ما يسير بصعوبة، ويتكى على شخصين، يساعده في مشيته وجمهور كبير خلفهم... لم يخطر ببالها أن ذلك المصاب ليس سوى حظها السيء؟ نظرت إلى مدخل الحارة تمنعت بالقادمين... تساءلت من جديد... من تكون تلك المجموعة من الناس التي تتقدم نحو الساحة؟ وهي ترى بينهم رجلاً يسير بصعوبة بين اثنين يسندانه، وحوهما وخلفهما مجموعة كبيرة من الناس تتبعهم.

وضعت صباح يدها على قلبها... أحست أنه بدأ يخفق بشدة... أخذت تنتظر بلهفة لتري إلى أين سيتجه هذا الموكب... وهو يوحي لها من البعيد بأن هناك مصيبة ما حلت، وكانت كلما اقترب الجمهور قليلاً، كلما زاد رعبها... كانت تخشى أن يكون أحد من أهلها حدث له مكروه ما، ولكن الموكب تغير فجأة اتجاهه إلى المباني المقابلة. تنفست الصعداء وتحول خوفها إلى شفقة... تساءلت من جديد تُرى ما الذي حدث؟ وهل هو أحد جيرانها؟ كانت دقات قلبها تضرب بشدة... تشعرها بالقلق الشديد... إحساسها يشعرها وكأن مصيبة ما قد وقعت ولها حصة في تلك المصيبة، أخذ يساورها شعور أنها ليس ببعيدة عما يحدث الآن... ها هو الجمع يتجه إلى الجهة المقابلة... لم يخطر في بالها بداية أن حبيبها الذي استجاب أخيراً لمطارداتها الغرامية هذا اليوم فقط هو الذي تقتاده الناس.

كانت مطمئنة إلى أن موعد رجوعه من عمله ليس الآن، حينما تذكرت ذلك هفا قلبها فظنته شوقاً، ولم تجد أحداً تسأله... الكل في شغل عنها، ما بين الجري نحو التجمع

البشري، وما بين متأسف ومتحسر دون أن يدري ما الذي يحدث أو سبب تلك اللمة!

كان لابد لها من الذهاب بنفسها حتى تطمئن... فالإنسان فضولي بطبعه... تركت باب المنزل موارباً قليلاً، وعجلت كي تستطلع الخبر... وصلت إلى مكان التجمع... لكنها لم تستطع أن ترى شيئاً من خلال الزجاج الشديد!

جميعهم يتجمعون حول الرجل المصاب... حاول أحد الشباب أن يساعدها... صاح بالمجتمعين أمامه

كي يفسحوا لها الطريق... لكن دون فائدة ترجى، لحظات وإذا بشيخ يخترق الزجاج على عجل... يصيح بأعلى صوته أن يفسحوا الطريق، ويسمحوا له بالمرور... ها هو يحاول أن يشق طريقاً له بصعوبة... وتشاء الصدفة أن يمر هذا الشيخ من جانب صباح تماماً فنظرت إليه تستعطفه:

_ أرجوك يا والدي دعني أرى ما يحدث هنا... فقال:

_ لا داعي يا بنتي... يقولون أنّ إصابة الشاب خطيرة جداً... لقد استدعوني على عجل كي ألقنه الشهادة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وريثما تصل سيارة الإسعاف كان الشيخ يحدثها ويدفع المتجمهرين بيديه الاثنتين من

أمامه وحوله، في محاولةٍ منه للوصول بأقصى سرعةٍ إلى المصاب... أردف الشيخ كلامه بصوت عالٍ:

المسكين ضربته سيارة ورمته جانباً، لتأتي في اللحظة نفسها سيارة أخرى وتلطمه! هكذا قالوا لي... ولا أعتقد أنني سألحق به حياً... صاحت بصوتٍ عالٍ تسأل:

أتعلم من هذا الشاب يا مولاي؟ لكن الزحام الشديد وتدافع الناس أبعد الشيخ عنها، فصاحت باكية:

_ افسحوا لي المجال... ويبدو أن شاباً من أهل الحي كان يعرفها فقال لها:

_ لا داعي يا أختاه للوصول إلى المصاب، لأن إصابته كبيرة والدماء تغطي كامل جسده، اسمعي نصيحتي عودي إلى بيتك أفضل، ولكنها أصرّت وقالت:

_ لكنني رأيت اثنين يسندانه وكان يسير بينهم على قدميه.

_ نعم قادوه في البداية لكن فيما بعد تبين أنه لم يكن يحس بإصابته، عادوا وحملوه إلى هذه الجهة... ثم تركها قائلاً:

_ أنصحك ألا تصلي إليه وأن تتحاشي مشاهدته... الشاب شريف شوهته كثرة الدماء كما قلت لك! صاحت بصوتٍ مرتفعٍ وهي تولول متسائلة:

_ شريف؟! أهو المصاب؟ يا لحظي السيء... كيف؟ ثم
غالبها البكاء لحظة... لكنها تماكنت أعصابها خجلاً كيلا
يفتضح سرها... فجميع من كان حولها تقريباً من أهالي
الحي ويعرفونها، فقال الشاب:

_ هذا يعني أنك تعرفينه.

_ نعم... ولكن ليس أكثر من كونه زميلاً لي في الجامعة،
ثم هو من سكان الحي ولكن ما هذا الكلام الذي أسمع؟
سمعت أحدهم يقول الآن:

أن المصاب يتنفس، وكانت قد اخترقت الجمهور وأصبح
المصاب أمامها... فشاهدت في تلك اللحظة الشيخ يحاول
رفع إصبع شريف... ليلقنه الشهادة، ثم ترك له يده
فسقطت بقوة على صدره... أيقنت أن حلمها مات بموته...
وأن حظها سيدفن معه... قالت لنفسها:

_ بعد أعوام استجاب شريف لي وها هو الآن يموت
أمامي... وا حسرتاه... عندها تركته باكية والأسى يملأ
فؤادها... تذكرت طبائع والدها الصعبة... لم تستطع البقاء
بين زحام المتطفلين والمغيثين خوفاً منه، فعادت إلى البيت
ودموعها تسيل على خديها، حارت ماذا تقول لوالدها إذا
رآها تبكي... من المؤكد سيظن بها الظنون، خاصة وأنها

تعرف أن والدها لا رحمة عنده! ليس ورعاً ولا تعصباً... لكن يبدو لمن حوله أنه ممن يتظاهر بالشرف، وربما هذا ما ليس فيه كما يشاع عنه في الحي، ويعرف عنه أهل بيته وجيرانه بالرجل الذي لا يصحو من سكره، عرفوه جيرانه هنا في هذا الحي، وعرف هناك في الأحياء التي سبق وأن سكنها من جيرانه السابقين، الذين عملوا المستحيل حتى أخرجوه من حيّهم في نهاية الأمر، والآن انتقل إلى هذا الحي فبدأ يعمل بواباً وبستانياً أحياناً مقابل إقامتهم في هذا الملحق عند صاحب الفيلا التي أشرنا...

أما والدّة صباح... وباقي أفراد الأسرة... فالأمر يختلف تماماً... الجميع يثقون بها ويتعاملون معها بلطف وحنان، وتعرف أيضاً ابنتهم الكبرى صباح كيفية إقناعهم بما تريد، وما هو الممكن وغير الممكن.

مسحت دموعها جيداً ووقفت أمام بيت أبيها، وأخذت تراقب سيارة الإسعاف وهي تنطلق حاملة أملها المفقود وقلبها يعتصر ألماً... فجأة أحست بأن هناك من جذبها من شعرها بعنفٍ إلى الداخل وهو يصيح:

ماذا تفعلين هنا؟ شعرت لحظتها بأن رقبتها ستتكسر... لم يخفَ عليها الأمر... عرفت مسبقاً أن ظلم أبيها

وقسوته... هو من يمسك بمشاعرها قبل شعرها، عندما شدَّ شعرها بعنفٍ... وأخذ يجذبها بقسوةٍ إلى الداخل... ثم أغلق الباب بقوةٍ جعلت الباب يرتد وينفتح ثانية من عزم الضربة... على الفور تناول أقرب ما وصلت يده إليه من أداة تصلح للضرب، ثم انهال عليها، وكانت عصا مكنسة، ولحسن حظها لم تصبها الضربة الأولى... كانت الضربة من نصيب أخيها الصغير الذي صرخ وهرب من شدة الألم... أتبعها بضربةٍ ثانيةٍ كُسرت على إثرها العصا على جسدها... كانت المكنسة أقرب وسيلة تأديب بالنسبة له في تلك اللحظة... ولو لم تكن المكنسة موجودة... لكان الخراطوم البديل الذي لا ينقطع عندما يكون الأقرب إلى يده... فيضرب به حتى يلهث بأنفاسه قبل أن يتوقف عن الضرب... صاحت أمها غاضبة مولولة كعادتها في تلك المواقف:

_ ماذا فعلت حتى تضربها بتلك القسوة أيها الظالم؟ أخذ يجرش بصوتٍ أشبه بصوت دراجةٍ ناريةٍ كُسرت مدخنتها... كان السكر الشديد يتضح جلياً في تصرفاته، لم يكن هذا شأنه طيلة الربع قرن الماضية، لكنه تغير في الأعوام العشرة الأخيرة... الأم صابرة قانعة في تلك

المرحلة بما فرض الله عليها من تجاربٍ في الحياة... تقدم
الطفل الصغير نحو أخته صباح يئن باكياً، ويفرك مؤخرة
من الألم ويقول:

_ لقد أوجعتني جداً ضربته... والذي ضربك ليؤلمك.
_ وهل كنت تظنه يداعبني؟ إنه يضربني ليؤلمي طبعاً،
سامحه الله.

ويسذاجة الطفولة قال:

_ تقولين سامحه الله! ماذا فعلت حتى يضربك؟
_ أبي ويحق له... اذهب يا أخي إلى الداخل كيلا يسمعك
عندها لن تفلت من بين يديه.
فما كان منه إلا أن دخل بسرعة ثم عاد وبيده مناديل
ورقية... أخذ يمسح بها دموع أخته ويواسيها.

الفصل الرابع

الأمل بالله

بدأت التظاهرة أو اللمة في ساحة الحي تتفرق شيئاً فشيئاً، ولم يبقَ منها سوى القليل من الشباب وأصحاب المحلات يثرثرون فيما بينهم بتلك الحادثة.

جاء شاب آخر من طرف الشارع عاصر الحادثة تماماً... ولنسمع الشاهد ما الذي يرويه لمن حوله:

_ لقد شاهدت المسكين شريف وهو ينزل من الحافلة... وكان مباشرة أمامي وشاهدت الحادثة بالتفصيل، سأله آخر... أخبرنا كيف وقعت الحادثة؟

_ عندما نزل من الحافلة ولم يكد أن يضع قدميه على الأرض، في اللحظة نفسها مرت سيارة صغيرة بسرعة، صدمته صدمة خفيفة أفقدته توازنه وجعلته يجري عدة خطوات وهو يوشك السقوط على الأرض ولكن لسوء حظه أيضاً قبل أن يستعيد توازنه بثوانٍ فقط... جاءت سيارة أخرى بسرعة قادمة من الجهة نفسها، فصدته هي الأخرى أيضاً ورمته على الأرض، ويبدو أن سائقي السيارتين كانا في سباق بينهما. ومع هذا كله بقي شريف محافظاً على وعيه فترة من الزمن، وعندما نهض رفض أن

يحملة أحد... سنده اثنان من الحضور... وسار بينهما وهو يترنح قليلاً، وطلب بنفسه أن ينقل إلى قرب بيته وهو يصّر على أنه بخير، ولكن كما يبدو إن إصاباته كانت كما يقال (حامية) فلم يشعر بالألم لحظتها، ولكن بعد قليل انهار بين أيادي مسعفيه وبدأت الدماء تسيل على وجهه بكثرة؛ وترشح أيضاً من جسده المصاب إلى ثيابه، حتى أصبح وكأنه كتلة حمراء؛ بسبب النزيف من جسده، ومن الدماء التي تتسرب من جلد رأسه ومن بين شعره...

تجمع أهالي الحي حول الشاب، الذي فقد في لحظة واحدة كل معاني الحياة، بسبب رعونة شباب متهور، الآن توقف تنفس المصاب حسب ما رأى المسعفون، وتصادف وجود أحد الأطباء الذي يقطن في الحي نفسه، ساقته الصدفة البحتة في هذه اللحظة... قام الطبيب بجس نبض المصاب والكشف السريع عليه، وأعلن بأنه ربما يكون قد توفي ولكنه لا يؤكد ذلك كونه لا يحمل أجهزة طبية... ولكن على الغالب أنه فقد حياته، وكان قد تطوع آخرون بطلب الإسعاف لنقله إلى المستشفى فوراً... نظر إلى الشيخ الذي استطاع اختراق المتجمهرين أيضاً في هذه اللحظة، وأشار إلى الطبيب إشارة حائرة من يده يستفسر؟ فهم منها إن

المصاب ربما يكون قد قضى نحبه وربما لا، فتمتم الشيخ

بصوتٍ مسموع:

الحمد لله لن يموت قبل أن ألقنه الشهاداتتين... كانت هي اللحظة نفسها التي رأت صباح الشيخ يرفع رأس المصاب ويحاول تلقينه، لكنها حين رأت الطبيب يرفع يد المصاب... ثم يرخيها، بحيث هوت مباشرة على صدره، تأكد لها وللجميع بأن شريف انتقل الى جوار ربه... كان ذلك مع وصول سيارة الإسعاف، التي طلبها أحد الموجودين بعد الحادث... وتشاء الصدفة أيضاً في الوقت نفسه، وصول شاب من أقارب شريف... يبدو أنه حضر لزيارته كما قال فيما بعد وهذا الشاب هو ابن قريته وابن عمه في الوقت نفسه، ويعملان معاً في الشركة نفسها. فوجئ بما حدث لقريبه عند وصوله الآن، ودفعه الفضول حين شاهد الفوضى في الساحة أمامه، لذلك اتجه نحو تلك الجمهرة يستطلع الأمر... نظر إلى المصاب فلم يعرفه للوهلة الأولى، بسبب كثرة الدماء التي غطت وجهه وثيابه، ولكن ما لفت نظره ثياب العمل التي يلبسها المصاب، وعلامة الشركة التي على تلك البذلة... تمنع به جيداً وعرف أنه ابن عمه... أذهلته المفاجأة وأخذ يندب

قريبه؛ ويتساءل عن السبب فيما حدث له، أخبروه بما حدث، وكان أن وصلت سيارة الإسعاف تسابقها أصوات أبواقها... فتم نقل شريف إليها؛ وركب قريبه معه... ثم انطلقت بهم إلى أحد المشافي، وعلى أرض الحادثة، وبوصول رجال المرور... بدأت التحقيقات والاستعانة بشهود الحادث لمعرفة التفاصيل... وعلم فيما بعد أن سائقي السيارتين اللذين تسببا بالحادث سلما نفسيهما لرجال الأمن قبل قليل.

في المستشفى أنزلت الرحالة التي حُمِلَ عليها المصاب، وأدخل إلى قسم الإسعاف... تبين للأطباء هناك أن المصاب لم يفارق الحياة، وأنه ما زال حياً وما زال قلبه ينبض بالحياة، وفيه رمق وهو الآن في غيبوبة شديدة، بسبب ما أفقده النزيف من دماء.

بدأ فريق من الأطباء مساعي حثيثة وعاجلة، لإنقاذ حياة شريف... مضت بعدها دقائق قبل أن يدخل المحقق ويسأل الأطباء إذا كانت حالة المصاب تسمح بأخذ أقواله الآن، إلا أن الطبيب طلب منه تأجيل الأمر لأن حالة المصاب لا تسمح إطلاقاً، وقال:

_ إن ذلك مستحيل الآن... المصاب ما زال فاقداً للوعي، وفي حالة شبه ميؤوس منها، ونحن نحاول البحث عن شخص أو أكثر ليتبرع له بالدم لعدم توفر زمرته الدموية وهي نادرة، وهذه الزمرة غير متوفرة الآن في المشفى... تحول الحديث بين الطبيب والمحقق إلى حديثٍ عادي جداً فسأل المحقق:

_ ما نوع زمرة دم المصاب؟

_ زمرة نادرة جداً... بدأنا الإعلان عنها بوسائل الإعلام فوراً.

_ ألا يمكن إنقاذ حياته دون متبرع من الزمرة نفسها؟

_ بل من المستحيل ذلك.

_ ماهي إذاً؟

_ ❶ سلبي وليس لدينا أي كمية منها بسبب ندرتها، ولا

أخفيك بأننا دائماً نعاني من عدم توفرها.

_ كان لا بد لي من أخذ أقواله... لكن في هذه الحالة لا بد

من أن ننتظر إذاً.

وضع المحقق أوراقه على الطاولة وبدأ بخلع معطفه...

فقال الطبيب موجهاً كلامه للمحقق:

- _ تفضل يا سيدي لترتاح في مكثبي إذا أردت... أرى أن انتظارك اليوم لا جدوى منه.
- _ بعد قليل يا سيدي... شمر المحقق عن ساعده وسط ذهول الطبيب وزملائه الحاضرين... ثم قال:
- _ هيا يا سيدي أنا جاهز... لحسن الحظ... زمرة دمي هي التي يحتاجها المصاب.
- _ هذا شرف كبير يا سيدي ونشكر عليه، إذاً لنتحقق من زمرة دمك.
- _ لا داعٍ لضيع الوقت يا دكتور، عشرات المرات تحققت من زمرتي الدموية في الهوية، وفي رخصة القيادة ما يثبت.
- _ نعم وفقك الله إنه جميل تجزى عليه من ربك ومن العبد.
- _ لقد عملت واجبي الإنساني.
- _ الشاب بين الحياة والموت... وكل دقيقة تذهب، تقربه من الموت.
- _ إذاً هيا كيلا يضيع الوقت.
- وخلال عملية نقل الدم قال الطبيب:
- _ ولكن يا سيدي هل تعرفه؟ أو هل أنت من أقاربه أم من جيرانه؟

_ كلا بل ذلك عمل إنساني فقط... ليس قريبي ولا أعرف عنه شيئاً... لكن بهذا العمل أشعر وكأنني قد أنقذ حياة أكثر من شخص لربما شخصين...

_ ومن الشخص الآخر؟ ليس لدينا سوى مصابٍ واحدٍ فقط... ممن يحتاج لتلك الزمرة النادرة اليوم.
قال وهو يضحك:

_ أنا الشخص الآخر يا دكتور، ألا يحق لي أن أعيش أيضاً؟

_ فهمت... لكن هل تعاني من مرض ما كضغطٍ للدم...
فعلاً التبرع بالدم قد يخفف عنك؟

_ كلا والحمد لله لا أعاني من شيء؛ لكن من يضمن لي ألا أتعرض لحادثةٍ ما، وأحتاج فيها لمتبرع يرسله الله لي كما أرسلني لهذا الشاب.

وفي تلك اللحظة دخل مساعد الطبيب وهو يقول:
_ لم نجد، ولم يتقدم أي إنسان للتبرع بالدم... بدأ الآن المصاب يتنفس بصعوبة شديدة جداً! وعلى هذا كما يبدو لنا الأمل قليل في بقاءه على قيد الحياة دون نقل الدم إليه!
_ الخيرون كثر... لا بأس حُلّت المشكلة على يد هذا الخير،
ثم أشار إلى المحقق.

اصطحب الممرض المحقق إلى مكان سحب الدم... وسحبت منه كمية كافية لرفع مستوى الدم عند المصاب وإبقاء شريف على قيد الحياة، وفي الوقت نفسه لا تؤذي المتبرع، ريثما تعالج بقية الإصابات والكدمات، ولحسن حظ المصاب أيضاً لم تظهر في الصور الشعاعية أية كسور لديه. جرى نقل الدم للمصاب وبعد العناية الفائقة، التي قدمت له استقر وضعه وازداد الأمل بنجاته.

عاد المحقق إلى مكتب الطبيب ليرد الطبيب على أسئلته، ومن خلال هذا الحوار الذي بدأه الطبيب نتعرف على الحالة الصحية التي وصل إليها شريف:

_ لقد جلب المصاب فريق متخصص من حيث كان... واليوم هناك أساليب جيدة وعلمية، في إنقاذ المصابين ممن يتعرضون لنزيف دموي.

{المعلومات مأخوذة من مصادر طبية}

ثم أردف الطبيب:

كان المصاب فاقداً للوعي تماماً وأقرب للوفاة منه للحياة، ولكن فريق الإسعاف لديه خبرة دقيقة لمثل تلك الحالات... إضافة للسرعة المطلوبة التي تتم عند جلب المصاب ونقله.

في مثل هذه الحالات يوضع المصاب على السرير عند نقله، بحيث يكون نصفه العلوي أدنى كثيراً من نصفه السفلي كي يستطيع القلب ضخ ما تبقى من الدماء في الجسم، لتغذية الدماغ والقلب نفسه وكذلك بقية الأعضاء الموجودة داخل القفص الصدري، كالرئتين، الكبد، غيرهما ثم قال المحقق للطبيب:

_ لماذا لا يعطى للمصاب المتوفر من الزمر الدموية... على الأقل في حالة الإسعاف؟
فقال الطبيب:

_ هذا الموضوع يطول شرحه، ولا يمكن توضيحه كاملاً، ولكن باختصار... إن تمازج أي زمريتين دمويتين مختلفتين، يؤدي إلى تلاصق صفيحات دم المعطى، بحيث يؤدي ذلك إلى انسداد الأوردة الشعرية التي تغذي الكليتين وغيرها من أعضاء الجسم، مما سيؤدي إلى وفاة المصاب الحتمية... المهم نحن الآن نقدم لك جزيل الشكر عنا ونيابة عن المصاب لهذه التضحية... عندها غادر المحقق مودعاً وهو يوصي الطبيب قائلاً:

إن كتبت للمصاب حياة وعاد إلى وعيه يرجى الاتصال بنا... ثم ودّع وخرج، بعد أن ترك ذلك الأثر الطيب

بتبرعه بجزءٍ من دمه إلى مصاب لا يعرفه... ذهب على أمل أن يُستدعى في حال تحسن حالة المصاب للتحقيق ومعرفة ملابسات الحادث الذي تعرض له شريف، ودّعه الطبيب إلى الباب ثم ذهب إلى حيث يعالج المصاب... هناك وجد شاباً، يقف ملاصقاً لباب غرفة الإنعاش شارد الفكر، ويظهر الحزن على قسماته، حتى أن الشاب لم ينتبه للطبيب الذي أمسك بمقبض الباب يريد فتحه، إلا بعد لحظة عندما قرع الطبيب على باب الغرفة... واستأذنه كي يفسح له الطريق للدخول.

لنترك المشفى الآن كي نعود إلى بطله قصتنا.

الفصل الخامس

عقول متخلفة

آلمت صباح الضربة التي أصابتها من والدها، وكسرت على أثرها عصا المكينة، التي فوجئت بها ولم يكن في حساباتها أن يكتشف والدها أمر وجودها خارج المنزل... أخذت تبكي بكاءً يُشعر الرأي بأنه مبالغ فيه، بينما كانت حقيقة حزنها وبكائها وولولتها... ليست فقط من آلام العصا، التي اعتادت عليها بين الفينة والأخرى، ولكنها وجدت لها فرصة للتعبير عن ألمها وحزنها، عندما ظنت أن شريف أمل حياتها انتقل إلى جوار ربه... فدب اليأس في قلبها لخسارة فتى أحلامها وأملها المرجو.

وما حدث أن والد صباح رأى باب البيت مفتوحاً؛ وابنته تقف في الشارع ، وكان ظهرها إلى الباب أي إلى داخل المنزل، وتبكي في الوقت نفسه بحرقة ظاهرة للعيان من خلال دموعها التي تسيل على خديها، وكان هو في تلك اللحظة في حالة الثمالة التامة... طبعاً لم يكن هانئ وهو اسمه... لم يكن بطبعه من ذلك النوع المحافظ المتزمت، ولا من النوع المتشدد جداً، لكن فقر الأسرة الذي حلّ

بغير ما أراد منذ زمن ليس بعيد شئت أفكاره... فقد سمح لابنته صباح بإكمال دراستها الجامعية... ولم يفرض عليها لبس الحجاب أو العباءة، لكن اعتياده على شرب الخمر، ووضع ابنته التي أصبحت صبية في سن محرج، فحين رآها تقف خارج الباب أمام عشرات الناس، أغضبه الأمر مما جعله يسحبها من شعرها إلى داخل البيت ويعاقبها بالضرب.

وللتوضيح أكثر عن وضع والدها، واسمه هاني كما قلنا من قبل... كان سبب تبدل ظروفه المادية إلى الأسوأ قد غير من طباعه وبدل من اتزانه وهدوء فكره، إضافة إلى ولعه بالخمر فقد تحول إلى رجلٍ سريع الغضب، لذلك أصبح يفقد أعصابه لأتفه سبب، فكان دائماً يستعمل الضرب عقوبة لتربية أولاده وبناته، ويبالغ في تصرفه هذا، بسبب تبدل ظروفه.

جلست صباح القرفصاء، مسندة ظهرها إلى جدار داخل أرض الدار وأخذت تبكي بحرقة، ويبدو أنها تتعمد أن يصل صوت تأوهاتِها إلى والدها الذي ما زال يقف في بهو المنزل قريباً منها... مما حدا به لأن يخطو نحوها ويظهر لها نوعاً

من العاطفة المشوبة بالضيق نتيجة تصرفه القاسي المبالغ فيه... تقدم إليها وهو يصيح بها:

اسكتي ما بك؟ وكأنه لم يظن إلى وقع ضربته وتحطم عصا المكنسة على كتفها... لكنه أخذ يسأل نفسه مشفقاً، هل كسرتُ لها عظمة كتفها حتى بقيت تنوح وتبكي؟ تقدم نحوها محاولاً استرضاءها، في حين كانت هي في وادٍ آخر... تبكي ألماً وحظاً وتندب حبیباً تركته ميتاً في اعتقادها منذ لحظات، نعم لم تتفرق الناس من مكان رؤيتها له بعد... وهنا لعبت عند صباح العاطفة الغريزية في حب الأب، فعندما رأت والدها يتجه نحوها ورأت الدموع تسيل من عينيه؛ هبت واقفة وركضت إليه ثم أمسكت بيده تقبلها وتقول:

أأنت من يترضاني يا والدي؟! وأنا التي أخطأت... أنت من يترجاني؟! أرجوك سامحني... نعم أنا أخطأت ووقفت في الشارع دون أذنك... كان ذلك فضولاً مني... الفضول يا والدي فقط دفعني لأتبين سبب تلك الضجة وجمهرة الناس التي رأيتهـا... شغلت بالي وهرعت لأرى كغيري، وفي الوقت نفسه خشيت أن يكون ما وقع هو لشخص

يهمنا أمره ... لذلك حاولت أن أعرف السبب ثم غصت
 بريقها، وعاودها البكاء من جديد، حين تذكرت أنها لا
 تعرف شيئاً مما آل إليه مصير شريف... ويبدو أن تلك
 العاطفة الحياشة جعلت والدها يستعيد عقله المشوش
 من أثر الخمر، ويستعيد بعضاً من حنانه كأب... عندها
 اتجه نحو ابنته يترضاها، بينما هي بقيت تبكي حظها
 البائس على من لا تعرف عن مصيره شيئاً.
 اقترب والدها منها وقال:

_ لا تلوميني يا بنتي... أنتم لا تعرفون جميعكم سبب
 فقرنا، ولماذا ساءت سمعتي وتردى حالنا.
 وفيما يبدو أن تأثير الخمر قد بدأ يخف قليلاً من
 رأسه... ثم تابع كلامه:

لدي سرّ لم أطلع أحداً عليه، لكن الآن سأطلعكم على
 مصيبتى... استمعي أنت وإخوانك له! فلا أريد أن
 تكرهوني أكثر من ذلك وبدأ يروي لهم قصته:

_ كان لي صديق اسمه عبد الله... شاركته بمالي منذ أكثر
 من عشر سنوات... ربما كان الواعون منكم في طفولتهم
 يتذكرون حياة اليسر والرغد الذي كانوا يعيشون فيه... ثم

أخذ أبوها يروي قصة شراسته مع رجل وثق به... لكن
ذلك الصديق فيما بعد غدر به واختفى تماماً.
وسنعود معكم لنستمع إلى قصته كاملة.

الباب الثاني

الفصل السادس

فيس بوك

- _ أين أنت يا حبيبتي؟
- _ ما زلت في الندوة يا حبيبي، لم تنتهِ الحفلة بعد... خلال ساعة سأكون بينكم.
- _ هيا يا صافية... جنت مع الأولاد... لا أستطيع تلبية طلباتهم.
- _ لا عليك اصبر يا حبيبي... كي تعرف الآن قيمتي عندك، وتعرف كم أعاني معكم أنت والأولاد.
- _ أعرف... ولا أريد أن أعرف زيادة، المهم أن تأتي لتلبية طلباتهم.
- _ إنهم الآن يكرموني بعد أن ألقيت قصيدي الوطنية.
- _ مبارك مني أيضاً، ولكن تعالي أكرمينا بطيب طعامك.
- _ حسن لن أتأخر.
- أخذ الزوج يهتمهم ويقول لنفسه:
- _ يا الله ما أشبه النساء بالقطط يحملن في صدورهن سبعة أرواح... صبرهم الطويل... ويتحملن أمور البيت... والحمل والولادة... وتربية الأطفال... والوظيفة... والصبر

على الزوج... الحمد لله يا ربي الذي خلقتني رجلاً... ثم أردف وكأنه يعاتب نفسه:

_ لكن مالنا نحن ومال الندوات؟! أم مسؤولة عن أربعة أطفال وزوج ناجح في عمله، ومنتج وبارز في المجتمع وكريم في بيته... لماذا تتركه وتذهب إلى حضور مثل هذه الندوات؟ ولماذا تتأخر حتى أنصاف الليالي؟ يا إلهي إنه شيء مقرف حقاً!

عادت صفية... فتحت الباب... سكون ما قبل العاصفة في البيت.

نظر أيوب إلى زوجته صفية أم هشام بتناقلٍ شديدٍ عندما أخذت تتحسس رقبته بحنان وتقول:

_ نائم يا حبيبي على الكنب؟ ثم نظرت إلى حالة أولادها... يا إلهي حتى الأولاد يتوزعون في أرجاء الصالة، وينام كل واحد منهم على كنبه وييده جهاز ألعابه!

_ ماذا سأقول لك يا أم هشام؟!!

اسمعي الحياة بهذا الشكل لا تطاق أبداً... نحن مالنا ومال ندواتك؟ وما الفائدة منها؟ أنت تركت الدراسة منذ عشرين عاماً واليوم عدتِ إلى حضور مؤتمرات ومحاضرات لن تفيدنا بشيء... شيء عجيب وممل!!

_ لا تنس أنك أنت من شجعتني... وأنت من فتح لي حساب الفيس بوك... وأصبحت ترى بنفسك حجم التفاعلات على منشوراتي... وكم تنال من الإعجابات والتعليقات.

_ الصبر يا ربي... الصبر... هيا جهزي العشاء، ثم تابع ساخراً... بل جهزي السحور... حرام عليك، هذا حراماً ما تفعلينه بنا... الأولاد ينامون دون عشاء، ودون أن يحفظوا دروسهم وآيات ربهم... ودون مذاكرة لواجباتهم المدرسية... هل يعقل هذا يا أم هشام؟ يا... حبيبتى.

_ سأحاول يا حبيبى مستقبلاً أن أتفادى التأخير.
_ مللت هذا التعهد يا أم هشام... بل مللت هذه الحياة التي أنا فيها... ثم تمتم لنفسه:

_ لقد باتت حياتي أقرب إلى أن أكون زوج الست! أعمل واجباتي في النهار وواجبات زوجتي في الليل!
حاولت من جديد تقديم أعذارها... إلا أنه ملّ من تكرارها... وفي الوقت نفسه لا يريد إغضاها... فالحمل ثقيل جداً جداً عليه إذا ما فكر بالطلاق... فليدهما أربعة أطفال... كبيرهم لم يتجاوز الرابعة من العمر وصغيرهم ما زال يحبو.

ذهبت صفية فوراً إلى المطبخ بعد أن بدلت ثيابها ولبست قميص نوم مثير تحاول تلطيف جوهما... فما كان منه إلا أن تبعها وحضنها من الخلف، ولف يده حول رقبتها يحاول أن يدير لها رأسها نحوه كي يقبلها، وهي تتصنع مقاومته بغنج ودلال... لكنه فجأة نفر منها وقال:

_ ما هذا العطر الذي يفوح منك ومن شعرك... ما هذا الذي لم أشمه عليك من قبل؟! بدأ ينظر إليها حانقاً ويراقب انفعالاتها... أحس بأنها رجفت قليلاً لكنها أعادت رأسها إلى ما كان عليه، ثم قالت على الفور:

_ رشت زميلة لي تجلس على المقعد المجاور نفحة بسيطة، كي تغريني باستعماله وهي مندوبة شركة لهذه الماركة...سكت أيوب وهو يتمتم بنفسه دون أن يُسمعها ما يقول:

لكن هذا العطر رجالي وأنا أعرف أي حقير يستعمله... أنا أكرهه... أشمه عليه بكثرة عند زيارته لنا! ثم تابع وهو يقول بنفسه لا حول ولا قوة إلا بالله:

إن بعض الظن إثم... ربما أنا مخطئ؟! لقد كانت ثقته بزوجته فوق الشبهات، وتتجاوز حدود المألوف بحيث لا تسمح له أن يشك بإخلاصها... ثم وراء ذلك كله، خمسة

عشر عاماً من الزواج المستقر والحب... ولا يتذكر إنهما
ناما ليلة واحدة متخاصمين... هز رأسه وتمتم:

_ لعنك الله وخزاك أيها الشيطان ولا حول ولا قوة إلا
بالله... هل من المعقول أن أشك بصفية زوجتي؟ لكن
الأمر لا يدع مجالاً للشك... إنه واضح ربما كانت
تكذب، هذا العطر لا يمكن أن تستعمله هي أبداً! لو
أنها جربته كما تقول... لكان ذلك على يدها فقط!

_ ما بالك سكت يا حبيبي؟ كل ذلك وما زالت شفتاه
ملتصقتين بعنقها... لم يفت إحساسها تلك البرودة التي
بدأت تشعر بها... نعم لقد شعرت بفقد العاطفة والحنان
الذي كان قبل ثوان في تصرفه!

سلّت نفسها من بين يديه على مهل، وخرجت لتتركه واقفاً
كالصنم مذهولاً فاقد الإرادة، ثم قالت معاتبة وهي تبتلع
لعابها:

_ انتظر لحظات يا أيوب... دخلت غرفة نومها ثم عادت
إليه وبيدها زجاجة عطر... رشّت منها نفحة كبيرة في
وجهه مما جعلته يشهق كأنه كان غريقاً وخرج من تحت
الماء فجأة!! وقالت بصوت نبراته عالية:

_ لقد ابتعت لك هذه الزجاجة وكنت أظن أنها
ستعجبك...

_ الله الله منذ متى وأنت تعرفين أنني لا أحب رائحة هذا
النوع إطلاقاً؟ بل أكرهه وأكره من يستعمله.
وعلى هذا سارت ليلتهم لا ينعصها ظاهرياً أي شيء مما جد
عليهما... أما نفسياً ففي عقل كل واحد منهما معركة
يدور فيها حوار غاضب لا يريد التسليم بفكر غيره...
لندخل عقليهما الآن لحظات ونسمع الوسوس التي تدور
في رأس كل منهما، نبدأ بأيوب الذي رفض حجتها من
أساسها:

_ هل يعقل ما بررته لي عن سبب انتشار رائحة هذا
العطر على ثيابها؟! لقد غافلتها قبل لحظات بعد أن بدلت
ثيابها وتسللت إلى غرفة النوم... وجدت الرائحة نفسها
منتشرة في دولا ب ملابسها، وفي أماكن متفرقة من
الشوب نفسه ترى كيف هذا؟!!!!

أما صفية التي لا تريد أن تقيد حريتها:

_ ترى هل وصل به الشك إلى درجة القناعة؟ أم الأمر
سحابة صيف ومرت بسلام؟
أيوب:

_ أنا أعرف جيداً من يستعمل هذا العطر وأكرهه هو وعطره... ثم لماذا كنا متجاورين في المقاعد؟ حتى لو سلمنا بذلك، كيف وصلت الرائحة إلى صدر الفستان والجهات الأخرى منه... هل تخونني؟! وابتلع ريقه ثم تابع يتمتم:

_ يا إلهي لا تجربني بمثل هذه الأمور... فكما تراني يا ربي... نفسي قانعة... نظيف... نظيف من الدنس.
صفية:

_ لا أعلم والله أين سيرسو المركب بنا بعد اليوم؟! نعم أنا اشتريت زجاجة العطر كيلا تساوره الشكوك والوساوس بعد أن كان زميلي كمال يجلس في القاعة بجواري.
أيوب:

_ يا رب... افتح لي باب علمك لحظة ولا تصدمني بما أكره... ليس لي سوى منعها من المتابعة في الطريق الذي تسير عليه الآن... طريق الندوات واللقاءات الأدبية... لقد بدأت أشك بمجدواها، لكنني أرى والعياذ بالله أنها ربما تحولت إلى لقاءات غرامية! ثم إن مكان المرأة الطبيعي بيتها... خاصة ربة الأسرة أم الأولاد... ليس لها سوى

البيت والعناية به وتنشئة الأولاد... وليس إهمالهم
وإهمال زوجها أليس لي الحق عليها؟!!
صفية:

_ لن أتنازل عن هوايتي وسأرفض أن يمنعي من حضور
الندوات، واللقاءات ومهرجانات الخطابة... لقد بدأت
أظهر بقوة على الساحة... لقد أصبحت اليوم عالماً من
أعلام المجتمع، وراية من رايات المهتمين بالأدب، هذا
النقاش الصامت، كان يدور في عقل كل واحد منهما
همساً... فيتعارك العقل مع الواقع.

لا شك بأن المصالحة في الأزمات عادة ما ينحصر مكانها
بين الزوجين بين المائدة وغرفة النوم، كعادة أكثر
الأزواج... لكنهما هذه المرة توسدا فراشهما، وأدارا
ظهريهما إلى بعضيهما على غير العادة... ناما بعيون مغلقة
وعقول تغلي كالمراجل... كان الأمر اليوم أكبر من طبخة
مالحة أو ماسخة.

قالت لنفسها همساً:

غداً سأخبر أخي هانى بشكوك زوجي قبل أن يسبقني هو
إليه ويثور أخي علي... لكن يبدو أنها غيرت رأيها فجأة
وقررت ألا تنتظر إلى الغد... نهضت بسرعة وفتحت

جوالها تريد الاتصال بأخيها ويبدو أن أيوب كان يراقبها
إلا أنه فهم ما أرادت عمله... تكلم بنبرة قاسية:

_ لا داعي للفضائح... أنت تعرفين أخاك ولا تعرفين متى
يصحو من سكرته، ربما يكون الآن سكراناً فيثرثر بما
لا يفهم، ولا يعلم.

قالت بصوت ناعم ملؤه العتاب واللوم:

_ أتشك بي يا أيوب بعد خمسة عشر سنة من العشرة
بيننا... ومن حب وإخلاص؟

_ من حقي أن أحافظ على زوجتي أم أولادي أليس
كذلك؟

_ هل بسبب رائحة عطر غريبة تتهمني بالخيانة؟

تمتم بشفتيه قليلاً هامساً قبل أن يجيب:

_ ليتني لا أعرفه... ذاك الذي يهتم بهذه الرائحة... ثم
أضاف كلمة واحدة فقط:

سنرى... وعاد إلى النوم دون أن تسمع منه أية كلمة.

بقيت تعبت برأسيهما الوسواس... كان أيوب يشعر أن
زوجته تدوس كرامته... وربما سهرها وعودتها المتأخرة
تحمل دلائل غير مقنعة ولا تبرئها من الخطأ... لكنه لم
يجرؤ على اتهامها بالخيانة، ويحاول نزعها من تفكيره، إنه

يعرفها جيداً، ولأن عشرة العمر تجمعهما... كلما مرّ ذلك
الخطر في باله يدفعه ويستعيد بالله من الشيطان... لذلك
فضّل التّأني وعدم التصريح بما كان يوسوس في صدره من
شكوك.

أما زوجته فكانت تشعر بأنّ من حقها أن تنعم بهوايتها،
وترفض أن يمنعها أيوب من ممارستها، ولا تريد أن يحرّمها
من حضور المؤتمرات، والندوات والكتابة والشعر، خاصة
وأنّها أحست بأنّه أصبح لها جمهورها الخاص. ما بين
معجبين مؤيدين لأفكارها الثقافية... وازداد عدد
متابعيها على صفحات التواصل الاجتماعي تلك، وإن
كانت تعلم أن أكثرهم ما بين متملق ومتزلف... هدفهم
فقط الثروة وأن يسمعوها منها كلمة ناعمة أو أن لديهم
مقاصد لا تخفى عليها... كل هذا لم تجهله ولكن بطبيعة
بعض النساء اللواتي يسعدن بكلمات الإعجاب والمديح.
كان أكثر ما يزعجه إضافة لما سبق... ميزة الخاص في
الموبايل، أي (المسنجر) الذي ما كان يبطل رنينه لا ليلاً
ولا نهاراً فيقلق راحته!

في الصباح أرادت صفية أن تُلطف الجو مع زوجها، وكان هو أكثر رغبة بذلك... صنعت القهوة كعادتها ودعته بابتسامة عذبة وبدأت صفية الحديث:

_ لماذا ضخمت الموضوع هذه المرة؟

وكان ما زال يحمل بعض الغضب فقال:

_ أنت أم... ولديك أربعة أطفال، جميعهم بحاجة إلى رعاية وتنشئة صالحة وتربية جيدة، وأن تعطيهم الجزء الأكبر من وقتك... أنا لا أمنعك من التواصل مع أصدقائك... لكن وأنت في البيت عن طريق جهاز التلفون المحمول... أما مسألة السهر، وترك الأولاد بدون رعاية، فهذا أمر لا يليق بامرأة ذكية ومثقفةٍ مثلك... يبدو بأنّها استسلمت للواقع، أو أنها لا تريد أن تخرج مهزومة حتى النهاية

_ أرى أن بعض الحق معك... من الآن وصاعداً سأتواصل مع الأصدقاء من البيت، وقد أدعوهم أحياناً إلى هنا إذا سمحت لي.

أدار أيوب وجهه جانباً وهو يتمتم بصوتٍ غير مسموع:

_ محنة جديدة ستحل بنا يا ربي... وهذا ما يعني أنها ستجعل من بيتي مركزاً ثقافياً للعامة! ولكن مع هذا لنجرب.

بعد أيام بدأت اللقاءات والاجتماعات والسهرات... يوماً
 بعد يوم، وتكاثر الأصدقاء وأصبح الأمر لا يطاق
 بالنسبة لأيوب... حتى الحيران بدؤوا يقلقون من هذه
 التصرفات، بسبب ضجيج السيارات والتضييق على
 سياراتهم في المواقف القليلة في الحي، بسيارات الزوار
 وأصوات نقاشاتهم الحادة أثناء مغادرتهم في أوقات متأخرة
 من الليل.

ما كان أيوب يجد وقتاً كافياً كي يرتاح، أو يذاكر للأولاد
 ويراجع لهم دروسهم... فيما مضى كانت تعود زوجته
 مبكرة فترفع عن كاهله بعض الحمل، أما الآن... أصبح
 البيت ملتقى للأدباء والهواة والمتسلقين على الأدب فتروى
 القصص، وتلقى القصائد... وتأخذ الشلاجات نصيبها من
 الإطراء عند تفريغ محتوياتها، ومع كل هذا لم تُحلّ صفة
 بواجبات الأسرة أبداً من حيث المهمات الأساسية...
 كالطبخ والتنظيف... لكن الأمر بدا له ثقيلاً ومزعجاً،
 حيث غدا كل هذا على حساب راحته الشخصية ودخله
 المادي، فأصبح يذهب إلى عمله متكاسلاً ومتأخراً تنقصه
 الرغبة.

في صباح أحد الأيام بعد أن خرجت زوجته إلى السوق...
واصطحبت أولادها إلى المدرسة، وجدها أيوب فرصة
ليخرج من بيته مع بعض الحقائق، وفي نيته ترك البيت،
وتجربة النوم بضعة أيام في مكتبه،

رآه جاره وهو يخرج من بيته ويضع بعض الحقائق في
سيارته، فسأله جاره هذا المعروف بفضوله الشديد:

_ ما الذي يحدث عندكم يا أيوب؟ ولماذا هذه الحقائق؟

_ لا شيء غير عادي.. سأذهب في مهمة رسمية للشركة.

_ سهراتكم تتجاوز منتصف الليالي، وألاحظ اختلاطاً

بين الجنسين؟!

_ نعم... ليست سوى سهرات ثقافية، لا تشغل بالك إن

كان لك رغبة في الأدب والشعر... تفضل شاركنا أنت

وأولادك.

ثم كرر سؤاله:

_ أرى أمامك عدة حقائق إلى أين؟

رد أيوب ساخراً:

_ طردوني من البيت يا جاري العزيز... لا أعرف نظم

الشعر... هل تستقبلني عندك... الحقيقة لدي عمل تابع

للشركة في محافظة أخرى.

لم يخبره بما يتعرض له من ضغوط وأنه سيرحل لينام في
مكتبه عدة أيام ريثما يجد حلاً أو يقضي الله بهداية
لزوجته لتغيير تصرفاتها.

الفصل السابع

عودةً على بدء

كنا قد تركنا هانئ والد صباح يصارح أولاده، ويروي لهم سبب تدهور حالته المادية قبل سنوات والحالة المادية الجيدة التي كانت عليها الأسرة فيما مضى، ولترك أيوب ومشكلاته مع أهل بيته قليلاً، ونعود إلى أهم أحداث أبطال قصتنا.

كنا قد تركنا شريف يُعالج في المستشفى... ثم يلحق به شاهر ابن عمه... وسنعود الآن لنتابع الآن حالة المصاب شريف قبل أن نبتعد عنه كثيراً.

ذهب الطبيب إلى حيث يعالج المصاب، فشهد أمام باب غرفة المريض شاباً يقف ملاصقاً للباب شارد الفكر... بادي الحزن... ويظهر ذلك بوضوح على قسماات وجهه، ويبدو أنه لم ينتبه للطبيب الذي أمسك بمقبض الباب يريد فتحه، إلا بعد أن سمع صوت قرع الطبيب على باب الغرفة... وعندما استأذنه الطبيب كي يبتعد عن الباب، ويفسح الطريق لدخوله.

حاول شاهر أن يدخل مع الطبيب إلى الغرفة، للاطمئنان على قريبه ولكن الطبيب منعه من ذلك... ومع إصراره

وحجته بنقل حالته إلى أهله في القرية، وعده الطبيب أن يسمح له برؤيته... لكن ليس قبل أن يطمئن بنفسه على وضعه... بعد أن يرى حالته إن كانت تسمح، فإما أن يطمئنه، أو يدخله إليه... جلس شاهر ينتظر خروجه، وهو لا ينفك عن التفكير بالطريقة التي سيخبر عمه عبد الله، أي والد شريف بما حدث، وبمدى قبوله للخبر... ولأن عمه كان في غربة طويلة جداً... ولم يرَ أهل بيته إلا منذ عهد قريب.

حار في الطريقة التي سيعلمه بها... هل يذهب إلى القرية، أم يتصل هاتفياً به... استبعد الطريقة الأخيرة من فكره لسبب وجيه... فعندما تعرف أهل القرية بحادثة شريف... ستتوافد أهالي القرية كاملة إلى المشفى هنا، لذلك فضل أن يذهب بنفسه.

وكان قد علم قبل قليل أنهم يبحثون عن متبرع جديد للدم زمرة تتطابق مع زمرة دم شريف... حاول تقديم خدماته إلا أن زمرة دمه لم تلائم المصاب.

عاد شاهر من المخبر وانتظر أمام الباب قليلاً، وقرر أن يعجل بالذهاب... طرق باب الغرفة ثانية التي يعالج فيها شريف ليطمئن عن ابن عمه قبل الذهاب إلى القرية،

لكن الطبيب الذي وعده من قبل برؤيته، خرج في اللحظة نفسها وقال له:

_ قريبك بخير وحالته مستقرة، ولكن لا يمكنك الدخول إليه، لقد بدأ يستجيب للوخز، ويتنفس بشكل مقبول، لكنه بحاجة أيضاً لكمية أخرى من الدم ونحن نسعى لتأمينها... عندها غادر عائداً إلى قريته.

وصل شاهر إلى القرية وجلس مع عمه عبد الله وبدأ عمه يسأله عن ابنه شريف:

_ لماذا عدت وحدك يا ولدي وقد ذهبت كي تأتي بـابن عمك؟!

تردد شاهر كثيراً قبل أن ينطق ويخبر والد شريف بما حدث، لكن الأمر لا يمكن إهماله أو السكوت عنه، فأخذت الكلمات تتحرك في فمه وتتراقص على شفتيه قبل أن يجرؤ بمنحها الإذن كي تنطلق... لكن عمه سأله:

ما بك يا ولدي لماذا لا ترد؟ هل وقع مكروه لشريف؟ تكلم... هيا... لماذا أنت صامت؟ تكلم ما الذي تخفيه عني؟ هنا لم يعد لديه فرصة للتردد... رد عليه بصوت متهدج:

_ إنه الآن بخير يا عمي.

انتفض عمه قائلاً:

- _ وقبل الآن؟ ما الذي حدث لولدي وما خطبه؟
- _ حادث بسيط نجاه الله منه بأعجوبةٍ شديدة.
- _ شغلت بالي... ما الذي حدث؟ أخبرني بسرعة.
- _ صدمته سيارة لكن كما قلت نجاه الله.
- _ كيف ولماذا لم تخبرني فوراً وماذا تنتظر لتأخذني إليه؟
- _ ها أنا أخبرتك والقضية قضاء وقدر.
- _ يا إلهي قضاء وقدر؟ أم بفعل فاعل؟ لماذا لم تتصل بي وتخبرني؟

_ خشيت أن تتفاجأ بالخبر من بعيد، لذلك فضلت الحضور بنفسي... بعد أن اطمأنتت على شريف وها أنا جئت لأخبركم، وسوف أعود الآن هل ستأتي معي؟

لكن الأب الموجوع على مصير ابنه طلب من شاهر تفاصيلاً جديدةً، لعلها تكون أكثر وضوحاً.. إلى أن قال شاهر:

_ هيا يا عمّاه سيارتي جاهزة... لنذهب معاً.

كان قلب أبي شريف يحترق لوعة للوصول والاطمئنان على ولده، ويستعجل شاهراً والسيارة... كان يضغط بقدميه على أرضية السيارة وكأنّه هو من يقودها، وغايته أن تزيد

سرعتها خاصة، حين يتباطأ شاهر قليلاً على المنعطفات أو عند الضرورة... ومع أنّ شاهر يحدثه... إلا أنّه كان في عالم آخر ودموعه تتسلل، دون إرادته فيمسحها بين الحين والآخر بذيل غترته... بينما شاهر يهدئ من انفعالاته بكلماتٍ رقيقة...

تصادف وصول الأب للاطمئنان على ولده لحظة خروج الطبيب من غرفة شريف... فسأله بلهفةٍ شديدةٍ عن ولده... فرد الطبيب قائلاً:

_ لا أخفيك سرّاً... إن الخطر لن يزول نهائياً عن ولدك إلا إذا توفرت له كمية أخرى من الدم.

لم ينتظر عبد الله... بل شمر عن زنديه وقال:

_ خذ ما شئت من دمي بل دمي كله... خذ روحي إن كان ولدي بحاجة لها... رد الطبيب قائلاً:

_ سنختبر زمرة دمك إذا كانت تصلح... بعد قليل عاد المريض يحمل نتيجة الاختبار الذي أفاد بعدم توافق زمرة الدموية مع زمرة دم ولده... عندها قال الطبيب:

_ لا بد لنا من البحث عن متبرّع جديد، ثم شرح له كيف تبرع المحقق بكمية من دمه عجّلت بإنقاذ ابنه من

موتٍ محقق، وأن المحقق قام بواجب إنساني لم يكن يتوقعه ويشكر عليه لأنه أنقذه.

قال أبو شريف بلهجة استعطاف:

_ لكن يا دكتور أرجو أن تسمح لي بمشاهدة ولدي... وبعد إلحاحٍ سمح له بالدخول لرؤيته... ما أن دخل وشاهد ولده، وقد لُفَّ بالقماش وهو ما زال في غيبوبة حتى كلمه... ثم حاول أن يرفع صوته، لعله يسمعه، إلا أن الطبيب طلب منه أن يخفض صوته قدر الإمكان، حيث لا فائدة ترجى من هذا التصرف، فهو الآن في غيبوبة تامة وقال:

_ عليك الصبر... لقد تراجع الخطر الآن... إنما عندما جاؤوا به إلى هنا لم يكن في اعتقاد أحد أنه سيعيش، الآن أصبح كما ترى، يتنفس بشكلٍ شبه طبيعي، وأرجو منك أن تخرج الآن ودعنا نعمل... نبذل جهدنا لعل الله يمين عليه بالشفاء.

خرج أبو شريف والأسى والحسرة يملآن قلبه... جلس القرفصاء خارج الباب... لم تنفع نصائح قريه شاهر أن يعود إلى القرية، وهو أي شاهر سيتولى طمأنته تبعاً عنه ساعة بساعة، لكن الأب رفض الفكرة كما رفض أيضاً

أن يذهب كي يرتاح في بيت ولده الذي كان يجهزه على سطح إحدى المباني.

جلس الجميع في صالة المشفى بعد أن انتهى وقت الزيارة وسلموا أمرهم لله... مازال الخطر قائماً كما قال الطبيب... إن لم يتوفر له المزيد من الدم وسيزداد الخطر أكثر...

الفصل الثامن

حكاية قديمة

سنعود الآن إلى حيث تركنا هانئ يشرح لأهل بيته سبب فقره؛ والسر الذي أوصلهم إلى ما هم عليه الآن. أخذت الأسرة تستمع باهتمام إلى السر الذي يرويهِ لهم... وهم يستمعون للمرة الأولى، لهذا السر الذي كان يخفيه عنهم، باستثناء نسرين زوجته التي كان لديها اطلاع واسع منذ ذلك الحين.

خيّم عليهم الصمت وهم ينظرون باهتمام إلى والدهم رب أسرتهُم، نظرة ملؤها الأسى والحزن. عندها خفت نظرة الازدراء التي كانت تسببها لهم تصرفاته المقيتة بنظرهم؛ عندما كان لا يصحو من سكره حتى يعود إلى ما كان عليه.

خاصة وها هو الآن يكشف لهم السبب، وإن كانوا مازالوا يتذكرون بعضاً من حياتهم، وطفولتهم التي كانوا يعيشونها منذ زمن بعيد عندما كانوا يُجسّدون على ملابسهم وأكلهم... قبل أن ينتقلوا إلى هذا الحي ومن قبله الأحياء التي سكنوها سابقاً، وكيف خلال سنوات تراجعت معيشتهم إلى حدٍّ مهين جدّاً، ولولا عمل والدهم

هانئ في بعض صحواته لما وجدوا ما يقتاتون به... كذلك مجانية السكن عند صاحب الفيلا في هذا الملحق، ترأف بهم ولم يتقاض منهم أجوراً مقابل بعض أعمال بسيطة، كذلك شفقة على أسرته الكبيرة قبل أن تتزوج ابنته الأولى مريم... لم يكن يفسر سبب فقره لأولاده، وربما لم تسمح حالته المخمورة دائماً بذلك... ولا يسمح لزوجته أن تخبرهم بما مضى وبما غير حياتهم... فهي تعلم كل ذلك بالتفصيل... ولم يسمح لها أيضاً بتذكيره إطلاقاً بسبب تدهور حالته المالية.

بات الجميع يظنون أن الرجل خسر أمواله في القمار... وها هو الآن بدأ يصارحهم عن سبب تغير حالتهم، أخبرهم أن هناك من نصب عليه بأمواله، عندها وجدوا بعض العذر لتصرفاته، كشرب الخمر والسكر والعصبية الزائدة... أما سبب هذا الانفتاح على أهل بيته والتصريح بما كان يخفيه... فله دوافعه وسنعرفها في حينها.

سألته ابنته صباح:

_ لماذا يا والدي لم تشتكه ولم تقاضه... فقال متحسراً:
_ لكن أين هو؟! لقد غادر المدينة بعد أن أعطيته نقودي، كما أنني وقّعت على كفالة بنكية وضمنته بمبلغ

آخر كبير لأحد البنوك، لقد اتفقنا معاً على أن يذهب إلى الدول الأوروبية لشراء معدات المصنع الذي كنا ننوي إنشاءه، وكذلك بضائع للتجارة... إضافة لخسارة نقودي رهنت بيتي مقابل تلك القروض، وبيع بعدها للسبب ذاته. أما كيف اختفى هذا الرجل فجأة؟ هذا ما لا أعلمه... كتبنا عقوداً ووقعنا عليها، ووقعت أنا على الشراكة، وسجلنا كل شيء بالطرق القانونية عند محامٍ، ووثقنا اتفاقنا عند الكاتب بالعدل، لكن ما حصل كانت نتيجته أن أخذ أموالنا ورحل، ولم أكن أعرف بعدها هل سيعود، وفي النهاية جزمت بأنه ربما لن يعود إطلاقاً لا هو ولا الأموال، لكنني حتى يومنا لا أعرف شيئاً عنه.

في الماضي كان أفراد أسرته يشكون بي، ويدعون أنني السبب في اختفائه وعندما أسألهم عنه يقولون:

أنهم فقدوا الاتصال معه... بينما كانت زوجته... كلما ذهبت لأسأل عنه تقيم الدنيا وتقعدها علي، وتقوم بالصراخ والعويل، وتتهمني بأنني وراء اختفائه، وأحياناً تلم جيرانها علي بصراخها! فأعمل المستحيل على النجاة من برائتها، وفوق هذا كله تعرضت للمساءلة القانونية فيما بعد، وطلبت للتحقيق عدة مرات للسبب ذاته، حتى

أثبتّ لهم أنه غادر إلى أوروبا، من خلال بيانات وتسجيلات الخروج والدخول في الجوازات... لكن بعد مدة من سفره علمت عن لسان زوجته، أنهم تلقوا اتصالاً منه من الصين لكنه لم يتكرر.

لقد كان الاتفاق بيننا أن يذهب هو إلى إحدى الدول الأوروبية لشراء البضائع والمعدات... لكن كما أخبرتكم... اختفى وانقطعت أخباره حتى اليوم...

هذا ما حصل وها أنا أخبركم جميعاً به؟ أنت وإخوتك... لكن ذلك البرميل المتدحرج التي هي أمكم تعرف كل شيء... وحفظت هذا السر، وأنا لم أبح به لأحد غيرها خجلاً من سذاجتي، أمكم تعرف كل شيء وهي التي شجعتني عندما طرحت الأمر عليها... ردت عليه بغضب:

_ لم تكن تعمل قيمة للمال... كنت تبعثره دون حساب، وعندما سألتني ظننت أنني وجدت باباً لحفظه وتنميته. أنا لا أعرف عبد الله ولا أم عبد الله... كنت ستفعل ما يحلو لك دون مشورتي... أليس كذلك؟

تساءلت صباح وهي تشفق على ما مرّ بهم وبوالدها:

_ قصة مؤسفة، ولكن أين اختفى الرجل؟

_ ليتني أعلم! فكما ترون خلال تلك السنوات الأخيرة
كم تنقلنا من مدينة إلى أخرى، لعلّي أجد من يعرفه، أو
من يدلني على مكانه ولكن دون جدوى...

وآخر الأمر سكنا في هذه المدينة منذ أشهر، ولكن ما
حصل منذ ذلك الحين أن أدمنت على الشراب، كي أنسى
أحزاني، ولا أعود أبالي بالوضع الذي أنا فيه.

ولكن يا بنتي... الآن كل ما أريده منك أن أعرف سبب
وقوفك خارج الباب؟ ثم ذهابك إلى حيث يتجمهر الناس،
ثم عودتك باكية... كنت أراقبك ولا أبالي... كان الشراب
يلعب في عقلي وينسيني كل شيء، ولكن ما أن عدت
ووقفت ووجهك إلى الناحية الأخرى، وكان أثر الشراب ما
زال يلعب في رأسي، ضربتك... لكن بعد أن بدأ يخف
تأثيره ويتراجع، بدأت أستعيد وعيي... وحصل قبله ما
حصل... سحبتك من شعرك وضربتك...

_ أخبريني عما كان يجري في الساحة ولماذا كنت معهم؟
صارحيني يا بنتي، كما صارحتكم أنا الآن وما كنت أود
أن أبدي سذاجتي بما حصل معي لأحد، فقد أعطيت مالي
لمن لا أعرف عندما سحرني بطيب كلامه وزين لي الدنيا
جواهر!

هيا يا بنتي...تكلمي فقد لا تجديني في حالة صحوٍ، كما
أنا فيها هذا اليوم إنها فرصتك... هيا الآن أشعر بسعادة
غريبة... أراد أن يضحكهم فقال:

أنت كما ترين في حالي! هل سمعت بطرائف أبي النواس...
مرّ به أحد السكارى فضحك أبو النواس حتى استلقى على
قفاه! وحين سألوه... ما بالك تضحك وأنت شيخ السكارى.
قال:

_ لم أر سكراناً قبل اليوم... لأنني أسكر قبل الناس
وأصحو بعدهم... وهذا حالي أنا يا بنتي، صارحيني الآن
لعيّ أجد لك عذراً فيما فعلت... قبل أن أعود لما كنت
عليه...هيا. فقالت صباح: هذا الشاب المصاب كان زميلي
في الجامعة وقد تواعدنا على الزواج.

فجأة قطعت حديثهم طرقات عجولة على الباب
الخارجي...

فُتح لها الباب ودخلت امرأة متأنقة إلى أبعد الحدود، كأنها
قادمة من أحد قصور باريس، على الفور هب هانئ وهو
يقول والسخرية ظاهرة في كلامه:

_ الله، الله... هل سلموك إمارة يا صفية؟ أم أنك أصبحت
تعملين اليوم عارضة أزياء دون أن أدري؟

أجابته وهي تحاول تقبيله:

_ لا هذا ولا ذاك يا أخي... الأناقة مطلوبة... إن الله جميل
ويحب الجمال... أليس كذلك يا هاني؟
_ كعهدي بك أيام المرحومة أمنا، أنت المنتصرة وعلى حق
دائماً.

_ دعنا يا أخي مما مضى واسمع ما جئت لأجله.
_ شاكية على زوجك كالعادة... كان يكلمها وينظر إلى
زجاجة خمر شبه ممتلئة قربه، ويتبسم لها وكأنه يطمئنها
ساخراً كيلا تفقد صبرها! (أي للزجاجة)
_ هذه المرة نعم شاكية ومظلومة... ولن أشكو أمري إذا؟
أنت أخي الكبير والشكوى بعد الله لك أنت.
_ ومتى لم تشكيه يا أم هشام؟ ومتى لم تكوني في النهاية
أنت المخطئة يا صفيّة؟
_ أنت لا تحبني ودائماً تقف ضدي، اسمعني أولاً.
أجاب ساخراً:

_ هيا تكلمي قبل أن تفقد زجاجتي صبرها... عندها
ربما يحصل ما لا تحمد عقباه.
أخذت تشرح له ما حصل بينها وبين زوجها أيوب أمس
بالتفصيل، وكيف أنه بدأ يشك فيها بسبب ما اشتبهه من

رائحة العطر الرجالي على ثيابها... وكيف عادت اليوم إلى البيت ولم تجده، وأخبرها جارهم أنه شاهد زوجها يحمل حقائب عديدة في شاحنة صغيرة... لكن إلى أين؟ هذا ما لا يعلمه.

بدأت صفية أخته تروي كل ما مر بينهما، وقبل أن تنهي حديثها تناول زجاجة الخمر من جانبه وأفرغها بفمه دفعة واحدة، ثم نظر إلى أخته... ثم عاد ينظر إلى كفه المفتوح، وبظاهره هوى بصفعة على جانب وجهها اصطنع فيها القوة، وبما أنها كانت صفعة مفاجئة... ترنحت صفية على إثرها، وكادت أن تسقط إلى الأرض، هي والكرسي الذي تجلس عليه!

انفعلت وخرجت باكية تشتم وتلعن الأخوة التي على شاكلته، وتترحم على أمها وأبيها اللذين تركاها تحت رحمته وعربدته...

وقف هانئ ينتظر خروجها، وعندما أصبحت أخته في الشارع صفق الباب بقوة خلفها وقال لمن حوله:
_ لا تصدقوها... منافقة وكاذبة... لقد كمني أيوب هذا الصباح وشرح لي القصة كاملة، وهو أصدق منها

بألف مرة، وأخذ يروي لهم ما سمع منه، وأنه أخبره كيف
تترك زوجها وأولادها، وتتغيب أكثر الأحيان إلى ما بعد
منتصف الليل!

وأنها فيما لو استمرت في هذا الطريق ستجلب العار لهم
ولأولادها، وسيطلقها إن لم ترتدع... ثم أضاف:

_ لن أؤساح معها بعد اليوم... سأجعلها تندم فيما لو
استمرت في السير على هذا الطريق.

لم تمض دقائق قليلة حتى عاد الطرق على الباب من
جديد! فقام هانئ بتثاقلٍ وفتح الباب.

_ أنتِ؟!... لماذا عدتِ؟ قلت لك من قبل لن أستقبلك
مرة أخرى إلا إن كنت أنت وزوجك معاً، ثم ماذا تريدين
الآن؟

_ جئت لأعتذر منك أنت أخي الأكبر ولك علي حق
الطاعة.

_ ما شاء الله... كفى مراوغة ومداورة لماذا عدتِ؟
تكلمي بصراحة.

_ كما قلت لك لأعتذر فقط... ثم طوقت رأسه بيديها
وقبّلته... تبسمت ورفعت شعرها لتريه مكان الصفحة
وقالت:

_ هيا اضرب مرة أخرى أنت أخي الأكبر ولك الحق...
ولأيوب الحق أيضاً أن يشكوني إليك... أعترف بأنني كنت
مخطئة... قالت تلك الكلمات، ثم انتظرت لحظات لتسمع
جواباً منه، لكنه لم يقل سوى: خبيثة... أفهمك... أدار
وجهه نحو الباب، فهمت منه أنه يريد منها الخروج، ثم
قال:

_ هيا عودي إلى أولادك الآن... وإن حسنت سيرتك
سيعود زوجك من نفسه إلى بيته... وكما قلت سابقاً أقول
الآن: لا تعودي إلينا سوى زائرة برفقة زوجك... لا أريدك
لا شاكية ولا مشكية... فهمت؟

خرجت صفية من جديد دون أن تعلق أو ترد عليه... ما
أن خرجت، حتى قال أبو صباح وهو ينظر إلى من حوله:
_ أفهمك أيتها الماكرة... أتدرون لماذا عادت صفية بعد أن
ضربتها ولماذا تنازلت عن الإهانة؟

ردت صباح:

أنا أعرف عمي قاسية جداً ولا ترضى بسهولة... لكن
باعتقادي وجدت نفسها مخطئة، لذلك أرادت الاعتذار
منك... ضحك هاني، ثم رد بسخرية:

_ لا أحد يفهمها سواي... لقد تربينا في بيت والدينا معاً...
 دللتها أُمي كثيراً وكذلك أبي وكانت تحصل على كل ما تريد
 منهما بدلاًهما وحبهما لها... كانت وحيدة وكنا نُضرب
 بسببها كثيراً! فكررت صباح السؤال:

_ إذاً لماذا جاءت؟

_ أولاً: جاءت شاكية... وبعد أن رأيتني أشرب زجاجة
 الخمر كاملة ظنت أنني فقدت عقلي وسكرت... وربما
 لساني أصبح طليقاً، وسيصرح بكل ما تريد أن تعرفه!
 ثانياً: كانت تظن أنني سأخبرها بالتفصيل عما أخبرني
 زوجها، لكي تعرف كيف ستواجهه عندما تعود إلى بيتها
 وتلتقي به، لكنني أنا أفهمها، على العموم، ولم يكمل... قام
 وأحضر زجاجة أخرى مما دفع أهل بيته للانسحاب بهدوء
 من حوله، والابتعاد عنه خوفاً مما سيحدث بعد قليل...
 فربما فقد وعيه إن أكثر من الشراب كعاداته... لكنه وقف
 ضاحكاً ورفع الزجاجة الأولى التي أفرغها في جوفه أمام
 أخته... ثم مدها نحوهم بيده وهو يقول ضاحكاً:

_ إنه ماء فقط في عبوة الخمر هذه... أُرعبت حصّة به... لا
 تخافوا... من اليوم وصاعداً لن أشرب إلا القليل ولا ثمالة
 بعد اليوم هيا جهزوا لنا الغداء.

وسأتابع لكم حكايتي بعد الغداء... دخل أبو صباح إلى
غرفته وهو يقول لابنته:
_ انتظريني هنا ولا تذهبي من مكانك.

.....

لا بد لنا نحن من أن نستغل فرصتنا الآن لنعود إلى بطل
حكايتنا، لتتابع مصيره بعد أن تركناه بين الحياة والموت
ووالده ينتظر متبرعاً بالدم لابنه لكي ينجو من مصيره
المجهول، حسب رأي الأطباء!

الفصل التاسع

لوعة أب

خرج أبو شريف من غرفة ولده، والدموع تملأ عينيه خوفاً على مصير ابنه، خاصة وقد مضت عدة ساعات على نقل كمية الدم الأولى له من قبل المحقق، ولم يتقدم بعدها حتى الآن متبرع آخر بعد المحقق الذي قدم له الكمية الأولى من دمه، عندها رفض أبو شريف الذهاب للراحة في بيت ولده أو العودة إلى القرية... أو حتى مغادرة المستشفى حتى يطمئن تماماً على سلامة ابنه... عندها جلس يبتهل لله ويدعوه لأن يرسل له فاعل خيرٍ يسعف ولده ولو بقليل من دمه بأي ثمن يطلبه.

لذلك جلس في الصالة داخل المشفى، ورفض كل ما أتى به قريبه من طعام وشراب، والدموع لا تفارق عينيه لحظة... يتساءل ويتصور عمّا سيحصل لولده بعدها... هل سيستعيد وعيه؟ ومن أين سيحصل له على دم من الزمرة نفسها... تذكر أن الطبيب وعده أن يتدبر أمره! لكن يعود ويتساءل ويقول:

من أين؟ من أين؟

أسئلة كثيرة كانت تخطر في عقله المشوش... يغفو لحظة ثم يصحو بعدها مذعوراً بين الحين والآخر، لشدة خوفه على مصير ابنه.

انبج الفجر وابنه على حاله... ولم يتقدم أحد للتبرع له بالدم، ولم يأت من المشافي الدم الذي طلبه الطبيب! وظل المسكين شريف يعيش على الأمصال والسوائل التي تعطى له؛ ولولا عناية الله وما سبق أن تبرع المحقق له به من دم، لكان الآن في عالم الأموات...

لم يتحرك عبد الله والد شريف من الصالة... خطر في باله أن يذهب إلى المحقق نفسه لعله ينقل لولده كمية جديدة من دمه... لكنه أولاً لا يعرفه، وثانياً قد يكون في هذا ضرر على المحقق رافت؛ لذلك شك أن يتفاعل المحقق مع هذا المطلب أو يرضى بذلك، بل ربما تؤدي هذه العملية إلى أضرار صحية كبيرة عليه... أخيراً صرف الفكرة من عقله... وبينما هو في التفكير، دخل إلى الصالة رجل عظيم الهيئة لا يعرفه، يرافقه رجلان أحدهما يحمل بيده كراسة، والآخر كما بدا له يرافقهما للحراسة، وعلى الفور سأل الرجل الكبير:

وهو الذي عرفناه في بداية الرواية... المحقق المكلف
بالأمر... سأل فور دخوله الصالة:

مَنْ مِنْ أَقَارِبِ الْمَصَابِ شَرِيفٌ هُنَا؟ ردّ والد شريف
ملهوفاً:

_ أنا ما الذي حدث له؟

_ لا تخف جئنا نستكمل التحقيق... هل عاد إلى وعيه؟

_ كلا ما زال فاقداً للوعي وينتظر من يتبرع له بالدم و...

لم يدعه المحقق يكمل بل قال:

_ أخبروا الطبيب أنّي هنا... لا بل خذوني إليه.

_ دخل المحقق ومساعدته، ودخل معه عبد الله والد

شريف وشاهر ابن عمه.

وفي غرفة الطبيب الذي رحب بهم كثيراً... دار الحوار

التالي بينهم، بدأه المحقق:

_ ما الحل يا دكتور بالنسبة للمصاب؟

_ لتر واحد يعطى له من زمرة دمه نفسها قد تقربه من

الحياة.

شمر المحقق عن ساعده وقال:

_ تفضل خذه الآن، لنرد لهفة والده هذا الذي يبكيه دون

حق.

رد الأب بلهفة:

_ دون حق؟! إنه ولدي... ولدي يا سيدي... من دمي
ولحي وهو أُمِّي.

_ فهمتني خطأ يا أخي... (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله
لنا) هذا قصدي.

_ أفهمك يا سيدي، وأثبت بأنك من كبار الشرفاء عندما
تبرعت لولدي من دمك... والآن تريد ذلك أيضاً

رد الطبيب ممزحاً، ولكن مع جدية واضحة بكلامه:

_ إنه معروف كبير تحسد على ثوابه أن تنام مكان المصاب
ويجيا هو!

_ ماذا؟ وكيف؟

_ لا يجوز... لم يمض سوى ساعات على سحب كمية من
دمك، ولا يمكن أن نكرر العملية قبل أيام.

_ ربما يصيبك أذى من ذلك... من غير الممكن أن نقبل
طلبك، المريض تعدى مرحلة الخطر، وبإمكاننا الصبر
والانتظار حتى الغد... لقد طلبنا كمية من خارج
المحافظة، وقد تكون في الطريق إلينا، لذلك فالمسألة
مسألة وقت ليس أكثر.

أضاف المحقق موجهاً كلامه إلى والد شريف:

_ يا سيد أبو شريف لدينا شابان في السجن الآن... هما اللذان تسببا بإصابة ولدك، ينتظران رغبتك بالتنازل أو الادعاء... الأمر يعود لك.

_ دعنا ننتظر الغد... أو حتى دعهما في السجن الآن حتى يشعرا بذنبيهما... لن أتنازل الآن حتى أضمن مصير ولدي... وأقسم بالله لو لم يكن هذا الحادث نتيجة عبث صبياني، لما تركتهما لحظة واحدة في السجن.

_ هذا حقك... وأنا معك في هذا الرأي، لقد تبين لنا من التحقيق أنهما كانا يتسابقان ويعبثان بأمن الناس الذين لا ذنب لهم سوى أنهم يتوجهون إلى أعمالهم إن كان هذا ذنباً لهم؟!!!
قال الطبيب:

_ اذهب الآن يا سيد أبو شريف وأرح نفسك في أي مكان، وتوكل على الله... نحن هنا لخدمة جميع المرضى وكل محتاج لعلاج من أي طبقة من البشر، لا تشغل بالك، إن في بقائك هنا تعباً عليك... ولن يقدم له شيئاً سوى الإرهاق والتعب لك.

نتمنى أن يخرج سليماً معافى، ونسعى جاهدين لشفاء ولدك ولكل من يحتاج إلى علاج، المهم أن وضع ابنك

مستقر ولم يبقَ أي نزع ولا يوجد كسور إطلاقاً... الحمد لله، لذلك أنصحك بأن تذهب وتستريح الآن.

لا بد لنا من العودة إلى عائلة أيوب التي تركناها في صراع نفسي وانعدام ثقة متبادلة بين الزوج والزوجة.

الفصل العاشر

ثقافة جديدة

استيقظ أيوب هذا الصباح... شعر بآلام شديدة في ظهره وخصارتيه، ويبدو أن ذلك بسبب عدم تعوده النوم على المرتبة التي في مكتبه لم تكن مريحة له... لكن غضبه من تصرفات زوجته التي رحل بسببها إلى مكتبه جعله يشعر براحة غير معتادة.

جلس يفكر وهو يشرب قهوته من يد فراش مكتبه... بينما يفكر بأولاده، وكيف كانت ليلتهم عند أم وصفها بأنها عابثة ومهملة.

نظر إلى ساعة مكتبه فوجدها تجاوزت الثامنة، لذلك أراد الاطمئنان عن أولاده ومعرفة الأخبار عن زوجته... نادى الفراش:

_ تعال يا رجب... سأرسلك في مهمة.

_ حاضر يا سيدي... إلى أين؟

_ اذهب إلى بيتي وأحضر لي بطانية من هناك، ثم في الوقت نفسه انتبه لما في البيت، لا تسأل أحداً، أنا أعرفك ذكي وتفهم.

_ حاضر... سأتيك بالأخبار، وهذا الذي تريده أليس كذلك؟

_ قلت أنك ذكي ولم أكن مخطئاً... هيا انطلق.

أشعل أيوب لفافة تبغ للمرة الأولى منذ سنوات، بعد أن تخلى عن التدخين، كانت غايته بأن الدخان سيخفف من شدة مصيبته، وينسيه همومه... لكن الحقيقة لم تكن كذلك... مع بضع نفثات من السيجارة أصيب بدوار وسعال شديدين... طبعاً عزا ذلك لطول غياب التبغ عنه، وتأقلم رئتيه مع طول البعد عن التدخين مدة طويلة، لكنه مع هذا استمر في إشعال واحدة من الأخرى.

جلس أيوب ينتظر بلهفة عودة رجب الذي تأخر... وأخذ يتلهى بالنظر إلى حلقات الدخان التي ينفثها من فمه، ثم يخرج بعض الدخان من منخريه، ويتنهد بصوتٍ أقرب إلى حنين ناقة، فقدت وليدها الذي غاب عنها فجأة... كانت الآلام النفسية الكثيرة التي يعاني منها، تدفعه لأن يبكي ولو دون دموع... وأحس بمرح كبير لرجولته ومعنوياته التي حطمتها تصرفات زوجته... لقد خرجت صفية عن مألوف واقعهم القديم قبل ولعها بتلك الهواية... بدأ يستعيد صور الخيبة التي حلت بأسرته اليوم في مخيلته...

تتسابق مع صور السعادة التي كانت تغمر حياتهما قبل أن يشتري لها جهاز الهاتف الحديث جداً، ويفتح لها حساباً على مواقع التواصل الاجتماعي (الفيس وغيره)، ويتذكر كيف كانت البداية مع هذه التقنية الجديدة... ألعاب... تسلية... مطالعة... ثم بدأت الأمور تتسع وتتعقد... خاصة أنها أسمت نفسها باسم أنثوي مغرٍ جداً (القمر الأنيق)، فبدأت الإعجابات تنهال عليها جملة خاصة من الشباب، وأصبحت التعليقات المادحة والمبجلة لها بكلمات ناعمة مشجعة تدفعها للاستمرار وتبعدها عن التروي والتفكير المنطقي والواقعي... صدقت نفسها أنها كاتبة متمكنة... ثم جعلها الغرور تصدق نفسها بأنها أصبحت ملكة الشعر والنثر... وصدقت بأنها أستاذة فوق العادة... ثم منحتها إحدى المجموعات دكتوراه فخرية، بعد أن انهالت عليها الشهادات الفيسبوكية... تكريم... شكر... تقدير، وبدأت الدعوات لحضور المنتديات واللقاءات الأدبية... وغرقت في الحفلات والمقابلات.

صحيح أنها تطورت مع المدة وتحسن أدائها كثيراً، بل أصبحت فيما بعد فعلاً مرجعاً أدبياً للهواة، وكانت كلما أرسلت إحدى صديقاتها، أو أرسل صديق لها يستشيرها

في جملة أو نص، تجري نحو زوجها تبشره بقدرتها العجيبة... في البداية كان يفرح لها كثيراً جداً، ويبارك فوزها ببعض المسابقات الأدبية، التي يعلم أن من يدير بعضها هواة، قد لا يفقهون من الأدب شيئاً... لكنه بعد مدة أحس بالفعل أنها برعت في هذا المجال، إلى درجة أنه كان هو يستعين بها أحياناً، في حل بعض الألغاز؛ أو تصويب بعض الكلمات نحويّاً ولغويّاً، وفي كتابة بعض العقود اللازمة لعمله.

اليوم أخذ أيوب يلوم نفسه ندماً:

— ذنبي أنا... ذنبي، لقد جلبت المشاكل لنفسي ولبيتي (ويهمس بالمثل ويقول: على نفسها جنت براقش...). نظر من جديد إلى الساعة بقلق ثم تمتم:

— لقد تأخر رجب... ما الذي حدث له يا تُرى؟ قام بالاتصال به، لكنه لم يرد... إلا أن رجب أصبح الآن داخل المبنى... لحظات ودخل رجب فارغ اليدين! لم يجلب معه البطانية التي طلبها!

سأله قبل أن يدخل من الباب:

— لماذا يا رجب تأخرت؟ ولماذا عدت فارغاً؟ هل منعتك من الدخول؟ هل رفضت أن تعطيك؟

_ لا هذا ولا ذاك... لم أجد أحداً في البيت، قرعت الجرس
مئة مرة... لكن ما من مجيب!

_ أشكرك يا رجب، من المؤكد أنها أخذت الأولاد إلى
المدرسة... نعم... نعم... وأظنها كانت تقول... أنها ستزور
أهلها، لكنني نسيت ذلك... كان من الواجب أن أتأكد قبل
أن أكلفك بالذهاب، أو بالاتصال أولاً... أنا آسف يا
رجب، اذهب إلى عملك أشكرك... لكن رجب كان يفهم
أن هذا الكلام مجرد تبريرات!

هنا زاد قلق أيوب... فتابع حديثه الهامس مع نفسه
وزادت تساؤلاته:

_ ترى أين ذهبت؟ هل نامت خارج البيت هذه الليلة؟
حتماً الأولاد في المدرسة الآن... أعتقد أن أختهم الكبيرة،
هي من تقوم الآن بكل مهماتهم في البيت، وسيارة
المدرسة تنقلهم، أي أنهم لا يحتاجون لأهم في الصباح...
لا بد لي من الذهاب للتأكد... ولا شك بأن القارئ لم يفته
أنها في تلك الساعة التي افتقدها رجب، ولم يجدها، كانت
في زيارة لبيت أخيها هاني والد صباح، وقد تابعنا ما دار
بينهما هناك.

لم يكد أيوب يركن سيارته في مكان قريب من بيته نوعاً
ما، حتى ظهر جاره الفضولي وقال بحشوية واضحة:
_ أراك عدت يا جاري من سفرك بسرعة!
فرد أيوب عليه بامتعاض شديد:
_ نعم كنت في مهمة أولية للشركة أنهيتها بسرعة،
وسأذهب اليوم في مهمة أخرى.
_ كم تتقاضون على تلك المهمات؟ أكيد مبالغ طائلة!
_ الشركة ملكي... لا أحد يدفع لي.
_ لكنك كنت تحمل العديد من الحقائق! لقد توقعت
أنك ستقيم هناك مدة طويلة؟!
هنا بدأ أيوب يرد عليه بامتعاض واضح، ومع أنه يعرف
أن جاره شديد الفضول، لكنه لا يريد أن يغضبه...
ويبدو أن الله أراد أن يرحمه من حشوية هذا الجار
الفضولي... فقد ناداه أحد أفراد أسرته من النافذة للدخول
إلى البيت لتناول الفطور... عند ذلك ترك أيوب في حاله،
ودخل إلى منزله مجبراً.
لعبت الوسواس برأس أيوب، وجلس بسيارته يراقب المنزل
لمعرفة سبب عدم وجود زوجته الآن؛ خاصة أن منتدياتها
التي بات يمجّها ويكرهها لا تُدعى إليها مبكرة، أو أنّها لا

تقام باكراً... انتظر قليلاً... وبعد لحظاتٍ لمح سيارة زوجته من طرف الشارع تقترب من البيت، ثم تتوقف قرب البوابة، ثم تنزل منها...

كانت المفاجأة الكبرى التي أصابته بالدهشة، ولكن مع غضبه الشديد؛ إلا أن شفتيه افترتا عن ابتسامة عريضة ساخرة... لو لم يكن يعرف بأن هذه السيارة هي سيارة زوجته لما عرف من هي المرأة التي تنزل منها الآن! هل هي زوجته فعلاً أم لا؟ زوجته التي أمضى بحضنها خمسة عشر عاماً، ولديه منها أربعة أولاد!

نزلت صفية من سيارتها... كانت تضع على رأسها قبعة نسائية غريبة تتوجها باقة من الورد، ربما كان هذا الزي من القبعات يعود إلى قرون مضت... وربما أعيد اليوم العمل به... كما أنها تلبس فستاناً مزركشاً على غير العادة التي يألّفها في لبسها الهادئ، وهو الذي رأينا كيف سخر منه أخوها هاني.

إنها أمامه الآن كما وصفها أخوها... تبدو كإحدى الأميرات الأوروبيات في احتفال تنكري... أو إحدى عارضات الأزياء! اقترب منها وهو يغلي من الغضب وقال بنبرة قاسية ملؤها السخرية:

_ الله... الله ما هذه الأناقة؟! أين كنت يا صفية في هذا الصباح الباكر؟

لم تمهله حتى يتم كلامه، بل ردت بسخرية أشد:

_ أهذا أنت يا سارق النوم؟ أين نمت الليلة الماضية؟ في حضن راقصة... أم الزوجة الثانية التي لم يتسنّ لي شرف معرفتها... لماذا لم تخبرني عن موعد عرسك كي أرقص لكما فيه؟!!

_ ردي عليّ... سألتك أين كنت؟ وما سر ذهابك مبكراً؟
_ حسن سأجيبك... أنا أولاً نمت في بيتي... وأولادي في حضني... لكن أنت أيها ال...؟! ولم تكمل... في حضن أية داعرة نمت؟!! هل وصل بك الأمر لخيانتي؟ ولماذا؟ واقتربت منه تتنسم رائحة عطره لكنها لم تكتشف شيئاً ترد به على اتهامه لها سابقاً... بل زاد من حدة لهجته قائلاً:
_ أكرر أين كنت الآن؟

_ الآن أنا قادمة من بيت شخص اسمه هاني، ألا تعرفه...
أبو صباح... أظن أنك لا تجهل من يكون.
رد بسخرية متهمكماً:

_ أكيد... هو الذي افتتح معرضاً للأزياء دون أن أدري... لهذا تلبسين هذا الزي الغريب!

_ بل ليعلم أهلي البحبوحة والسعادة التي أعيشها عند زوجي المحترم... لكن يبدو أنني الآن سأعود إليهم، ثم بدأت بموجة من البكاء لا يعلم صدقها سوى الله... ثم أخرجت منديلاً لتجفف دموعها وقالت:

_ اسمع يا أيوب سلام الله عليه... لكنني أستغرب لماذا حملوك اسمه؟! هل ليسينوا له.

_ بل ليختبروا صبري عليك كما صبر سيدنا أيوب على بلواه.

_ انتبه للأولاد سأتركهم لك... إن بيت أهلي لا يتسع لهم ريثما أتدبر أمر السكن لي ولهم وأنت أرسل خلف زوجتك أو عشيقتك إلى هنا إلى بيتي... بيت أولادي... هنيئاً لك معها... لكن هل لديها أولاد؟ نسيت أن أسألك. بدأ يتظاهر بالهدوء، ثم سأها بلطف عندما شعر بأنها ربما تكون جادة فيما تقول، لذلك أجاب متسائلاً:

_ قبل ساعة لم تكوني في البيت أليس كذلك؟!

قالت وهي تتظاهر بالمزاح:

_ نعم... لم أجد زوجي حتى أستأذن منه... استأذنت من صورته... ألا يكفي؟ لكن انظر فوقك يا أيوب ذلك الحشري يراقبنا من نافذة بيته... ربما يسمع كلامنا.

ابتلع ريقه غضباً وقال:

هيا ندخل إلى البيت أفضل، ربما أحس أنه ظلمها، وأخطأ
بذهابه دون أن يخبرها ويظهر لها ضيقه مما يحدث في بيته.
ثم سكت لحظات ريثما دخلا إلى المنزل... أخذ أيوب
يبحث عما يبرر له فعلته، بعد أن وجدها صادقة فيما
تقول... لكنها قطعت صمته:

_ أعتقد بأنك لو نمت في بيت زوجتك الأولى صفية
الليلة الماضية، لتأكدت بنفسك أنها لم تنم... لا هذه
الليلة ولا قبلها خارج منزلك منذ دخلته... اللهم إن لم
تكن أنت معها... ثم اسألها وتأكد... ما زالت فرشتها
مبعثرة على السرير، بل ربما الفراش مازال دافئاً مكانها...
ثم عادت بموجة من البكاء... وهي تتنهنه وتقول:
أتخونني يا أيوب؟ لماذا يا أيوب؟ وكأن صمته وإحساسه
بالندم أخرساه عن الجواب...

_ ادخلي الآن، وسأوضح لك في الداخل أين كنت.

_ هنا المِفصل يا سيد أيوب... إما أن أعود الآن من حيث
أتيت، إلى بيت أهلي (قالت هذا وهي ترتجف من أن
يتحول هذا الكلام إلى حقيقة، لأنها تعلم كيف ستكون
حياتها في بيت أخيها، وكيف ستعيش عنده)، وإما أن

أعرف أين نمت أنت الليلة الماضية؛ عندها ندخل معاً إلى داخل البيت؛ وينتهي كل شيء... هناك في الداخل لن نعدم طريقة تصلح بيننا...

عندئذٍ تأكد له تماماً بأن زوجته صادقة، ولم يبقَ سوى أن يبرئ نفسه هو، لذلك طلب منها الاتصال برجب فراش مكتبه، وأن تسأله أين نام الليلة الماضية، ولماذا أرسله في الصباح إلى البيت.

تصالح الزوجان، واقتنع كل منهما بوجهة نظر الآخر؛ واتفقا على عدم دعوة أصدقاء زوجته إلى البيت مرة أخرى، لكن الحل الذي رضي به أيوب طائعاً... هو الحل الذي كرهته زوجته... لن تستغني صفية عن مواهبها وإنجازاتها واتصالاتها بالأصدقاء، لذلك تركت الأمور معلقة من هذه الناحية، ريثما تجد طريقة لمتابعة هواياتها ونشاطاتها الأدبية.

الفصل الحادي عشر

وتغيرت الأحوال

قبل الرجوع بقصتنا إلى مساء اليوم الذي سبق... حين دخل والد صباح إلى غرفته، ولم يعد بسرعة، لا بد من أن نستكمل ذلك الفصل، ونبقى في المستشفى نتابع أحداث المصاب شريف ووالده. قلنا إن شريف كان يعيش لحظات صعبة... أخرجوا والده من الغرفة التي يرقد فيها حزينا على حالة ابنه التي وصل إليها، ورفض أن يخرج من المستشفى، لذلك نام في الصالة الخارجية على أحد المقاعد. فجأة دخل في الصباح الباكر رجل إلى الصالة نفسها، فوجد طرف المقعد خالياً فجلس عليه، وكان يجلس على الطرف الآخر أبو شريف وهو يغط في نوم متقطع على المقعد نفسه، ويجلس بجواره شاهر ابن أخيه... من الجهة الأخرى... وقد استيقظ على اهتزاز المقعد... لكنه لم يهتم حتى بالنظر إلى الرجل الجديد الذي تحرك المقعد بسببه عندما جلس عليه، ولم يهتم بأن يعرف من هو... كان في شغل شاغل عنه. لكزه الرجل برفق، قائلاً:

_ إذا سمحت يا أخي... هل تستطيع أن تدلني على شاب مصاب اسمه شريف... أدخلوه بالأمس إلى هنا، لقد سألت الاستعلامات، فأرسلوني إلى هذا القسم لكن مُنعت من الدخول إليه، ربما لوجود الأطباء في الداخل، كنت أريد الدخول إلى غرفته... وأود الاطمئنان عليه.

فأخرج الرجل منديله، ثم مسح دموعه لكنه لم يرد عليه... ولم ينظر ناحيته إطلاقاً... فتولى الرد الشاب الآخر نيابة عنه، والذي هو شاهر الجالس الى جواره من الناحية الأخرى على المقعد... وقف وقال له:

_ تعال معي يا عم... سأدلك عليه، ثم قاده إلى باب الممر... وتكلم مع الحاجب بضع كلمات، سمح على إثرها لهما بالدخول، دخل الاثنان... نظر إليه الرجل نظرة ملؤها الحزن والشفقة... لحظات ثم خرجا معاً، وفي الممر سأله الرجل:

_ ألم يعطوكم أملاً بأن يستعيد وعيه؟

_ نعم، لكن الأمر الآن يتوقف على العثور على متبرع للدم... لأن زمرة دمه نادرة جداً، ومنتظر أن يسوق لنا الله أحد الخيرين؛ فسأله الرجل:
لكن ما هي زمرة دمه، فقال:

الزمرة نادرة جداً (● سلمي) ونحن ننتظر أن يقيض الله لنا فاعلاً للخير... أو تصل المساعدة من مشافي محافظة أخرى كما قالوا لنا...

ولكن ما أثار استغرابه هي عدم معرفته بالصلة التي تجمع هذا الرجل، بابن عمه شريف... تردد بسؤاله عن معرفته بشريف وذلك خجلاً منه، وزاد باستغرابه خاصة أن لا شيء دل على معرفته بوالد أبي شريف إطلاقاً... بعدها بدقائق استدار الرجل مسرعاً من حيث أتى وهو يقول:

انتظروني، ولم يزد... ثم اتجه نحو الدرج مسرعاً، دون أن ينبس بكلمة واحدة، أو يوضح لماذا انفعّل بهذا الشكل... ولماذا خرج ملهوفاً يلفه الغموض، اسماً ونية... لكن قبل أن تخفي رأسه الدرجة الأخيرة التفت إلى الجالسين على المقعد، وهما أبو شريف وشاهر، ونبههما بصوت عالٍ:

— راجع... لن أتأخر... انتظرائي... غاب جسده، لكن صوته مازال يكرر تلك الجملة.

والآن لا بد لنا من العودة إلى حيث تركنا الفتاة صباح ليلة أمس بحالة رعب، تنتظر والدها، بعدما دخل إلى داخل البيت... وقال لها انتظريني هنا ولا تذهبي من مكانك...

لكنه لم يخرج من الغرفة... أخذت ترتجف من الخوف
وتستعيز بالله مما سيفعل أبوها بها، لأنها تعلم عقوبة
والدها المفرطة... أخذت تتساءل:

لماذا دخل؟ هل ليأتي بقطعة الخرطوم التي اعتاد أن يعاقب
بها أهل بيته أحياناً؟ هل سيضربني بها؟ هل؟ هل؟
تساؤلات كثيرة سنعرف إجاباتها في حينها... وما زاد
رعبها، أنها اعترفت له بكل شيء عن علاقتها بشريف
وسبب حزنها... صبرت وجلست تنتظر... لكن هدوءه
الذي كان يديه لها قبل قليل، كان يطمئنها إلى حدٍ ما.

وبعد انتظار لأكثر من ساعة، أتت والدتها، سألتها ماذا
تفعلين هنا؟

قالت صباح:

تركني والدي هنا وقال انتظريني ولم يعد! ولا يعلم سوى
الله ما وراء عودته!

وأخذت تبكي ووالدتها تهدئ من روعها، وتطمئنها بأنها
اليوم في أحسن حالاته، ثم قالت:

_ رأيت والدك يخرج من الباب الآخر!

_ إلى أين يا أمي؟

_ لا أدري يا بنتي، وأنت تعلمين الكل يهاب أن يسأله عما يفعل.

_ لماذا إذاً تركني أنتظره؟

_ لا أعلم... انتبهي... ها هو قادم.

_ غريب؟ إنه يبتسم ولا يترنح كعادته!

_ أرجو ألا يغير طبعه بعد قليل.

وصل والدها وقال بصوتٍ مملوءٍ بالحنان:

ابشري يا صباح إن صاحبك ما زال حياً يرزق! كانت صباح تستمع إلى صوت والدها، وكأنه قادم من العالم الآخر مستغربة ما يقول... وبين الحين والآخر تهم برفع يدها كما تعودت لكي تتقي ضرباته...

قال والدها:

_ غداً صباحاً سأذهب للاطمئنان عنه، لقد سألت جارنا البقال فأرشدني إلى مكانه وقال بأن ابنه ذهب للاطمئنان عنه بعد أن نقلته الإسعاف... وبعد أن عاد أخبرني بذلك. عمت الفرحة قلب صباح... ولم تسعها الدنيا من الفرحة لهذا الخبر غير المتوقع، وبالذات مع حنان والدها غير المعتاد، كم تمنّت أن ترافق والدها، لكنها اكتفت بأنها

علمت إنه بخير، ومازال على قيد الحياة! على غير ما كانت تتوقع.

في الصباح جلست في باحة البيت تنتظر خروج والدها، فقد قال بالأمس، إنه في هذا الصباح سيذهب للطمئنان عن شريف... كانت تأمل أن تكلمه كي ترافقه... لكن لم تواتها الشجاعة لتطلب منه هذا الطلب. علمنا أن والدها كان فجر الأمس في زيارة للمستشفى... عندما زار المصاب شريف وقابل ابن عمه ولم يشاهد وجه والده الذي كان يجلس على طرف المقعد نفسه الذي جلس عليه... وقلنا أنه غادرهم حينذاك مسرعاً واعداً إياهم بالعودة. بينما هي جالسة تنتظر، كانت المفاجأة... وهي دخول والدها وهو يصيح:

أين أمك؟ أين البرميل؟ ثم يضحك مداعباً ابنته... قلنا مسبقاً إنه ذهب مع الفجر إلى المستشفى وعاد قبل أن يستيقظ أهل بيته.

استغربت أم صباح هذا الأسلوب الرقيق والجديد من زوجها، الذي لم تعتد عليه من قبل... كان يتعامل مع أهل بيته كافة، بأسلوب العنف والجهل، أسلوب السكاري والمخمورين، أما الآن فكما لمسنا تغير أسلوبه الذي أصبح

ناعما جداً، تغلب عليه الممازحة واللفظ، وأصبح يكثر من مداعبة زوجته بكلمة البرميل ويصفها به لسمنتها المفرطة، بينما كان قبل ذلك يطلق هذا اللقب عليها لؤماً، واستهتاراً بها.

وفي الحقيقة لم تكن تتضايق من تلك الكلمة منه، بقدر ما كان ضيقها من السمنة المفرطة التي هي عليها، ولم يكن لها يد فيها.

كان زوجها قبل أن تداهم تلك الأزمة المادية يمازحها بتلك الكلمة، بل أنه يدللها بهذا اللقب... لم يكن لديها عمل تتلهى به حينذاك... كان الخدم يقومون بأعباء البيت كاملة، وبعد أزمة زوجها التي حلت بهم وعندما كبرت صباح؛ أصبحت تقوم بمساعدتها فقلّت مشاغلها، وأخذت تعتمد عليها، مما ساعد على زيادة سمنتها، وتكدس اللحم على جسدها فتكور جسمها، وزاد وزنها بشكلٍ مفرطٍ جداً.

ما إن دخل أبو صباح من الباب حتى نادى زوجته بصوت عالٍ:

— هيا البسي ثيابك واتبعيني.

— إلى أين؟

_ ممازحاً... لا تخافي ليس إلى أحد الجزارين ليخفف من وزنك.

فردت عليه بدلالٍ واضحٍ، حين رأت حاله تبدل وكلامه تأدب:

_ حاضر يا... لكنها لم تجرؤ على استعمال كلمة حبيبي وهي تقصدها، فما زالت حديثه العهد بطبعه الجديد.
كانت صباح قد أخبرتها بكل شيء يخص قصتها مع أبيها بالأمس.

أطلعهم هانئ على أسرارهِ بالأمس، وعلى سبب انهيارهِ المالي ولكن لم يخبرهم من هو خصمه.
أجابت كالملهوفة على ندائه:

_ حاضر... حاضر... دقائق حتى أرتدي ثيابي.

_ هيا تحركي الأمر في غاية الأهمية... هيا لا يحتمل التمهّل أو المزاح.

_ ألا تنتظر حتى أعد لكم الفطور؟ لكنها لاحظت أن الغضب بدأ يرتسم على محياه فقامت مسرعة، ولبست على عجل... وانطلقت برفقته لكن إلى أين؟ لا تعلم ولا تجرؤ على سؤاله خشية أن يعود إلى سابق عهده، من الغضب... لكنها لم تكن تعلم بأن هناك أسباباً جديدة؛

هي التي كانت وراء تبدل طبعه، غيرت أسلوب حياته
بالكامل سنعرفها في حينها.

بينما هي في الحقيقة لم تقتنع كثيراً بهذا التبدل، لذلك
أخذت تسأل نفسها:

_ متى ستطير منه حمامة السلام التي حلت فجأة عليه؟
وهل يعود في لحظة ما إلى سابق عهده؟

قطعت السيارة بهما عدة شوارع، وهي صامتة دون أن
تسأل، أو تحاول أن تظهر له استغرابها، ولكنها كانت
تهمس لنفسها:

_ ليذهب حيث شاء، طالما لم يشرب اليوم وليس به سكر،
ربي احفظ له طبعه الجديد! لم يمض وقت طويل على سيره
حتى أوقف سيارته أمام المستشفى، وأخذت هي تنظر إليه
بذهول دون أن تجرؤ على سؤاله!

دخلت مع زوجها المشفى... لم تسأل... ولا تريد أن تسأل...
لكن قلبها كان يرقص فرحاً بما يبدو على زوجها من
طيب وهدوء!

أخيراً سألته:

_ لعله خير يا هاني... ألك في هذا المكان أحد؟

_ بل أنت من لك فيه مصلحة أكثر مني!

تبسمت وهي تتمتم... الحمد لله ليس لدي من أبكي
عليه... أهلي جميعهم في الدار الآخرة... وأنت وأولادي
جميعكم حولي... إن كان لك صديق تزوره سأنتظرك هنا،
ولكن من يا ترى؟!!

_ سترين يا نسرین.

لا شك أن القارئ توقع بأن هذا المشفى هو الذي يقبع فيه
شريف... سأل الحاجب الذي تحدث معه قبل قليل وهو
من سمح له بالدخول برفقة شاهر:

_ هل رأيت الشاب الذي كان هنا ودخل معي إلى غرفة
المصاب؟ ويقصد شاهر.

_ لقد رأيته يتكلم من خلال هاتفه... أتوقع أن أحد
الأشخاص اتصل به فخرج... ولا علم لي إلى أين...
لكنه كلفني في حال جاء والد شريف أن أخبره أنه سيعود
بعد قليل.

_ ولكن أين والد المصاب؟ ومن هو؟

_ أيضاً خرج قبل قليل، ولا أعرف اسمه، وبإمكانك أن
تأخذ اسمه من الاستعلامات.

_ لا يهم ولكن أين مكان التبرع بالدم؟

_ داخل هذا الجناح ولماذا تسأل؟ لم يدعه يكمل سؤاله:

- _ نعم... نعم جئت من أجل هذا الأمر.
- _ تعال معي... لكن قبل قليل ألم تكن هنا حين كان والده وقريبه هنا؟
- _ بلى.
- _ لماذا لم تتبرع بالدم ساعتئذٍ؟
- _ لست أنا من سيتبرع، ولكن تلك المرأة الضخمة هناك.
- ثم ضحك وهو يشير إليها.
- _ حسنٌ نأديها واتبعاني... أخذهم إلى الطبيب الذي يتابع حالة شريف.
- وفي غرفة الطبيب قال هانئ على مسمع زوجته:
- _ زوجتي تود التبرع بالدم للمصاب شريف.
- _ لتفضل بعمل الاختبار المطلوب لنعرف زمرة دمها...
- لكنه لم يكمل كلامه حتى أوقفته نظرات زوجته الغاضبة.
- فقالت متصنعة الغضب:
- _ من قال لك بأنني سأتبرع بدمي؟ ولماذا؟ ولمن؟ لماذا لم تخبرني؟! لكنها بدلت نبرة صوتها... كما تشاء ولن أرفض إذا كان في ذلك حياة إنسان... اقترب زوجها منها وهمس

بأذنها بكلماتٍ سريعةٍ... على الفور شمّرت عن ساعديها
قائلة:

_ خذ ما تشاء.

فقال الطبيب:

_ هل أنت متأكدة أن زمرة دمك سلبي.

_ نعم... نعم عملت تحليل زمرة حين عملت بطاقتي
الشخصية أي قبل أربعين عاماً.

وبعد أن تأكدوا من زمرة دمها تبرعت أم صباح للمصاب
بكمية كافية من دمها على شكل نقل مباشر، ولم تخرج أم
صباح من الغرفة حتى كررت سؤالها عدة مرات عن
الكمية:

_ هل تكفي؟ وأن سبب كرمها المبالغ فيه، أن زوجها
أقنعها قبل قليل بضرورة التبرع لهذا المصاب، وأنها ستسر
جداً عندما تعلم السبب، ولم يفت نسرين قصة ابنتها مع
شريف، وقبل خروجها أضافت ممازحة عندما وصلت إلى
الباب، وهي تهتم بالخروج وهي تضحك:

_ لماذا لا تأخذون كمية أخرى على سبيل الاحتياط، بعد
أن أكد لها زوجها أن المصاب هو شريف زميل ابنتها في

الجامعة سابقاً، وهو من سيكون خطيبها... ثم زوج ابنتها
مستقبلاً... رد الطبيب ضاحكاً:

_ إذا اضطررنا إلى ذلك سنستدعيك فوراً لأي مريض
يحتاج إلى زمرة دمك... سجلنا عنوانك الآن عندنا.
وتحول جو الانتظار والترقب إلى جو من المرح... غمرتها
السعادة الآن بعد أن علمت أن من تبرعت له هو من
سيكون زوجاً لابنتها إذا قُدر له الشفاء... وكانت صباح قد
أهينت بسببه بالأمس من والدها لأجله.

شكرها الطبيب وقال في نفسه:

_ الحمد لله لولها لما تدبرنا أمرنا... حتى الآن لم يُرسل لنا
ما طلبنا من أية جهة... لقد فرجت على المصاب.

خرجت أم صباح مع زوجها... وصادف خروجهما تلك
اللحظة عودة شاهر، الذي سلم عليهما وقال يعتذر عن
تأخره:

_ لقد اتصل بي أكثر من شخص ممن قرؤوا إعلان التبرع
بالدم... ويدعون أن زمرة دمهم تلائم المطلوب، وطلبوا
مني أن أرسل لهم نقوداً أجرة الطريق، حتى يتمكنوا من
القدوم من أماكنهم البعيدة.

لهذا ذهبت وحولت لأكثر من شخص مبلغاً من المال...
على أمل وصولهم إلينا هنا الليلة أو في صباح الغد قادمين
من محافظات بعيدة.

قال أبو صباح:

_ لا تتدعك المظاهر... أولاً عندما اضطر والدي للإعلان
عن حاجته لتبرع بالكلية... كانت تأتيني الاتصالات
يوميّاً كي أرسل لهم نقوداً ومصاريف سفرهم... وفي النهاية
انتقل إلى جوار ربه قبل أن يصل أحد من هؤلاء... هناك
من يستغل الظروف للنصب والاحتيال، لقد تصادف
مرونا الآن من هنا فأردنا أنا وزوجتي الاطمئنان على
المصاب لأنه من سكان الحي الذي نحن فيه... وإن كنت لا
أعرفه تماماً... أخبرتني ابنتي أنه كان زميلاً لها في الجامعة
فيما مضى... لم يقل له بأن زوجته تبرعت بدمها لشريف.
بعد قليل ودّعه وعاد إلى البيت وفي طريق عودتهما قالت
أم صباح:

_ لماذا لم تخبر قريبه أنني تبرعت له بالدم؟

_ وهل تريدان أجراً منه؟

_ كلا أريد أجري من الله فقط.

_ إذا اصمتي... الحسنة بمنبعها من القلب وليس

بإشهارها.

_ ألا تريد أن تكمل لي قصتك؟ أنا أعلم كل شيء

باستثناء التفاصيل.

_ نعم سأخبرك بكل شيء... وأبشركم بما يفرحكم.

الفصل الثاني عشر

مفاجآت العمر

ركب الزوجان في سيارتهما وانطلقا معاً، وبدأ يشرح لها ما عاذه بسبب الورطة المالية التي أوقع نفسه فيها.
 لكنه خفف سرعته فجأة أمام أحد المطاعم وقال:
 هيا انزلي لتتناول إفطارنا في هذا المطعم... تفاجأت نسرين
 بهذا الكرم الذي لم تعهده فيه منذ سنوات طويلة، وقالت
 وقلبيها يرقص فرحاً:

_ لكن البنات... صباح ومريم؟

_ عملت حسابهم سنأخذ فطورهم معنا... ومع هذا في
 البيت كل شيء متوفر وموجود. ثم أخذ يضحك وقال
 مماًزحاً: وددت أن أعوضك عما فقدته من الدم في المشفى
 بقرصين من الفلافل.

تابع كلامه يحثها على الإسراع: هيا... هيا انزلي... طبعاً
 كانت أم صباح تنتظر بشوق هذه البادرة التي افتقدتها
 منذ سنوات طويلة... وهنا أكدت أن زوجها اليوم، قد عاد
 إلى طبعه القديم ودماثة خلقه، وأسلوبه الرقيق والتعبير
 عن محبته المكشوفة، لذلك حمدت ربها وقالت بنفسها:

_ سبحان مغير الأحوال... كيف بين ليلة وضحاها انقلب الرجل... ولكن مع هذا بدأت الشكوك والظنون تلعب في عيها، وتتسائل بينها وبين نفسها:

_ ترى ما الذي غيره بسرعة لهذه الدرجة... ها هو انفتح على البيت والأسرة وعليّ أنا... لا بد أن وراء الأمر ما خفي عليّ... ترى هل تخفي هذه البشاشة امرأة أخرى؟ هل... هل؟ أسئلة حائرة لا تعرف كيف تفسرها... والأغرب أنها ترى زوجها يحدثها، والبشاشة واضحة في تقاطيع وجهه وظاهرة في جميع تصرفاته! أي أن هناك أمراً مفرحاً جداً... لا تدري كنهه!

جلسا على الطاولة يتناولان فطورهما... وكان كرمه مبالغاً فيه إلى درجة أنه لم يترك شيئاً كان يعرف إن زوجته تحبه إلا وطلبه على الطاولة... من أين النقود؟ من أين جاءت ثم قالت:

_ لم يبقَ ما أفسر كرمه عليّ الآن سوى أنه كان يمثل عليّ... ربما باع دمي في المشفى اليوم... لكنّها استبعدت هذا الخاطر.

أخذت الكآبة تغزو وجهها... وتشوش أفكارها، فلا تستقر على خاطر؛ إلا وتنتقل إلى شكوك تجهل حقيقتها.

مع هذا بدأت نسرین أم صباح تحاول إخفاء ظنونها،
وتتصنع ابتسامات باهته... هنا لاحظ زوجها تبدل
حالتها... سألها:

_ ما بك؟ لقد ظننتك ستسرين بهذه الدعوة... ردت عليه
بشجاعة اصطنعتها الآن:

_ أفكر بما تغير فيك... قبل أن تكمل شرح قصتك...
وما سبب هذه السعادة التي حلت عليك الآن؟
تظاهر الرجل بالغضب الشديد وقال ممزحاً:

_ يبدو أنك تعودتِ على ما كنتِ عليه، وسأعود أنا إلى ما
كنت فيه...

_ كلا... كلا دعنا كما نحن الآن إنها رحمة من ربي أحسد
عليها... أخبرني عن سبب هذا التحول الغريب العجيب
بين لحظة وضحاها! وكيف حلت فجأة؟

_ سأخبرك... لكن يجب أن أشرح لك أولاً ما الذي تغير
في حالنا!

_ ثم أخذت تقهقهه وتقول ممزحة... تفضل أنا أسمع!
ولكن قل بربك لي كم قبضت ثمن تبرعك بدمي!!

_ فأخذ يضحك... لقد وردني اليوم في هذا الصباح إشعار
من البنك يسألني فيه هل يخصم ديونه من الرصيد الموجود

في حسابي؟ أم أسدد ما علي للبنك نقداً... كما تعلمين أن البنك كان يعطيني مهلة بين الحين والآخر للتسديد ويهددني بالحجز لأن حسابي شبه مغلق، وأخيراً حين تأخرت ولم يجدوا شيئاً عندي يحجزونه، وكانت إنذراتهم تأتيني دائماً... وعندما أرادوا الحجز على سيارتي وجدوها مرهونة لبنك آخر لحساب شركة السيارات... لم يستطيعوا أن ينفذوا أية عقوبة حجز على شيء أملكه... لم يجدوا لدي ما أملك، لذلك لم يبقَ لهم سوى الانتظار... اليوم عندما ذهبت في الصباح للاطمئنان على شريف، وبعد أن خرجت من المستشفى... ذهبت مباشرة إلى البنك لأتحقق من الإشعار الذي وصلني أمس، فوجئت بوجود مبلغ كبير جداً أدخل في حسابي القديم على دفعتين، الأولى تساوي القيمة التي أعطيتها الى شريك الغفلة آنذاك، ومبلغاً أكبر منه كثيراً أيضاً تم ايداعه في حسابي في اليوم نفسه. وهذا المبلغ يعادل ضعفي المبلغ الأول. وعندما سألت المدير من يكون الذي أدخل تلك النقود، أخبرني إن اسمه عبد الله... تذكرت أنه ربما يكون الرجل نفسه الذي أعطيته أموالاً قديماً ثم اختفى فجأة... فكان اسمه

عبد الله... أما أين هو الآن فهذا ما لا علم لي به... لكن
حتماً سيظهر فيما بعد.

تناولا فطورهما، ثم طلب من زوجته أن تسبقه إلى
السيارة، ريثما يقوم بدفع الحساب، ثم طلب أن يجhez
فطوراً يأخذه لابنتيه معه... ومصادفات البشر كثيرة...
فبينما كان يهم بالخروج دخل شاهر، وقد فاجأه بالسلام
عليه... رحب به قائلاً:

_ ماذا يا شاهر... هل تطمئننا عن حالة ابن عمك؟ وهل
تحسن وضعه؟

_ ليس كما هو... بل أفضل قليلاً، لكن الطبيب أخبرني
أن فاعل خير جلب زوجته فتبرعت له بما يكفيه، وكان
ذلك قبل ساعة فقط أو أكثر قليلاً لا أعلم من هو
وجزاهم الله خيراً.

غمز أبو صباح محاسب المطعم كيلاً يأخذ الحساب من
شاهر... حينما كان شاهر يرد على سؤاله ودون أن ينتبه
له... وقال:

_ إن عمي منذ الأمس لم يذق طعاماً... جئت أحمل
الطعام له ولزوجته أم شريف، التي وصلت قبل قليل من
القرية لتطمئن على ابنها، لقد عاد الآن ولا أدري أين كان،

لكن أغلب الظن أنه ذهب إلى الكراج لاصطحاب أم شريف من الكراج، فهي لا تعرف الأماكن هنا وقد سمعته الليلة يتكلم معها، وجلسا قليلاً يتحدثان ريشما يجهز المطعم ما طلب... بدأ الحديث شاهر وقال:

_ ليتني أعلم من هي تلك المرأة التي تبرعت بدمها إلى شريف، ولولا تبرعها له في الوقت المناسب لكان في خطرٍ شديدٍ... ربما أنقذت حياته الآن... لقد علمت من الطبيب أنه بدأ يتحرك ببطءٍ شديدٍ، وعلى حد قوله أي الطبيب ربما خلال أيام فقط يستعيد وعيه... وإن كانت إقامته ستطول في المشفى حتى تشفى الرضوض، والسحجات التي أصيب بها في كثير من أنحاء جسده... لم يعلق أبو صباح إنما غيّر الحديث قائلاً:

_ لقد عرفت من أهل الحي أن شريف يسكن وحده في حيننا... قال شاهر:

منذ أشهر حصل شريف على وظيفة جعلته يترك القرية؛ ويذهب للسكن بعيداً عن أهله، لهذا انتقل إلى هذا الحي وبدأ يؤثث بيتاً صغيراً... عبارة عن ملحقي صغيرٍ استأجره على سطح عمارة... في الحي نفسه الذي تسكنون

أنتم فيه، كان يريده عشاءاً للزوجية مستقبلاً نظراً لحالته المادية السيئة.

لقد أثر غياب والده على جميع أهله، الذي سافر منذ عدة سنوات، إلا أن الأخبار عنه قطعت نهائياً، لكنه عاد إلى القرية منذ بضعة أيام فقط... إن كنت تود أن تتعرف عليه سأعرفك به، لكن يا عماه لا تنس أنك جلست بجانبه على المقعد نفسه، حين جئت تسأل عن شريف صباح اليوم... حتماً أنك لم تعرفه؟

ولكن هيّا معي إذا أردت، لقد عاد الآن إلى المستشفى يبتهل وينتظر شفاء ابنه... وسيصاب بالجنون عندما يعلم بتحسن حالة شريف بعد أن تبرعت له فاعلة الخير بجزء من دمها جزاها الله ألف خير... أجابه هاني أبو صباح:

_ لا ليس الآن سأذهب إلى البيت أولاً وعندى عمل آخر... لكنه لم يخبره أن زوجته برفقته كيلا يعلم أو يشك بأنها هي من تبرع إلى شريف... وعلى كل الأحوال سأعود للاطمئنان عن شريف في وقت آخر.

ودّعه أبو صباح بعد أن أعطاه المطعم ما طلبه... جلس هاني يفكر أثناء قيادة سيارته يحاول ربط تلك الأحداث المتقاربة خلال هذه الأيام القليلة... وإن القدر يحاول أن

يحديثه بشيء ما لصالحه، وأخذ ينتابه شعورٌ غريبٌ لم يسبق له أن شعر به منذ سنوات... يهفو قلبه ويشعره بأمان وطمأنينة غريبتين... لم ينتبه إلا على صوت زوجته تسأله:

_ لماذا لا تنطلق؟ ما بك؟

إلا أنه ألقع بسيارته وهو يهز برأسه، ولم يتفوه بكلمة واحدة... وخلال الطريق إلى البيت كانت أم صباح تنظر إلى وجه زوجها المنهمك في القيادة... والذي لا تفارقه الابتسامة!

تغير زوجها اليوم بالذات نهائياً من رجل متشائم، إلى رجل دمث الأخلاق... لقد انقلب خلال ساعات إلى إنسان آخر تملؤه السعادة والحب، ويعج وجهه بالحيوية والمرح... نزلت أم صباح من السيارة لكنه تركها أمام الباب وهو يقول:

أنا لن أتأخر لدي عمل بسيط سأقضيه وأعود، ورفض أن يخبرها عن وجهته... انطلق أبو صباح بسيارته وترك زوجته في حيرة من أمرها تفكر: لماذا لم يقل لي إلى أين؟ وبطبع النساء المتردد الخائف على مستقبله من تصرفات الرجال المفاجئة أخذت تفكر بجميع ما مر بها... أخيراً

استنتجت أن الأمر لا علاقة له بوضعها الأسري... لا زواج جديد... ولا حب جديد... ولا علاقات مشبوهة... لم تعهد به مثل هذه التصرفات عندما كان يسكر، فكيف الآن بعد صحوته هذه؟ بعدها دخلت صباح إلى البيت تحمل بيدها كيس الطعام الجاهز... وجدت ابنتها في انتظارها فقدمت لهما الفطور الذي جلبته لهما من المطعم.

سألها صباح:

_ لم لا تأكلين معنا يا أماء؟ هل أفطرت؟

_ نعم مع والدك في المطعم... ولكن أين ابنك يا مريم؟
(مريم هذه أخت صباح، متزوجة منذ عدة سنوات)
جاءت من بيتها تزور أهلها منذ الأمس ومعها طفلها الصغير، لكنها لم ترد ثم عادت وكررت عليها السؤال:
_ أين زوجك أيضاً؟

_ ابني في الغرفة الثانية نائم... وزوجي أوصلني عندكم وذهب إلى عمله.

_ هل تشعرين بالراحة معه يا بنتي؟

_ نعم يحبني كثيراً ولا أستطيع العيش بدونه.

_ لكن لم يَدْخُلْ إلى هنا معك؟

_ لديه عمل... غداً أو بعد غد سيأتي ليأخذنا وترونه...
لكن أين أبي؟ لقد أرسل له معي مبلغاً من المال.
ليساعدكم به وهو يعرف حالتكم الصعبة.

_ هاتيه يا بنتي... لا تريد أم صباح أن تجعل ابنتها تشعر
بالخيبة، حين تعلم أن أهلها عادوا إلى سابق عهدهم
وثرائهم، كما خشيت أيضاً أن تعطي مريم المبلغ لأبيها
فيصدمها... ويخبرها عن التطور الذي جد في حياتهم، وقد
ييخس مساعدتها لهم... كأن يقول لا أريدهم أو لم نعد
بحاجة... لذلك أخذت أمها المبلغ مباشرة منها.

وبينما كانا يتناولان الطعام، كانت الأم تنظر إلى ابنتها
صباح... تنتظر منها أن تسألها عن حالة شريف، لكن
الخلجل منع صباح من هذا السؤال.

فقالت الأم ممازحة:

_ لم تسأليني عن شريف يا صباح ألا يهملك أمره، انتبهت
صباح إلى أن سر حبهما وصل إلى أمها، لذلك سُرَّت كثيراً
وأن والدها ربما يكون هو من أخبرها... سكنت صباح
وبقيت تنظر إلى وجه أمها إلى أن كررت عليها السؤال:

_ صباح... ما بالك... أين أنت من سؤالي؟

ردت الفتاة بحياء:

_ ها أنت قد رجعت من عنده أخبرينا.

_ إنه الآن بخير، وقد أخبرني والدك قبل قليل، إنه قابل شاهراً ابن عم شريف فطمأنه عنه، وكذلك تحسنت صحته نوعاً ما، وهو الآن بحالة أفضل.

_ لكن يا أماه لم تخبريني إلى أين أخذك والدي معه؟

_ لقد ذهب بي إلى المشفى دون أن يخبرني إلى أين ... لم يقل لي إن الشاب بحاجة إلى دم، وزمرة دمه نادرة جداً، ولحسن الحظ زمرة دمي تماثل زمرة دمه... لذلك أخذني وفجأني هناك! ولم يخبرني بذلك سوى عندما وصلنا! وطلب مني التبرع له بالدم...

كانت صباح تسمع من أمها وهي تبتسم واللحمة في يدها، لكن ما أن قالت أمها أنها تبرعت له بالدم حتى ألقت اللحمة من يدها، وصاحت: لمن؟ إلى شريف... ثم أعادت السؤال ورددت الجواب أكثر من مرة... بصوتٍ يتقطع ألماً ويأساً، تفاجأت أمها بهذا الموقف العنيف! وأخذت تسأل:

_ ما الضير في ذلك؟

ردت صباح بصوتٍ حزينٍ وهي تبكي:

_ ألا تدريين ماذا فعلت يا أماه... ماذا فعلت؟! ألا تعلمين أنه حُرِّم عليّ الآن.

فطنت الأم إلى ما قصدته ابنتها فقالت:

_ ومن أفقى لك بهذا؟ ومع عدم قناعتها... أخذت تلقي اللوم على نفسها، أولاً، ثم تحيل اللائمة على زوجها وتلطم نفسها، وتقول:

ربما لم ينتبه... لم أعرف، ولكن لا بأس... لا بأس لقد أنقذت حياة إنسان، ثم تعود إلى نفسها... وتبرر عملها بأنها لم تعرف نتيجة فعلتها... وعندما ذهبت مع هانى لم يعلمها إلى أين سيأخذها زوجها... ولم يقل لها... وأنها لم تعلم بالأمر سوى قبل ذلك بدقائق.

بدأت الأحاديث الودية بين أفراد الأسرة، لكنهن كن جميعهن يتصنعن الهدوء فيما بينهن، إنما الحزن والقلق يخيم على جميعهن بشأن تلك المسألة، غير المعروفة أو المحسوم أمرها.

أما صباح فكانت في وادٍ آخر تجيب بنعم أو بلا فقط... كأنها مازالت في امتحانات الجامعة، بسبب ذلك الموقف السيء الذي تظنه... قالت والدتها:

_ هل درست مثل تلك الفتوى في المدرسة أو الجامعة؟
_ كلا يا أماء.

_ إذاً ومن قال لك ذلك؟ أنا لم أسمع بشيءٍ من هذا القبيل ولم يكن في عهد سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) تبرع بالدم ولا قدرة لأحد على نقل الدم بين المصابين.

_ الأمر واضح يا أمي لقد اختلطت دماؤنا أليس كذلك؟
_ اطمئني سأسأل شيخ الجامع غداً، ولكن بحسب ما أعلم، إن التحريم لا يكون إلا بالرضاعة فقط، لأن الجسم يُبنى حينذاك... عندما يكون الطفل في مرحلة النمو، أما مثل هذه الحالة لم أسمع بها... غداً نعلم كل شيء.

ولنا عودة إليهم وإلى قضاياهم، وإلى مستوى تفكيرهم بعد قليل... لكن تهمنا أسرة أيوب التي تركناها على رجلٍ يغلي... في أعقد خلافاتها.

الفصل الثالث عشر

صبر أيوب

تصالح الزوجان أيوب وصفية... وعادت المياه إلى مجاريها... ولكن يبدو لنا... ما كان يدور في الظاهر غير ما كانت تخفيه القلوب... كلاهما لا يريد أن يطول الخلاف بينهما من جهة... وكلاهما له وجهة نظر أخرى... أيوب يخاف على زوجته من التورط بعلاقاتٍ تفرضها الحرية الزائدة، وما تثيره في المشاعر رومانسية الشعر، والكلام العاطفي المنمق المبطن... وصفية المرأة التي تأصلت فيها مع الأيام، البساطة والعادات والتزمّت بالتقاليد... أصبحت تتلاشى في عالم الانفتاح الذي فرضه الفضاء الأزرق بين الأسر بمختلف أهوائها، وأهم ما فيه الاختلاط بين الجنسين، واللقاءات الأدبية والسفر خارج المكان، والتحليق في أجواء الكلمة الهامسة وتطويع الحروف، وحملت معها خاصية، كانت تظن بأنها كانت مفقودة! وإذ بها مدفونة في أعماقها... ومهملة عندها كقدرتها على التعبير، وصياغة الأفكار والمساهمة في تطويع الجمل الأدبية والميول إلى النثر، لقد فاضت عبقريتها بكافة الأجناس الأدبية، ربما لم يكن هذا الشيء مبالغاً فيه... لقد ظهر منها ما

أعجب النقاد واستساغته العامة، لذلك وضعت نصب عينيها عدم التنازل عن شيءٍ من الطريق الذي قطعته في عالمها الأزرق هذا.

إن تمت المصالحة الآن بينها وبين زوجها، يجب أن تختتم برؤية واضحة وصریحة وقرار ثابت.
وبدأ الحوار الحذر بينهما:

- _ حبيبي... على أي أساس تعارض نشاطاتي الأدبية؟
- _ حبيبتي... أنت تعلمين بأني زوج، وأن لديك أربعة أطفال بحاجة إلى رعايتك، أليس كذلك؟
- _ لم أنسَ واجبي ولن أنساه... هم أولادي وأنت قرة عيني.
- _ قرة عينك ليس بهذه الطريقة... قرة عينك بطاعة زوجك، والعمل على راحته... لا بما تفعلينه... لقد نسيتني، وسرت في طريق تفكيك أسرة كاملة!
- _ خادمة خاصة أليس كذلك؟
- _ ليس حرفياً ولكن الشرع والقانون يبيح لك خدمتي... بل يفرضها في بعض الحالات.
- نظرت إليه بامتعاظٍ، وبدأ الغضب يظهر على وجهيهما، وبدأت الحدة في النقاش تترسخ في كلامهما، لذلك قررت صفية أن تنهي الخلاف بطريقة أكثر ليونة:

- _ حبيبي هل تناولت فطورك في المكتب؟
- _ عندما يكون لدي زوجة حريصة على بيتها من المؤكد لن أسأل مثل هذا السؤال!
- _ أين الخطأ في السؤال؟ لم تقل لماذا نمت الليلة الماضية في المكتب؟
- _ ألا تعلمين فعلاً لماذا نمت في المكتب؟
- _ دعنا من هذا النقاش الحاد وسأقوم بتجهيز الإفطار.
- سكت أيوب قليلاً ثم قال غاضباً:
- _ يبدو أن مصالحتنا هذه، فرضها الحياء علينا... والسبب تطفل جارنا الفضولي أمام البوابة قبل قليل... أنا ذاهب للمكتب وسأفطر هناك... لا أستطيع مجاراتك في النقاش... وما في رأسك هو الذي تنفذه لذلك لا تهتمي لكلامي أو مصلحة بيتنا! ثم لدي عمل كثير هناك... من بينها عقود تركيب ديكورات لمنشآت كبيرة وفلل راقية، وقد تأخرت على الزبائن، ولم يمهلها حتى ترد... وخرج دون أن ينظر إليها... لكنها لم تعلق ولم تنطق بحرف واحد... كان كل ما فعلته أن ضربت الأرض بقدمها بقوة ثم جلست تحلق بفكرها وتتساءل:

_ لقد ذهب الآن... ولكن هل سيأتي على الغداء؟ سأقوم بتجهيزه بعد قليل، فهو على الحالتين مفروض علي... الأولاد قادمون بعد قليل.

أما أيوب فقد قرر أن يتناول طعامه في المطعم، أو يطلب طعامه إلى المكتب... وربما لن يعود حتى المساء هذا إن قرر ذلك... سيرى بعدها كيف سيتصرف.

أمضى أيوب يومه في عمله في المكتب إلى ما بعد العشاء، ثم عاد إلى بيته ولكن حين وصل تفاجأ بعدم وجود سيارتها أمام المنزل... ظن أنها ربما تكون في الكراج... أيضاً لم يجدها فيه... بدأت الظنون تلعب برأسه وتؤكد له استهتارها الشديد به، وبأسرتها وبدأ يشك بأخلاقياتها.

في البداية لم يفتح البوابة... أسند ظهره عليها وأخذ يستعيد حياته معها وتصرفاتها خلال خمسة عشر عاماً فلم يجد ما يشينها، سوى شكوكه بما كان يضايقه خلال الثلاث سنوات الأخيرة.

فتح الباب بمفتاحه الخاص فقال هازئاً:

_ الحمد لله لم تغير قفل الباب... حتى لا أضبطها مع شلتها أو؟؟؟ ولم يكمل أو أنه استكبر الظن بخيانتها عندئذ...

سأل أولاده فقالوا له:

لقد ذهبنا عند الغروب... لم يكن لديه شك بأنها لن ترتدع إلا إذا تصرف بطريقة مأمونة، بحيث لا تؤذي أمان بيتكما.

جلس في الصالون ينتظر إلا أن التعب الذي كان يلاقيه في عمله يومياً جعله يغفو مكانه على الكنبة... عادت زوجته بعد منتصف الليل، عندما لم يأت على الغداء، توقعت أن ينام في مكتبه كالليلة الماضية... لكنها حارت الآن فيما ستفعل إن أيقظته الآن، فقد يثور في وجهها، وإن تركته فإن علاقة العشرة الطويلة مازالت تحمل في قلبها بعض روابط الألفة المعتادة... كزوج ورب للأسرة وأب للأولاد، وفي ثناياها بقايا عاطفة تتأرجح ما بين شفقة وبقايا حب لا يعول عليه للتضحية بهوايتها، بعد أن اهتزت علاقاتهما الزوجية... لذلك بدأت تحاول إيقاظه بلطف... مع بعض الرهبة من أن يثور في وجهها بسبب تأخرها.

— أيوب... استيقظ يا أيوب... هكذا نادته وهي تدغدغ بإصبعها أرنبة أنفه.

لم يكن أيوب يحتاج لأكثر من هذا السبب (تأخرها خارج المنزل) حتى يثور، قفز من نومه والغضب يملأ كيانه وقال ساخراً:

_ أما انتهينا من عبثك يا أستاذة؟ أين كنت؟ لماذا حتى الآن؟ اجتاحتها ثورة لم تنطفئ إلا بعد أن ذهبت من أمامه... كل هذا وهي صامته لا تتكلم حتى بردت ثورته قليلاً فقالت معذرة:

_ لقد كان هناك الكثير من الأدباء المشاركين، وألقوا بما لديهم من نصوص وقصائد.

_ حسنٌ وأنا بدءاً من صباح الغد سأترك لك البيت وأقيم نهائياً في المكتب.

سكتت صفيّة وهي تفكر بما آل إليه حالها وحال بيتها... وتبحث عن حل يرضي زوجها، ولا يمنعها من ممارسة دورها في المجتمع ككاتبة وأديبة، وأنثى متحررة تملك رأيها وإرادتها... ساد صمتٌ رهيبٌ بينهما بدأت في تحليل الواقع المر في حالها وحال مجتمعنا الشرقي ككل... وكأنها تعيشه لأول مرة:

_ لماذا يا ربي ودون معارضة على حكمك... جعلت من المرأة هي الأضعف... المرأة تشتهي كما يشتهي الرجل...

تعمل وتنتج كما يعمل الرجل وينتج... تمرض... تزهو...
 تحب... تعشق... تحلم كما يحلم الرجل.
 ليست القوانين السماوية ضد حرية المرأة الشخصية،
 لكن تقف ضدها القوانين الأرضية الجائرة... أخذت
 تراجع حياة المرأة عامة من خلال حياتها الخاصة كصورة
 عامة للأنثى وأخذت تتمتم:

_ نعم إن علاقة الرجل بالمرأة في مجتمعنا العربي سيد
 لمسود، الرجل هو الحاكم المستبد... لقد جعلوا من المرأة
 شرفاً للزوج... شرفاً للأخ... شرفاً للأب... شرفاً للرجال
 عامة... يُستحل الانتقام لتلك الأسباب، قتل المرأة وحرقتها
 من أجل شهوة رجل قد لا يكون للأنثى يد فيها... ربما
 أغواها شاب وأغراها بالزواج ثم رماها تحت حجج واهية،
 أو ربما اغتصبها بالقوة... الرجال يتنازلون ويتساحون
 بين بعضهم البعض، فقط لأنهم رجال بغض النظر عن
 كونهم هم أصحاب الشهوات أوهم من قاموا بالفعل
 الشائن... وفي النهاية تكون الأنثى الضحية، لماذا يا ربي؟
 وأنا مستغفرة مما أقول... لماذا أطلقت يد الرجال فينا؟ ألم
 تقل في محكم تنزيلك (والزَّانية والزَّاني فاجلدوا كل واحد
 منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ألم

تحتسب العقوبة على الاثنين معاً... تُرك الرجال يستقون بأنفسهم على النساء، فأصبح المجتمع ذكورياً، أما نحن النساء نُعلن الجانب الأضعف في هذه الدنيا الفانية. لم أسمع أنثى اختطفت رجلاً لتغتصبه! أو نساء أوجدن سوق رجال لدعارة الرجال تؤمه النساء، بل العكس هو ما يحدث!

سأتمرد... نعم سأتمرد ليكن ما يكون... بعد قليل وكأنها استفاقت لنفسها! تمتت:

المشكلة أنني أمٌّ لأربعة أولاد... هل يجوز لي أن أفعل هذا؟ كلا... سألصق بأولادي عاراً... هههه ها أنت يا صفية من أوقعت نفسك في الخطأ! ثم عدت لتصويب الخطأ... ترى ألا يؤثر أي تصرف شاذ بعيد عن العادات والتقاليد المعروفة على أولادي مستقبلاً، في علاقاتهم مع مجتمعهم... لكن ما بالك يا صفية تراجع عن ثورتك؟ أليس هناك ثغرات في قوانين المجتمع، لتنقذ المرأة من العبودية المطلقة... ألا يوجد احتواء في قوانين السماء لأخطاء المرأة... أجابت على نفسها ساخرة... بلى يوجد قوانين تحميها... نعم في قوانين السماء رجمها حتى الموت إذا

أخطأت، وفي قوانين الأرض الكثير... الكثير، أهمها ذبحها
أو دفنها حية... أو أقلها سجنها.

إن نفيها أو طردها من البيت ليس مقبولاً، لأنه سيزيد
الرجال عاراً على عار... المرأة لا تعاقب كما يُعاقب الرجل
الزاني أو المستهتر بطرده من البيت إذا كثرت أخطاؤه... بل
هو المجني عليه إنه لن يردع بل سيبحث عن أنثى أخرى
ليكمل استهتاره واستهانته بها.

ومع هذا يا أيوب... لن أتركك تعبت بي... سأتمرد عليك
يا أيوب بل سأنتقم... ارحل يا أيوب... ولكن لن أعبت
بشرفي... سترى يا أيوب كيف أنني سأخذ حقّي، هل
الاتصال بصديق على الهاتف جناية؟ وهل تبادل الأفكار
على موقع التواصل جريمة؟

أين نمت الليلة الماضية يا أيوب؟ راوغت كثيراً لتثبت
براءتك! ودليلي معي لا يكذب... ألا يكفي هجري
بالفراش من قبل؟ ليالٍ وليس الليلة فقط... ها أنت منذ
أشهر تتعمد البقاء في المكتب طيلة النهار، وتعود حين
أغفو ثم تنسل في الفرّاش وتدير ظهرك لي! أتظن بأنني لا
أشعر بك... كلا لن أغفر لك سأفعل ما يحلو لي... لست
أول النساء... فجأة استيقظت صافية من أفكارها، وهي

ترتجف وتستعيز بالله من الشيطان الرجيم، الذي وسوس لها تلك الأفكار الخبيثة... لكنها استفاقت لأمر لم يسبق لها أن ناقشتها مع نفسها إطلاقاً، نظرت إلى زوجها الذي كان يرتب بعضاً من ثيابه في حقيبة كبيرة، ثم يطوي بطانية كبيرة وينقلهما إلى سيارته... فتحت فاها لتسأله عما يفعل، وإن كانت قد سمعت منه قبل قليل نيته الانتقال إلى المكتب، والإقامة فيه... كانت تظن في البداية أنها تهديدات فقط... كما اعتادت عليها فيما مضى من الأيام؛ لم تتوقع أن تصل إلى حيز التنفيذ.

ليست هي المرة الأولى التي يختلفان فيها، ولا هي المرة الأولى التي يهددها بالرحيل، أو تهدده هي بالعودة إلى أهلها وهو على يقين ويعلم عدم قدرتها على تحمل ظلم هانئ أخيها! وتعلم أن بيتها هذا أرحم لها ألف مرة من بيت أخيها... حتى أنها تعلم مسبقاً أن من غير المستبعد أن يرفض قبولها في بيته... يضاف إلى ذلك العصا والخرطوم، اللذان سيرحبان بها في حال رجوعها إلى بيته... وهو ما تعرفه عن أسلوب العقاب لأهل بيته...

سنترك صفة تتنازعها أفكارها... وأيوب ملّ حياة
المحاكة مع زوجته، ونعود إلى أبطال قصتنا... صباح
وأسرتها وتطورات قضاياهم.

الفصل الرابع عشر

رفاهية غير متوقعة

قلنا في الفصل السابق... أنَّ أبا صباح خرج من بيته دون أن يخبرهم عن سبب ذهابه، وها هو يعود الآن ويفتح الباب ووجهه ينضح سروراً وفرحاً... ما أن دخل من الباب حتى صاح بهم، وهو يشير بيديه الاثنتين:

فُرجَتْ... فُرجَتْ، هيا خلال ما تبقى من هذا الشهر... يجب عليكم تجهيز أغراضكم للرحيل من هذا المنزل، سنعود إلى حياتنا السابقة حياة الغنى والثراء... انتهى عهد الفقر... اشتريت لكم منزلاً جديداً... واسعاً جداً في أجمل أحياء المدينة، ابتداءً من هذه الليلة، ابدؤوا بالتجهيز لرحيلنا من هذا المكان... التفت فجأة إلى صباح ونسرين زوجته، أثار استغرابه... لأنه لم يجد الفرحة والترحيب الذي كان يتوقعه... الوجوه جميعها مكفهرة وتكاد أن تنطق بمأساة، خاصة صباح التي أحست بأن جذورها ستقتلع من هنا... لقد أصبحت أمام أمرين أحدهما شرٌّ من الآخر...

_ بدأت زوجته بالكلام... ما الذي فعلته بابنتك يا هاني؟
أجاب بأسئلة متلاحقة مستغرباً هذا السؤال:

_ ماذا فعلت؟ ومن أي ناحية؟ لم أفهم ماذا تقولين؟ لم يخطر في باله ما تفكران به ابنته وزوجته، ومسألة تبرع زوجته بالدم.

نظر إلى وجه ابنته وهو يظن بأن المقصود بتلك الكآبة رحيلها من هذا المكان فقط، وابتعادها عن فتاها وحلم عمرها... شريف!

قال متهكماً حسب المثل الشعبي المعروف:
(اجت الحزينة لتفرح ما لاقت مطرح...اللهم اجعله خيراً)

إن كل غايقي... وما أريده هو سعادتك وتحسين معيشتكم! ثم تطوير حياتنا جميعاً، وأن ننسى حياة الفاقة والفقر والقهر التي عشناها سنوات طويلة.
قاطعت زوجته نسرين:

_ ليس هذا ما قصدت... لكن أأست أنت من جعلني أتبرع بالدم إلى شريف؟

_ وهل يغضب عمل الخير أحداً؟

_ ها هي صباح ستصبح أخته بالدم... فوجئ بالسؤال والجواب...

تأني قليلاً وقهقهه ضاحكاً ثم أجاب ساخراً:

_ إِنَّ من قال أَنَّ النساء ناقصات العقول لم يخطئ... فيما مضى لم أكن أصدقه... الحمد لله هي ليست أخته بالرضاعة، ثم أردف متهمكاً، من أفنى بذلك يا شيخة نسرين؟

_ هي من أخبرتني... ابنتك تقول هذا الكلام.

_ يا لك من ظالمة تُفتين بما لا تعرفين، ألا تعلمين بأن الفتوى بدون معرفة جريمة لا تغتفر! لا أعتقد أن هذا الكلام صحيح... أنا أعلم أن التحريم له شروطه الخاصة... اليوم بعد صلاة العشاء سأؤكد من هذا الأمر من إمام مسجد الحي، من المؤكد أن لديه دراية بالأمر... ثم أنت تبرعت بنية حسنة ولم تكوني ملزمة.

لنترك الخلاف مستعراً بين أبي صباح وأسرته حول أمر لا يمكن الإفتاء فيه إلا لمختصيه، فقد أروعها أن يحرم عليها وهي لا تريد خسارة عريس ابنتها، وتحلم أن تكون صباح زوجة له... ولا بد لها من أن تتأكد... إن كان يحق لها الزواج منه في هذه الحالة؟ ومع شكوك الأم وصباح على هذا الكلام، جعل الجميع يشك بما قالتاه أي أنه لا يحق لهما الزواج من بعضهما، إلا أن هانئ قلل من أهمية ذلك الخوف... واعتبر بأن الأمر عادي ولا يستحق

النظر فيه جدياً، ومع ذلك فقد طلب مهلة منهم،
ووعدهم أن يسأل أحد رجال الدين ويتأكد منه.

الفصل الخامس عشر

وضوح الرؤية

لنعد إلى شاهر ابن عم شريف الذي تركناه في المطعم، يشتري طعاماً لعمه عبد الله والد شريف، حيث علمنا بأنه كان قد التقى بوالد صباح وزوجته في المشفى ثم تقابلا من جديد في المطعم.

حمل شاهر الطعام وذهب إلى المشفى، وهو يعلم أنّ أبا شريف لم يذق طعاماً منذ الأمس... لم يجده في مكانه... بحث عنه لعله يجده في صالة المشفى وفي قسم الحوادث، وتابع البحث حتى وجده في غرفة ولده جالساً أمام سرير ابنه حزيناً مهموماً... سأله عن حال ولده، فقال له:

— تحسن خلال الساعات القليلة الماضية، لكنه أصبح يتمتم بكلماتٍ غير واضحة لا تكاد تُفهم، ما جعلنا نتفائل بشفاؤه قريباً... عندها الدنيا لا تكاد تسعهم من الفرح، وما أن دخل الطبيب حتى طلب خروج الجميع فوراً كيلا يتأثر المريض بوجودهما وهو في هذه الحالة.

جلس أبو شريف في الصالة مع ابن أخيه يأكل مسروراً بعد أن اطمأن على وضع ابنه... فأراد شاهر أن يستوضح من عمه عن سر غيابه تلك السنين الطويلة فقال:

_ لم أستطع سؤالك في القرية أمس عن أي شيء... مع أنني علمت منذ مدة بعودتك من سفرة طالت كثيراً، هل لي أن أسألك، أين كنت خلال تلك السنوات الطويلة؟ لقد انقطعت أخبارك عن الجميع! ولا أحد يعلم عن غيابك الطويل شيئاً... لا أسرتك ولا حتى أهل البلدة... أعتذر لسؤالي هذا... لكن الكثيرين يدفعهم الفضول لمعرفة قصة غيابك ثم عودتك المفاجئة أيضاً بعد مضي عشر سنوات... حتى أن أهل القرية قطعوا الأمل من عودتك حياً فقال:

_ المهم أنني عدت سالماً، وسأروي لكم القصة بحذافيرها عندما يخرج شريف بالسلامة، لن أترك أحداً لا يعرف قصتي كاملة، بل سأجمع أهل البلدة وأروي لهم حكاية عذاب لا يتحمله بشر! ولكنني والحمد لله أوفيت بدمتي مع شخصٍ تأكد لي أنه تعذب كثيراً بسببي هو وأسرته! لا أريد أن أقصها لكل إنسان على حدة... أيام ويخرج شريف بإذن الله بالسلامة، ثم أقصها على المهنيين كافة، ويجب أن تتأكد بأن قصتي تستحق ذلك لما فيها من غرائب، ولكن يا شاهر... لم أعلم من هو الشخص الآخر الذي تبرع بالدم لولدي... ألم تره أو تعرفه؟

_ كلا... ولكن قالوا إنها امرأة، جاءت مع زوجها، وطلب
زوجها من الطبيب التكتّم على اسمها.
_ امرأة تبرعت بدمها لولدي... أهي صبية؟ هل شاهر
متزوج سرّاً؟ أم ماذا؟
_ كلا لا تذهب بك الظنون... لكن ما أشك به هو أن
تكون زوجة الرجل نفسه، الذي جلس قريبك في
الصباح... وسألك عن شريف ولم ترد عليه، ذلك الذي
سألك حينها... أين يجده وفي أي قسم من المشفى
_ لم أنتبه له... المهم أن يخرج شريف بالسلامة، وبعد ذلك
لكل حادثٍ حديثٍ.

الفصل السادس عشر

الحاضر غرس الماضي

جميع أحداثنا المكثفة هذه لم تتجاوز مدة وقوعها أكثر من عدة أيام فقط... طبعاً باستثناء الذكريات التي تناقلنا أخبارها بلسان أبطالها.

لكننا الآن سنترك جميع الأحداث تتطور بعيدة عنا، فالزمن لا يتوقف لأحد، ثم نعود إليها في حينها.

حيث لا بد لنا من الرجوع الآن إلى الوراء لنستكمل رواية أحد أبطال قصتنا... وهو عبد الله الذي اختفى منذ مالا يقل عن عشر سنوات... تلك المدة التي اختفى فيها هذا الرجل الذي عرفناه في القرية بعبد الله وبلقب أبي شريف، وكيلا يتوه القارئ سنتدرج بالأحداث من البداية حتى ترغمنا تلقائياً للوصول إلى الزمن الذي نروي فيه قصتنا هذه. وهو ما رواه لأهل قريته فيما بعد وما يجب أن نعرفه نحن.

ورث عبد الله مبلغاً كبيراً من المال... لذلك تغيرت حياته... كان يعيش في القرية، فانتقل للعيش في المدينة ليعيش داخل طبقة اجتماعية ماثلة، بهذه الأموال التي وصلت إليه دون تعب... أخذ يصرف ويبعثر الأموال التي

ورثها على هواه... وطبعاً ما بني على خطأ سيتهدم في النهاية ويتفكك.

بدأت أموال عبد الله هذا تتناقص كثيراً يوماً بعد يوم... وما لا ينبع سينتهي، ويجف ماؤه حتى لو كان بحراً! وقد تعرف في المدينة على رجل آخر وهو هانىء... هذا الإنسان الثاني الذي نروي حكايته كان متزوجاً من نسرین امرأة حريصة بطبعها، مشهورة بالحكمة والتدبير... كانت تعترض كثيراً على تبديد زوجها لأمواله، إلا أنه كان لا يبالي بنصائحها المتواصلة لم تكن تفرح أبداً بالرحلات، وحياة التبذير التي اشتهر بها في المدينة... ومع هذا كانت تشاركه فيها مرغمة... لا تريد أن تغضبه، ومع كل هذا الإسراف لم تُنقص خلافاتهم الكثيرة حول هذا الموضوع حبّاً له، وبما أنها كانت تخاف الله أولاً... وتخاف العودة إلى حياة القلة والتقتير التي كانت تعيشها الأسرة من قبل أن يبيع زوجها أملاكه التي ورثها عن أجداده في القرية، وينتقل إلى المدينة... لم تأل زوجته جهداً بنصحه ولا بتذكيره بالماضي القريب قبل أن يفوت الأوان... شعر هانىء أخيراً بخطئه وتصرفه الذي تجاوز حدود المعقول... وفي إحدى جلساته مع عقله، نادى زوجته وأخبرها بأن

وضعهم المالي بدأ يتردى... وفي جلسة هادئة، اقترحت زوجته أن يستثمر ما بقي من تلك الأموال، في تجارة أو مشروع يحفظ له ما تبقى منه، بحيث يدر عليه أرباحاً معقولة... والمهم ألا يأكلوا بعدها من رأس المال... وربما بذلك يحميها من التدهور المتسارع الذي كاد أن يصل به إلى حدود تقترب من حد النضوب والإفلاس في النهاية.

لم يكن هانئ انطوائياً ولا اجتماعياً أكثر مما يجب... لذلك لم يتجاوز أصدقاؤه الحقيقيون ومعارفه بضعة أشخاص... هم الذين كان يتسلى معهم في المقاهي الشعبية، في الحي نفسه الذي يسكنه... هؤلاء استثناهم من بين معارفه العاديين، واعتبرهم أصدقاء حقيقين، ومن بينهم رجل حظي باهتمامه التام، حيث لم يلحظ عليه خلال سهرات هذه الشلة سوى الطيب ودمائة الخلق، وهذا الشخص يدعى عبد الله.

وفي أحد الأيام كانا يتسليان في المقهى، ويحتسيان القهوة بانتظار مجيء بقية رفاقهم... إلا أن الجلسة طالت كثيراً ولم يأت أحد... فقال هانئ لصديقه عبد الله:

_ يبدو أنه كتب علينا مصيراً واحداً... أنت وارث كما علمت منك سابقاً... وأنا مثلك وارث... ما رأيك أن نمي أموالنا بتجارة مشتركة.

_ أتمنى ذلك لكن كيف يا صديقي؟ وما هي الفكرة؟
_ نفتح شركة تصنيع البسة، ثم يسافر أحدها إلى الخارج ليستورد البضائع ومكينات التصنيع، والآخر يستقبلها هنا ويخزنها إلى حين عودة شريكه.
_ فكرة جيدة جداً.

اتفق الصديقان بعد دراسة متأنية للفكرة، ودراسة دقيقة لحاجة السوق... وبقي عليهما تحديد من يقع الاختيار عليه للبقاء أو للسفر... اتفقا على رمي قرعة بينهما... أجريت القرعة بينهما حسب اتفاقهما، وقع اختيار السفر على عبد الله، ليسافر ويبقى هاني لاستقبال البضائع، والبحث عن مستودعات لتخزينها، ريثما يعود شريكه عبد الله ليقوما بتسويقها، وعرضها في المحلات... وتوظيف مندوبين... وعمل الدعاية اللازمة.
أخيراً سافر عبد الله... بعد أن أعطاه هاني كل ماله ولم يبق معه سوى ما يقيم أود أسرته لمدة محدودة.

قبل سفره وقع عبد الله بحيرة من أمره... هل يأخذ كامل المبلغ معه أم لا... وبعد تفكير، وتحسباً للطوارئ قرر ألا يغامر بكل المبلغ... فأودع قسماً منه في أحد المصارف معتبراً أن هذا المبلغ الذي سيودعه هو ما أخذه من شريكه هانىء... لم يحاول الاتصال بشريكه ليخبره بما فعل... فقرر ترك الأمر للظروف، ولو أن كان عليه أن يخبره ويعلمه بكل شاردة وواردة... كيلا تهتز الثقة بينهما، لكن الظروف وعدم حاجته لكامل المبلغ وحاجته لترك رصيد احتياطي، جعله يتصرف حسب ما أوحى له عقله، ومع هذا كان ينوي أن يتصل به حين وصوله إلى وجهته... عندها يخبره بالسبب الذي دفعه لهذا التصرف... برر لنفسه بأنَّ حمل مبلغ كبير كهذا معه، قد يعرضه لخطر السرقة أو يودي به إلى مهالك لا يدري ماهيتها، لذلك اكتفى بحمل ماله الخاص، وأودع مال شريكه في حساب خاص... كان اتجاه سفره إلى روما.

خرج عبد الله من مطار روما يحمل حقيبته الصغيرة بيده فقط، ووقف ينتظر سيارة أجرة لتنقله إلى أحد الفنادق في المدينة.

اقترب منه شخص وسأله عما ينتظر؟ ... وعرفه على نفسه
بأنه أحد العرب المغتربين المقيمين منذ زمن بعيد في هذا
البلد... دار بينهما الحوار التالي:

_ أهلاً بابن بلدي وبمن يحمل راحة بلدي.

_ أهلاً بك... هل أنت عربي؟

_ نعم وكيف لم تعرفني وأنا أكلمك بلغة بلادنا؟ هل
خدعتك اللكنة الغربية في كلامي؟ إنها بسبب طول
العشرة مع الأوربيين.

_ لا يهم... أبحث عن فندق أنام الليلة فيه.

_ سائح أنت أم من رجال الأعمال؟

_ بل رجل أعمال مبتدئ.

_ سأخذك إلى أرقى فنادق المدينة وأرخصها... هنا
يسمونني المستشار وأعمل كمندوب سياحي.
تمتم في نفسه:

_ أرقاها وأرخصها... عجب؟!! كيف تُفسر هذه
الأحجية؟ يجب أن آخذ حذري منه.

_ أشكرك يا صديقي ولكن أرجوك أن تأخذني إلى أي
فندق لأن (الغريب أعمى ولو كان بصيراً).

_ نعم فندقك الراقي والمجاني هو بيتي... أنت ضيف عزيز
عندي الآن.

_ مع شكري واحترامي لك ولبيتك... سأعتذر منك
لكنني سأزورك فيما بعد.

_ أنا مُصرٌّ على استضافتك.

_ أتريدني أن أرتاح... أرجوك ألا تضغط عليّ... قلت لك
أنني سأزورك.

وبعد مداورة طويلة ومجاملات تجاوزت الحدود... وافق
المستشار على أن يأخذه إلى أحد الفنادق.

ركبا سيارة أجرة من المطار إلى الفندق... دفع المستشار
أجرة السيارة مقدماً دون أن يشعر به الضيف، وفي
السيارة سأله عبد الله:

_ بماذا أدفع أجرة السيارة؟ بالدولار أم باليورو؟ وكم؟

_ الحساب دفعته هناك في المكتب سلفاً.

_ لماذا يا أخي؟ معي نقود والحمد لله.

_ لا يهم... أنت رفضت أن استضيفك في بيتي، وستكون

ضيفي هناك في الفندق.

_ أشكرك سنكتفي بأجرة السيارة، أما غيرها فلا.

_ ما نوع البضاعة التي تريد توريدها من هنا؟ ربما أفيدك.

كانا قد وصلا إلى الفندق ودخل معه الذي يسمي نفسه المستشار.

وطبعاً كعادة إدارة الفنادق في تنفيذ الإجراءات الأمنية المتبعة، أخذ منه موظف الاستقبال جواز سفره، وطلب منه إيداع كل ما يحمل من عملات مالية وذهبية وغيرها... فتح الحقيبة وأخرج جواز سفره أمام المستشار، وهو الذي نصحه بالإقامة في هذا الفندق، ثم ودعه وذهب على أمل أن يعود بعد أن يأخذ عبد الله قسطاً من الراحة. في منتصف الليلة نفسها نزل عبد الله إلى مكتب الاستقبال الموجود في الصالة الرئيسية، للاستفسار عن بعض الأمور الخاصة بمهمته، التي جاء من أجلها... سأل موظف الاستقبال:

_ أولاً سأسألك عن تكاليف الإقامة لديكم لمدة أسبوع؟ على الفور... أشار الموظف إلى رجل جالس على طاولة في الصالة أمامه، وتجلس مقابله فتاة... أيضاً على كرسي على الطاولة نفسها، وقال:

_ حساب الإقامة... ولكن حسابك مدفوع لمدة أسبوع قابل للتمديد... أما بقية المصاريف كالأكل والشرب أنت من سيتولى دفع الحساب.

_ ومن دفع ذلك عني؟ ... أنا لا أعرف أحداً هنا!

_ ذلك الرجل الذي أشرت لك إليه.

استغرب عبد الله هذه التسهيلات التي قابلته، لكنه لم يرتح لها كثيراً! على الفور ذهب نحو الرجل الذي يراه الآن جالساً ووجهه إلى الناحية الأخرى... وأمامه فتاة شقراء تبتسم له... كان عليه أن يعرف من يكون ذلك الصديق الكريم، الذي دفع له حسابه مقدماً... ما اقترب منها حتى رأى فيه المستشار نفسه الذي وقف له مرحباً، ودعاه للجلوس معهما على طاولتهما... وقفت الحسنة بدورها مرحة، ثم أشار المستشار إليها وهو يقول معرفاً:

_ زوجتي أم سفيان... خريجة كلية تجارة واقتصاد، ومديرة القسم المالي في الشركة التي أعمل فيها... ثم أشار إليه ليُعرف زوجته عليه... صديقنا الجديد وابن بلدنا عبد الله، وكان قد عرف اسمه خلال لقائهما وتسجيل دخوله في قائمة نزلاء الفندق... السيد عبد الله رجل أعمال، وتاجر... جاء لتوريد بضائع وآلات لشركته.

- صافحته وهي تظهر الاهتمام والعطف وتقول:
- _ أهلاً وسهلاً... لماذا تريد الشراء من هنا بالذات؟ أأست
تريد البضائع للتجارة؟
- _ نعم... وما الخطأ في ذلك؟
- _ لم أقل خطأ... ولكن المعروف أن البضائع الأوربية
باهظة الثمن.
- _ نعم ولكن لكل شيء ثمنه وسوقه.
- _ يبدو أنك ما زلت جديداً على الأسواق.
- _ نعم بداية شراكة مع صديق أيضاً مثلي، ولكن لم
سؤالك؟
- _ إن كنت تريد أن تنجح تجارتك فعليك بالمتاجرة
مبدئياً بما تتحمل أسعاره عامة الناس.
- _ نعم... نعم، ولكن أرجوك... مزيداً من الإيضاح.
- _ ممكن أن تباع في اليوم قطعة من هذه البضائع، وتربح
منها عشرة دولارات... ولكن بإمكانك أن تباع من
البضاعة نفسها يومياً عشرة قطع وتربح منها ما بين
ثلاثين إلى خمسين دولاراً.
- _ كيف؟ لم أفهم؟!!

_ البضائع الصينية... رخيصة الثمن وسوقها رائج وفي متناول الفقير والغني.

_ حقاً لديك الخبرة الكافية في التجارة.

_ عندما تشتهر تجارتك تستطيع أن تفتح فرعاً آخر للبضائع الأوروبية الغالية الثمن؛ بذلك تضمن عدم كساد تجارتك فوراً؛ بحيث قمت بدعم رأس مال الشركة بحركة تسويق مزدهرة.

_ حقيقة نصيحة ثمينة أشكرك عليها... إذاً تنصحيني بالسفر إلى الصين، أليس كذلك؟

_ نعم إن كنت ستسمع نصيحتي.

أعجبته الفكرة، وشكر الله على أن هياً له مقابلة هذا الرجل وهذه المرأة، وحين عاتب المستشار على دفع الحساب قال له:

_ نحن أبناء الوطن... لا فرق بيننا.

شكرهم على نصائحهم، خاصة عندما فتحا عينيه على الذهاب إلى الصين، للاطلاع والتنور، وبعدها التفكير بالجهة التي سيستورد منها بضائعه.

وجد أن بإمكانه شراء كميات كبيرة جداً من البضائع، بأسعار أرخص من البضائع الأوروبية... لذلك راقب له

الفكرة ووجد أن تسويق البضائع الصينية أسرع... خاصة وأن رخص أثمانها يجعلها في متناول جميع الطبقات، حتى الجمارك على البضاعة الصينية ستكون أقل... وأقنعه أيضاً بتبديل ما معه من أموال بعملة البلد التي سيسافر إليها، أي العملة الصينية... هذه الفكرة راقت له أيضاً حيث إنه مطمئن إلا أنه يحمل أمواله الخاصة بحقيقته... ولا خوف من تأثيره بعمليات نصب من خلال التحويل، وأموال شريكه أيضاً بعيدة عن أية مشكلة يتعرض لها مالياً... وافقهم على هذا الرأي... ساعده المستشار بتبديل جميع ما معه من المال بعملية تحت غطاء الثقة والصدقة بابتنا جلده وبلده... أخيراً ودّع عبد الله صاحبه هذا في المطار... وسافر في الطائرة متجهاً إلى الصين يمني نفسه بربح هائل.

وعندما وصل إلى وجهته، أنهى إجراءات دخوله، ثم ركب سيارة أجرة من مكاتب المطار إلى أحد الفنادق، ثم دفع أجرة التوكسي في مكتب تكسي المطار بالعملة المحلية التي جلبها معه... لم يجد أية صعوبات فقد كان حجز مسبقاً في أحد الفنادق احتياطياً... وبوصوله إلى الفندق... طلب منه دفع أجرة مدة إقامته مقدماً،

وهذا ما كان... ثم اتصل بعائلته، وطمأنهم عن وصوله
سالمًا، ثم اتصل بشريكه هانى ليخبره بالتطورات
الجديدة، ولكن في غمرة فرحه وتحمسه لأسلوب التجارة
الجديدة من خلال زوجة المستشار نسي أن يخبره بأنه
أودع بقية الأموال قبل سفره، وبالتالي قرر أن يتركها
مفاجأة لشريكه، لذلك بقي هانى يجهل أن حصته من
المال الذي تربت عليه لإتمام شراكتها لم تخرج مع عبد
الله...

بات عبد الله ليلته يحلم ببلده وعودته، ويفكر بتجارته
الجديدة... لكن المفاجأة الجديدة كانت له بالمرصاد... لم
ينتصف الليل حتى قُرع باب غرفته... فتح الباب وإذا
بعدد من رجال الشرطة تدخل إلى غرفته، وتلقي القبض
عليه... ثم تضع القيود بيديه... سألهم... لم يفهموا سؤاله
فلا يعرفون لغته لذلك، لم يوضحوا له سبب اعتقاله... وفي
الوقت نفسه، لم يفهم كلامهم، فهم من إشاراتهم أنهم
يسوقونه إلى المخفر...

الفصل السابع عشر

انتقام جارج

آن لنا أن نترك حديث الذكريات الماضية، التي يرويها عبد الله أبو صباح لأسرته... ونعود إلى حديث الواقع الملموس والمحسوس الذي يعيشه أبطال روايتنا... وبذلك سنهي هنا حكاية أسرة فككتها إغراءات المتملقين في الفضاء الأزرق والعابثين بأعراض الناس تحت شعارات الصداقة. تركنا صفية تفكر في الحالة المزرية التي وصلت إليها، هي وأسرتها... الزوج ترك (الجميل بما حمل) أي المنزل والأولاد ورحل إلى مكتبه، وصفية تبحث عن موقف يرد لها كرامتها... لقد اعتبرت ما حصل بالنسبة لها إهانة بالغة مست كرامتها... وراحت تفكر كيف سيكون الموقف الذي ستتحذه مع زوجها أيوب بعد أن قام بتجريحها بألفاظ لم تستسغها، ومحاولات لتثبيط عزيمتها... إنها لن تقبل أو ترضى بأن تضحي بمستقبل مضيء أصبحت تقود زمامه بيديها... لقد قررت أن تحافظ على مستواها الاجتماعي، ولن تتنازل عنه مهما كلفها الثمن، شعرت بأنها نبغت واشتهرت بأكثر الأجناس الأدبية... كالشعر والنثر، خاصة وقد أصبح لها الكثير من المعجبين

والمتابعين، الذين يعبرون عن تفاعلهم معها، عن طريق حسابها على موقع التواصل الاجتماعي (الفيس) والمسنجر والواتس... ركبها الغرور! وفكرت كثيراً بما ستفعله، وكيف سترد له تلك الإهانة... لذلك تركت الأمر للأيام، وتطورات الغضب التلقائية.

عادت صفية في غياب زوجها إلى السهرات الليلية، خارج البيت ودخله... لقاءات وزيارات وندوات تتزعمها هي وصديقها الحميم كمال، الذي حول نفسه من شاعر للحب والغزل في لقاءاتهم إلى الحب نفسه... وإلى العاشق الوهّان لصفية... علماً أن الرجل متزوج ولديه أولاد... وليس صغيراً في السن... لم تكن تخشى من تحوله إلى مراهق صغير أمامها... لكن من يضع الجبنة أمام القط ويغيب عنها فلن يتركها القط له... كمال رجل أديب وشاعر بكل معاني الكلمة... لذلك فسحت له المجال أكثر مما يجب... كان يتغنى بقيس وليلى، وأصبح يتغنى بصفية وجمالها... سحرها أسلوبه الناعم الهامس في قصائده وخواطره... مما جعلها الخائف الأكبر من نفسها على نفسها... وبالتالي على قلبها الذي أصبح هشياً يحترق، لقلبٍ قابل للاحتراق أصلاً... مع كل كلمة حب يتغزل

فيها... شجعه إنصاتها لما يقول... فأصبح يختارها وينطقها
وكأنها تأتيه من خيالات وادي عبقر... يطلقها في سماء
شاعرية لا تعترف بخصوصية أحد... بدأ يحس بدغدغة
دفعت بعربة أحلام عادت بعقله إلى عمر كان الحب فيه
يخترق الصخر، والغرام تفضحه العيون... قاوم... وقاوم...
لانت... ولانت... وبدأت المعايير تنزلق نحو الممنوع
المرغوب، وكان ما كان.

وقف هشام بن أيوب أمام أبيه يرد على أسئلته، وهو يحقق
بما يرى ابنه وما كان يحدث في غيابه:

_ اسمع يا هشام يا ولدي... هشام حبيبي... هل يأتي العم
كمال إلى بيتنا؟

_ نعم يا بابا.

_ لا تكذب علي يا بني... ماذا يفعل هنا؟ هل تجلس أنت
وإخوانك معهما؟

_ أحياناً نجلس معهما... يجلسان ويتناقشان ويقولان
القصائد.

_ غير هذا يا هشام... غير هذا يا بني... أنت تفهم ولست
صغيراً يا بني.

كان يستمع إلى ابنه وقلبه يغلي ويحترق:

_ هل رأيت ما يريب؟

_ لم أفهم... ما يريب؟؟ ماذا تعني؟

_ يا هشام ألا تعلم ما يريب؟ أما تقول بأنك خارق الذكاء

يا هشام... أليس كذلك؟ سؤالي: هل يجلسان وحدهما في

الغرفة الوردية؟ غرفتي أنا وأمك.

انفجر الفتى باكياً ثم هرب من أمام أبيه بسرعة، ودخل

إلى غرفته وهو ينتحب ويقول: أمي... سأقول لأبي كل شيء

حتى لو كنت ستضربيني بالعصا.

ثم عاد ووقف أمام أبيه، لكن أخته سناء سبقته إلى

الكلام:

_ نعم يا بابا... هذا ما سارعت سناء للرد على سؤال أبيها

دون أن تُسأل... سناء، أخته ذات الثلاث سنوات ثم أخذت

تصفق فرحة وتقول: بابا كمال يجلب لنا معه مكعبات

والعاب... وحضنت دمية صغيرة بيدها كانت تلهو بها وهي

تقول:

_ أهداني إياها بابا كمال... عندي اثنين بابا أنا.

ارتجف أيوب من قمة رأسه حتى أخمص قدميه وكاد أن

يهوي... أمسك بيديه المزهرية العالية التي على الطرايزة،

ثم هوى معها على المقعد الذي كان خلفه وكان يجلس عليه قبل قليل.

ابتلع أيوب ريقه وتوقف عن الكلام وعلى الأغلب غصّ به! ثم أمسك بأذن هشام ونهره وهو يقول:

_ أنت تكذب عليّ يا هشام... فما كان من هشام حتى عاد إلى البكاء!

_ لماذا البكاء يا ولدي؟ لماذا؟

_ يحدث الكثير في غيابك يا والدي!

_ مثل ماذا يا هشام؟ أخبرني وكن صادقاً.

رفض هشام أن يصرح بكلمة واحدة، بينما سناء ردت

عنه ببراءة الطفولة: يرقصان ويغنيان و و و...

لكن الأب تابع تحقيقه مع ولديه:

_ وهل ترقصان معهما؟ وماذا تلبس أمك؟

_ ليس كل مرة.

_ ماذا تلبس أمك يا سناء عندما ترقصون؟

_ القميص الأحمر الذي كانت تلبسه حين كنا نرقص

معكم.

_ يا ساتر... ولا حول ولا قوة إلا بالله... ذو الصدر

العريان؟!!!

_ نعم يا بابا... لكن كانت تلبس بالأمس قميصاً جديداً
لونه وردي.

_ يا إلهي (غاب القط امرح يا فار) أين هي الآن؟

_ لا أعلم... عدنا من المدرسة ولم نجدها ووجدنا طعامنا
على الطاولة.

كان هذا التحقيق بعد غيابٍ طويلٍ لأيوب عن البيت،
بحيث انقطع أيوب عن زيارة بيته على أمل أن تراجع
صفية نفسها وتستعيد عقلها.

لقد ظن أنها ستعيد حساباتها من جديد، وتبتعد عن
رفاق الفيس والندوات الثقافية، إلا أنه اكتشف الآن أنها
ابتعدت عن الأدب نفسه.

حاول أن يستوضح أكثر، لكن أعصابه لم تعد تتحمل
أكثر من هذا الاكتشاف الذي لم يكن يتوقعه، ولم
يكن يظن بأن الأمور ستسوء إلى هذا الحد... فتنحدر إلى
الدرك الأسفل من القيم الأخلاقية... لقد وقع المحذور
ولم يعد باليد ما يصلح الحال وجاء الآن دور العقل
للتصرف... أربعة أولاد... ماذا سيفعل بهم... بيت مسجل
شراكة بينهما... ففكر قليلاً ولكن دون إدراك كامل... إن
الأمور تجاوزت حد الصلاح، فمن أين سيأتي الإصلاح

إذاً؟ وكيف؟ وقف ينظر إلى أولاده... والدموع تنحدر من عينيه لكنه خرج وهو يقول للأولاد:

_ سأرجع بعد قليل انتظروني... لا أحد يذهب من البيت... إذا عادت أمكم قبل رجوعي لا تخبروها بمجيئي ثم انطلق مسرعاً!

وتشاء الصدفة دخول صفية بعد خروج أيوب بدقائق... ولم تكن بحاجة إلى دليل يقول لها إن أيوب كان هنا، فأعقاب السجاير ورائحة التبغ مازالت الدليل القاطع على ذلك... سألت سؤال العارف: أبوكم كان هنا؟؟

_ نعم... جواب هشام المباشر والغصة مازالت تخرج في صوته وأثر الدموع على خديه.

_ سناء الطفلة الصغيرة تبشر أمها... تقفز وتصفق... بابا كان... هنا... حبيبي بابا... كان هنا... كانت فرحة الطفلة سناء لا توصف، سناء ابنة الروضة ابنة الثالثة من العمر.
_ لا تدري صفية هل أصابتها صاعقة أم قذيفة مدفع... أم مرت من قرب رأسها حتى أخذت تتأرجح وتتمايل مما جعلها تسقط على المقعد الذي كان قريباً منها.
سألت بصوت يكاد يشبه حشرة الأموات:
_ أين هو؟ أين ذهب؟

من المؤكد أن تصرفاتها الآن تدل على أنها كونت فكرة كاملة عن الجلسة التي كانت تدور هنا، ومن أعماق وادي الرعب والخوف سمعت هشام يرد على سؤال لم تسأله:

_ قال والدي... ليس لي الآن سوى هانى.

وبهمسٍ مبحوح وقلبٍ واجفٍ وشفاهٍ ترتجف وأسنان تصطك قالت: أخى هانى؟! فهي تعرف النتيجة.

_ يا إلهي أخى... أخى هانى، فتحت هاتفها على رقم أيوب... لكنها ترددت بالاتصال به... أقفلت الجهاز وحاولت تصنع الهدوء ووضعت كفيها حول وجهها... تفكر بما ستحمل لها الساعات القادمة... وها هي تنقضي بوصول العاصفة... أيوب زوجها يتبعه هانى... دون مقدمات بسؤال هانى، وهو المعروف لدى القارئ بأنه والد صباح وأخو صفية:

_ ما الذي تفعلينه يا أم أربعة أولاد وأربعين نقيصة؟ هكذا كافأت أباك وأمك؟ هذا ما تريدين أن تهدي أخاك وبناته... فضائح بالجملة... فتحت فمها لتدافع عن نفسها، لكن أخاها أسكتها بكلمة: اخرسي يا قدرة... إن حذاء أيوب أصدق منك يا عاهرة... ألم تستحي على أولادك ومستقبلهم لتحملهم عارك بشهادة أبدية!

هذه الموجة من الصراخ والعنف والتوبيخ، أعقبها مسدس أخرجه هانئ فجأة من جيبه... ثم وجه فوهته إلى رأسها ودون تردد... حوّل زر الأمان إلى جاهزية الإطلاق... سدده نحو رأس صفية، وبحركة مترددة من أصبعه على الزناد... سبقتها رفسة من قدم أيوب إلى الأعلى، تحت ساعده الذي يحمل المسدس... لتخرج الطلقة باتجاه السقف... ويطير المسدس في الفضاء أكثر من مترين ويستقر في يد أيوب، الذي كان متابعاً وحريصاً على عدم وقوع الجريمة في منزله... صاح به هانئ:

_ أتدافع عنها يا... ولم يكمل؟ لماذا أنقذتها؟! لماذا فعلت هذا؟ حقاً أنت لن تخسر شيئاً... غداً تتزوج بأخرى، وأنا يلبسني عارٌ لا يُمحى!

_ اسمع يا هانئ عندما شكوتها لك، ورأيتك تضع المسدس في جيبك! قلت لك... لا أريد جريمة في بيتي... كل ما أريده منك... فقط أن تأخذ أختك... خارج بيتي وترحلان، وبعدها افعل ما شئت... أما أن تقتلها هنا، وأمام أولادي فهذا لا يمكن أن أقبل به أبداً... الحمد لله كنت أراقبك لحظة بلحظة... المهم الآن نجت! ولم تقع الجريمة في بيتي.

تراجعت ثورته، وهدأت قليلاً... بينما أخذت صفية تتأبط ساقيه وتقبل قدميه وترجوه أن يعفو عنها، بينما الأطفال يصرخون ويتكومون على أبيهم تارة، وعلى أمهم تارة وعلى خالهم تارة.

لكن هانئ لم يسكت ولم يتوقف عن الحركة السريعة... قفز هانئ الشائر وهو يغلي من الغضب... وقد نُزع سلاحه من يده... تناول مزهرية كانت مملوءة بالماء والورد وقذفها بها، لكن لحسن حظها جعلها تنجو منها أيضاً... هذه المرة تصدي أيوب له قولاً وفعلاً... أمسكه ولف له يده خلف ظهره... بحركة قوية أدت إلى أن تنم عنه صرخة واهنة، وهو يعض على شفتيه قهراً.

ثم قال له بصوتٍ جهوري:

قلت لك خذ أختك وارحل من هنا... تشنقها... تقتلها... لكن ليس في بيتي... انتهت بالنسبة لي كزوجة... أصبح الآن عارها على أهلها وليس علي... سأ تزوج أشرف وأفضل منها.

أخذت صفية تبكي وتتوسل وتنادي وتعد بتوبة نصوحة، وتقول إن الأمور بينها وبين كمال لم تصل إلى حد الكبائر... ثم تعترف بأن سهرات الرقص واللهو تجاوزت

فيها حدها؛ وأنها مخطئة وتائبة بعد اليوم، وستحج في أقرب فرصة لتكفر عن ذنوبها إذا سمحوا لها، وأخذت تندب حياتها، وضياح مستقبل أولادها إن رحلت عنهم أو ماتت.

أرخی أيوب يديه عن هاني وقال:

_ اسمع... سأستر على فضيحتكم، وسأبقي أختك على أولادها... لكنها اعتباراً من اليوم محرمة عليّ كزوجة. لم تكد صفية تسمع هذه الكلمات من أيوب حتى أخذت تقبل يديه من جديد وتقول:

_ بل سأكون زوجة أمينة مخلصه، وخادمة مطيعة.

_ ما الذي منعك أن تستمري على ما كنت عليه قبل اليوم؟

_ تبت إليك يا ربي... ثم نهضت ممسكة بيده تريد تقبيل وجهه، إلا أنه دفعها بيده لتبعد عنه، فاختل توازنها وسقطت على الأرض، وكان يتابع كلامه:

_ لقد وفرت لك الحب والمال والراحة... ألا يكفي؟

أما هاني فقد ملم نفسه وأمسك أعصابه، ثم قال:

_ إذا كنت يا أيوب سترضى كما قلت الآن... أن تبقى صفية تعني بأطفالها فهذا جميل لن أنساه... لكن عليها

أن تغير مسلكها... أما إن طلقته وطردتها من بيتك
فليس بين بيتي والمقبرة سوى الشارع العام، وهي تعلم
ذلك وتعرف المكان جيداً!

_ نعم ستبقى على أطفالها.

عندها أخذ هانئ مسدسه ورحل والشرر يتطاير من
عينيه وهو ينظر إليها ويهددها... وخرج أيوب من الباب
وهو يقول:

_ أنا راحل وعندما تتركين البيت أخبريني... الأولاد
يحتاجون إلى من يرعاهم.

حاولت استرضاءه بشق الطرق، إلا أن أيوب لم يلتفت
إليها... بل تابع خروجه من المنزل كله.

الفصل الثامن عشر

الحاضر غرس الماضي

لا شك بأن القارئ مازال يفكر بما آلت إليه حالة صباح،
بعد رحيلها مع عائلتها من الحي، وانتقال حياتها من حياة
الفقر والقهر الذي كان يلزمها ويلزم أسرتها إلى حياة
الاكتفاء والنعيم...

وقبل أن ننهي حكايتنا مع صباح في هذا الفصل... بجزئها
الأول... لابد أن نتابع بقية حكاية عبد الله في الصين، بعد
أن تركناه يساق قسراً إلى السجن لأسباب لا يعلمها!
كانت مفاجأة كبيرة لعبد الله وهم يضعون الأصفاد
بيديه، ويقيدون حريته لسبب لا يعرفه، لم يقاوم... لم
ينطق عبد الله بعدها بكلمة واحدة... لا فائدة... فلا
الصياح سيفك قيده، ولا الترجي سيطلق سراحه... يعلم
يقيناً بأنه مهما تكلم لن يردوا عليه... لن يفهمهم، وهم
أيضاً لن يفهموه، ولا أحد يعرف لغة الآخر، تلك الكلمات
القليلة التي تعلمها في مرحلة ما من حياته، أي اللغة
الإنجليزية لم تزدهم سوى غموضاً على غموض بما أراد أن
يصرح به دفاعاً عن نفسه... لذلك التزم الصمت رغماً عنه
فكان يقول لنفسه:

_ إنها الليلة الأولى لي في هذا البلد، وحدثت هذه المصيبة الغامضة... حتى أنني لم أقضها بعد حتى نهايتها! ترى ماذا سيحصل لي بعدها؟ أليس من الغرابة أن يحدث كل هذا معي في بلد لا يوجد لي فيه أعداء، ولا أصدقاء أيضاً!!
أخذ يهوّن على نفسه الأمر ويطمئن نفسه، بينما سيارة الشرطة تنهب الأرض بعجلاتها، وتصرع عقله بأبواقها ويقول في نفسه:

_ يبدو أن كل ما في الأمر عبارة عن تشابه أسماء فقط ليس إلا... بعد قليل سيكتشفون الخطأ وأعود لمتابعة عملي الذي جئت لأجّله... ثم يواسي نفسه ويقول:
_ لا داعي للغضب يا عبد الله، ولا داعي للحزن... عندما نصل المخفر ستظهر الحقيقة، يطلقون سراحي وقد يعتذرون لي، هكذا كان يحدث نفسه ويمنيها ثم يقول:
_ سأطلب حضور مندوب من سفارة بلدي إذا لم يطلقوا سراحي، وأقيم دعوى عليهم لتعطيهم أعمالي.
أخيراً وصلوا به إلى المخفر...

أدخل عبد الله إلى غرفة المحقق الذي أمر على الفور بفك قيده... ما جعله يتفائل بالخروج العاجل، لكن أول ما لفت نظره وجود سائق سيارة الأجرة التي أوصلته إلى

الفندق، ومحاسب الفندق الذي دفع له حساب إقامته فيه مقدماً، وأمام الضابط على الطاولة كمية من الأموال ليست كبيرة، عندها توقع أن يتمحور الموضوع حول هذا الأمر.

فور وصوله أشار إليه المحقق بالجلوس ثم أشار له بما معناه: هل هذه النقود من عندك؟ فهم عبد الله السؤال من خلال الإشارة من يد الضابط... تبسم وقال في نفسه:

_ هل عثروا على هذه النقود في سيارة الأجرة أم في الفندق وظنوا أنها لي؟ ولكن لو كان الأمر هكذا لماذا جلبوني مقيداً؟! أشار عبد الله إليه إشارة بيده، فهم منها الضابط بأنه لا يعرف ماذا يقصد بسؤاله بتلك الإشارة. لكن قبل أن يرد عليه، دخل شرطي آخر يحمل حقيبة عرف من شكلها حقيبته التي يضع فيها أمواله وأوراقه. بدأ المحقق يضع على الطاولة ربطات النقود خاصته التي عرفها من شكلها... خاصة من إحدى الربطات الأصغر حجماً من غيرها، التي دفع منها حساب السيارة والفندق.

ويظهر فوقها عدة أوراق مثنية بشكل معين، فهم من كل هذا أنها أمواله، أحضروها من صندوق أمانات الفندق،

فعدد الربطات والربطة الناقصة وأوراق العملة المثنية فوقها، أيضاً هي، ولا يمكن أن تكون مصادفة! نعم إنها أمواله ولا شك، ولكن لماذا؟ هل ظنوا بأنها مسروقة؟ فكر في الأمر فقال دون أن يفهمه أحد منهم:

_ عندي ما يثبت أنني سجلت هذا المبلغ في بطاقة الدخول في المطار، عندما أخبروني بوجوب تسجيل جميع ما معي من نقود وغيرها.

لكنهم قطعوا عليه حديثه الغامض الذي لم يفهموا منه شيئاً، بعدما قاده أحد رجال الشرطة إلى داخل القفص.

احتجز في المخفر... لا يفهم ما الذي يجري... لكنه شعر بأن الأمر أكبر مما تصور، لم ينم بقية ليلته! أمضاها ما بين جالس على الأرض، وما بين القرفصاء أو الوقوف... في الصباح أخذوه مكبلاً إلى غرفة التحقيق، عندها وجد من يكلمه العربية بشكل جيد... فعلم أنهم استعانوا بأحد المترجمين... ومع هذا سر به كثيراً لأنه أصبح يتمكن من الدفاع عن نفسه.

بدأ المترجم ينقل أسئلة المحقق إلى العربية، وينقل إجاباته إلى لغة البلد أي اللغة الصينية:

_ هل هذه النقود لك؟

_ نعم وقد أدخلتها معي بطريقة قانونية، والإيصال موجود في الحقبة أمامكم.

_ نعم... لا خلاف على الطريقة... وكانت الصاعقة الكبرى حين قال له:

جميع هذه النقود مزورة بشكل متقن.

_ كيف؟! لا علم لي بذلك... لقد استبدلتها من إحدى الدول الأوروبية بشكل قانوني بالعملة الصينية!

_ لماذا لم تتركها بالدولار واليورو كما تقول وتستبدلها هنا.

_ أقنعني أحدهم بأن ذلك هو الأفضل.

_ هل جاء معك؟

_ كلا... ولماذا يأتي معي؟ فهو يعمل هناك.

_ سوق سوداء؟

_ بل أخبرني أن لديه مكتباً مرخصاً للصرافة.

_ هل تعرف اسمه الحقيقي؟

_ كلا ولكن يلقب نفسه بالمستشار... وأخبره بمواصفاته

وشكله واسم الفتاة التي قال... إنها زوجته، وأين يسكن.

_ لا فائدة... اللص يغير اسمه وشكله بعد كل عملية،

ولدينا من أمثالك الكثير ممن سقطوا ضحايا نصب.

_ ستحول إلى المحكمة، وإذا قبض عليه يوماً ما واعترف،
قد يخفف الحكم عنك.

_ ولن أخرج من السجن إذا قبض عليه فهو المزور؟

_ ستبقى طبعاً... فأنت تعتبر في نظر القانون الموزع...
ولكن لا أعتقد بأن المزور سيقبض عليه أبداً... لست
الوحيد الذي تورط في مثل تلك العمليات الاحتيالية...
حتى وإن قبض عليه لن تنتهي القضية قبل سنوات...
عندها انهار ودب اليأس في قلبه!

طالت محاكمته كثيراً... ولم تنفع دفاعات المحامي الذي
وكلته المحكمة عنه في إثبات براءته... أدين بقضية إدخال
أموال مزورة إلى البلاد... وبرئ من قضية التزوير المباشر
بحنة محاميه... أخيراً صدر الحكم عليه وتابع في
السجن بقية السنوات العشر التي حكم عليه بها... وبما
أنه يعلم لن يستطيع أحد تغيير مصيره ترك الأمر لقدره.

ولهذا السبب كما قدمنا كان أول اتصال له من الفندق ثم
قطعت أخباره... وهو آخر اتصال بأسرته، على أثر تلك
الحادثة أصيب بهستيريا شديدة، استمرت عدة سنوات
أمضاها متنقلاً بين مشفى السجن وزنزانته، وبين الزنزانة
والمصحات العقلية... وعندما استعاد قدرته على التفكير

تبدلت عاطفته، وقرر ألا يُعلم أحداً بما آل إليه مصيره...
 كان يأمل بعفو... أو خروج مبكر من سجنه... فقرر أن
 يبقى أمره طي الكتمان، وترك شريكه هاني يعيش تلك
 الحيرة... وكان يقول في نفسه:

_ ماذا سيستفيد من معرفة مكان وجودي؟ سيعيش في
 أملٍ كاذبٍ بقية حياته... أو شكت المدة على أن تنقضي
 تقريباً، ولن يفيد إن أخبرته عن مصيبي. ونسي أمر
 النقود التي أودعها في أحد البنوك قبل سفره، فهو لن
 يستطيع التصرف بها أبداً... في بداية القضية قرر
 الانتحار... ولكن ما أن عاد إلى وعيه حتى كتب وصية
 تضمن عدم ضياع حق شريكه بماله... وجد أن هذه
 الطريقة هي السليمة... عندما يثبت موته، ستعلم أسرته
 بحق هاني، وبذلك يستطيع أن يفرض من خلال الوصية
 على أسرته أن تدفع حقوق شريكه... لذلك كتب وصية
 أودعها السجن ترسل في حال وفاته أوضح فيها قصته
 كاملة، ضمّنها دفع حقوق صاحبه أي شريكه حينذاك.
 أمضى أكثر من سبع سنوات على هذا الحال قبل إطلاق
 سراحه. خلالها كان الخجل واليأس من حياته، يجعلانه
 يتناسى ماضيه ويعيش فقط حاضره المُضني فتبدلت

مشاعره إلى حدٍ ما... اقتربت نهاية مدة سجنه، وهو يندب حظه العاثر... لكنه يشعر بأنه أراح ضميره بضمان حق غيره من خلال وصيته. وبرأته الفعلية، مما ورطه فيه أحد المجرمين فاقد الضمير... لكن ما يؤسف له أن المحكمة لم تقتنع ببراءته ما جعله يسلم أمره لله ويصبر على محنته حتى أفرج عنه في النهاية.

أخيراً خرج عبد الله من السجن، وأبعد عن البلاد... انتهت معاناته الهائلة، التي حطمته وجعلته يكاد لا يعرف نفسه هل هو من الأحياء أو الأموات؟

لا شك أن القارئ ومن خلال أحداث الرواية عرف من هو عبد الله، ومن هو هاني، وسنتدرج باستعمال تلك الأسماء في الرواية، كيلا يضيع القارئ، ويقع في مصيدة الشك.

قضى عبد الله جزءاً من عمره في تلك المغامرة. كما قضى هاني، أيضاً فترة مماثلة من عمره ضاعت بسبب تلك المغامرة، فتحطمت نفسية كلٍّ منهما فيما عاناه، وعانت أسرهم من آثار تلك المغامرة بسببه.

الفصل التاسع عشر

وقفه مع الله

للتذكير

توقفنا فترة بسيطة عن متابعة حياة أبطال قصتنا شريف وصباح، وأن لنا العودة إليهم.

تركنا أبا شريف يتابع ولده في المشفى، وقدّر الله له التحسن التدريجي والتعافي حين منّ الله عليه من كرم الخيرين، أمثال المحقق الذي تبرع له بجزء من دمه، ثم والدة صباح بعد أن فرض هائئ على زوجته أيضاً أن تتبرع له بكمية من دمها دون سابق معرفة... مرّ حوالي أسبوع أو أكثر وشريف يستعيد صحته، وبعد ذلك تماثلت جروحه للشفاء بشكل واضح... عندما أفادته قوة الشباب وبنيته القوية... قالها والده:

— لو أصيب بهذا الحادث رجل مسن... لهلك مباشرة ولما تحمل ما حدث... علمنا بقسوة الحادث والسيارة التي صدمته، وقذفته نحو سيارة أخرى، ووضعت في هذا المأزق الحرج الذي كاد يزهق روحه.

إلا أن الأقدار تركت له فرصة كبيرة للحياة.

ها هي صباح تساعد الآن والدتها وأختها في تجهيز أغراض البيت، للانتقال إلى المنزل الجديد، الذي لا تعرف عنه شيئاً ولا حتى مكانه! وتؤدي مهمتها ببطءٍ شديدٍ جداً، لشدة خوفها من أن تترك الحي وتبتعد عن حبيب قلبها المتعلقة به، خاصة وأنه الآن تماثل للشفاء... إنها تجد أن مشكلتها لا تستطيع التحكم بها... ولا تستطيع الطلب من أبويها تأجيل الرحيل، ريثما يخرج معبودها الذي جعلته يهيم بها... وهي التي وهبت قلبها له... كان دائماً يمنعها الحياء فيما مضى عن البوح بغرامها له، أما الآن فقد اتفقا قبل الحادث على الزواج... بقي أمامهم عشرة أيام فقط للرحيل، لكن ما سرّها اليوم أن صديقها الجديد الذي كان سيدها القديم، الحاكم المطلق المستبد... أي والدها، أصبح يشعر اليوم بألمها ويشعر بما آل إليه حالها... خجلت أن تسأله البقاء، وخجلت أن تسأله عن رد الشيخ حول الفتوى بتحريم زواجها أو بتحليله من شريف.

دخل والدها قبل قليل، غير آبه بأحدٍ، ويبدو الاهتمام الشديد على وجهه، والعجلة واضحة من سرعة دخوله، ثم

خروجه من البيت على الفور دون أن تستطيع أن تكلمه في شيء!

تناول والدها بعض الأوراق وخرج بعدها بسرعة... لم تجد حلاً ساعتئذٍ سوى البكاء... نظرت أمها ووجدت ابنتها تبكي... غلب عليها الحزن وتركت ما في يدها... وبدلاً من تهدئة ابنتها شاركتها البكاء... لقد شعرت أمها أنها هي صاحبة الذنب، وإن كانت ليست صاحبة الفكرة.

جلست الأم وصباح على مقعدين متجاورين... رأتهما مريم ابنتها الأخرى فجلست قريهما، وبدأن جميعهن بالبكاء، ولكن الأم قفزت فجأة... رمت على رأسها غطاءً دون أن تبرر سبب خروجها لابنتيها، لكنها ذهبت دون أن تنبس بكلمة واحدة ثم عادت بعد قليل... وبدأتا بأسئلة متلاحقة حول سبب خروجها، وإلى أين ذهبت؟ فقالت الأم دون مقدمات:

— لا تخافي يا بنتي التبرع بالدم لن يمنع زواجك... لقد ذهبت إلى جارتنا أم محمود، وطلبت منها الاتصال بزوجها شيخ الجامع في هذا الحي وسألته عن هذا الأمر فقال ساخراً:

_ من صاحب هذا الكلام الساذج؟ ولكن مع هذا سأوضح لكم... في حال تبرع أحد الزوجين للآخر بالدم فلا يقع التحريم عليهما، وكذلك أي إنسان للآخر... التحريم فقط في حالة الرضاعة وضمن شروط محددة. هذا ما قاله شيخ الجامع... وأظن لديه المعرفة بمثل تلك الأمور...

تهلل وجه صباح وأشرق، خاصة حين شعرت أنها تخلصت من عقدة كبيرة قد تمنع الزواج، وأما الآن وقد بقي أمر آخر بالأهمية ذاتها... وهو رحيلهم عن هذا الحي وابتعادهم عنه.

الفصل العشرون

مثاليات ومنطق

أخيراً خرج شريف من المشفى مُتَعافٍ إلى حدٍ ما برفقة والده، وابن عمه شاهر، ورفض والده أن يسمح لشريف بالعودة إلى شقته فوق سطح العمارة، لسببين: أولهما... صعوبة صعوده على الأدراج لأن شقته على سطح المبنى، والأدراج طويلة جداً، وثانيهما رجوع والده قبل أيام من غربته الطويلة غيرت حالتهم المادية قليلاً. ولا يخفى علينا أن القارئ قد توصل إلى معرفة من يكون والد شريف... والذي هو (عبد الله شريك هانئ والد صباح) الذي عاد بعد خروجه من السجن عندما ذهب إلى الصين. وعاد منذ أقل من أسبوع فقط إلى قريته، وكان شاهر قد جاء لزيارة شريف، في يوم الحادث، لاصطحابه إلى القرية، وحصل ما حصل، حينذاك.

كما يلاحظ القارئ أن جميع أبطال روايتنا الآن قد اجتمعوا في مكانٍ واحدٍ، وتلاقوا في اليوم نفسه وفي المكان نفسه تقريباً... وهذا شريف ووالده الآن يمران على الحي... وأبو صباح وأسرته أيضاً ما زالوا في الحي الآن، لذلك لابد لنا من متابعة أمورهم فرداً فرداً.

علمنا بأن عبد الله أي أبو شريف الذي عاد من غربته
القسرية، منذ أيام وهو شريك هانىء،

كان أول عمل قام به حين عاد، هو نقل أموال هانىء التي
أخذها منه قبل سفره... بنقلها من حسابه الخاص في
البنك إلى حساب شريكه مع فوائدها التي تراكمت
فوقها، بحيث تضاعفت خلال تلك السنوات...

وقد رأينا هانىء يحدث زوجته مستغرباً الأموال التي
وجدتها في حسابه في البنك...

وها هو عبد الله يأخذ الآن ولده شريف برفقة قريبهم
شاهر إلى الحي نفسه، بغية تعريف والد شريف على مكان
سكن ابنه. وقفت السيارة التي تحمل شريف ووالده عبد
الله في ساحة الحي... قرب مسكن أبي صباح،

ينتظرون شاهراً، الذي صعد قبل قليل إلى شقة شريف
المعروفة فوق سطح العمارة، وغايته جلب بعض متعلقات
شريف من شقته، وفي نيتهم أن ينطلقوا جميعاً إلى
قريتهم...

وأيضاً في هذه اللحظة أوقف هانىء سيارته أمام بيته...
وفور رؤية عبد الله له عرفه... قفز من سيارته وأخذ
يجري خلف هانىء.

وعلى الفور أمسك بثوب صديقه القديم وشريكه من قبل... ومنعه من أن يخطو إلى الداخل، ثم جذبه بقوة مفرطة نحوه... تفاجأ هانى به بحيث سقطا على الأرض معاً، ونظر هانى مستغرباً تلك الحركة المفاجئة، وسأله: ماذا... ولم يكمل حتى عرفه جيداً وعلم أنه شريكه، فناداه متصنعاً الغضب الشديد:

_ أين أنت يا عبد الله؟

_ فوقك يا صديقي هانى، وقف... ووقف معه صديقه.

_ منذ متى عدت؟ ولماذا لم تخبرني؟

_ منذ أسبوع فقط.

_ ولكن كان يجب أن تخبرني.

_ ومن قال لك أنني لم أسأل عنك في بيتك القديم؟ لقد أنكر سكانه حتى معرفة اسمك! وعلمت بأن بيتك الذي كنت أعرفك فيه... بيع أكثر من ثلاث مرات خلال العشر سنوات الماضية، وهو اليوم مؤجر لأناس من خارج المدينة ولا أحد سمع باسمك... وتركت الأمر للظروف، وكما تعلم لولا الحادثة التي وقعت لولدي الذي هو معنا في السيارة الآن لربما لم نلتقي بعد والله أعلم.

_ على كل حال الحمد لله على سلامة ابنك وسلامتك أنت.

- _ خيرٌ إن شاء الله... نحن في الخدمة وذهبون إلى القرية...
مازال شريف في طور النقاهاة، ولن يعود إلى هنا قبل أن
يشفى تماماً... لكن سأختصر لك حديث الأمر الذي
يخص شراكتنا التي تعطلت قبل أن تبدأ!
_ حبذا لو تلخص لي الأمر لأشبع فضولي.
وقف عبد الله يختصر الحديث ويقول:
_ عشر سنوات نلتها في سجن قاسٍ نتيجة رحلتي...
وتبسم وهو يقول مماًزحاً:
_ حصتك منهم النصف أيضاً... أنت شريك لي على الربح
والخسارة.
_ ليتني أستطيع أن أعيد الزمن إلى الوراء وأذهب أنا
لمواجهة المتاعب التي أصابتك.
_ أعتقد أن البنك أخبرك بعودة أموالك إليك مع جميع
فوائدها، ولعلمك أنا لم أضف عليها شيئاً بل البنك هو
من ضاعفها بفوائدها التي تراكت فوق المبلغ، والله يعلم
بأن كل ما حصل كان فوق إرادتي.
_ أنا متأسفٌ لك وأشاركك الحزن، وأرثي لحالك ولضياع
عشر سنوات من عمرك كما قلت الآن أنت... ولكن
عليك أن تسأل عن الفقر والفاقة التي عشتها خلال تلك

المدة... أنت سجين الظلم هناك وأنا سجين القهر والخمر
والفقر، وبهذا نحن متعادلان يا صديقي.
لقد بعت بيتي لأصرف على عائلتي، وعملت الكثير من
الأعمال المتدنية التي لا تصلح لمن كان في وضعي
حينذاك... أنت رمتك الثقة العمياء بالآخرين وأنا
حكمتني ظروف مأساتك تلك... كلانا متعادلان يا
صديقي... سنبدأ غداً من جديد وأنا من سيسافر هذه
المرة.

_ لنا ولك الله يا صديقي... انتهينا من الأمل... جربت
نصبي وغامرت بكل أموالي وخسرتها كلها؛ نعم حقيقية
السمسونايت ذهبت وذهب مستقبلي معها... وعدت اليوم
إلى قريتي لأزرع أرض أجدادي.

_ ماذا تقول؟ هذا الكلام غير مقبول... شراكتنا قائمة
وأموالي كانت نصف الشراكة بيننا... لكن الله منّ عليك
بهدايته حتى تركتها هنا ولم تأخذها معك... نعم هي
الناجية... وهي جزء من رأس المال.

_ أشكرك يا سيدي نعم أنت مثال الشرف هي حقيقة...
وأنت تشكر على الاعتراف بها، وصدقني إنها لم تخطر على

بالي أبدأ، كان كل تفكيري منصرفاً كيف سأعوضك عن أرباح أموالك ولكن الله قدر... وفعل.

_ الآن صرفت منهم مبلغاً على شراء منزل جديد، ويحق لك أن تأخذ مثل هذا المبلغ لتحسين وضعك المالي.

_ أشكرك يا صديقي... يكفيننا تبرع أم صباح بدمها لولدي، وقد أخبرني بذلك أحد المرضى ممن قاموا بنقل الدم... نعم سنعمل على تمتين علاقتنا أكثر أما مالك فهو حرام علي... لن آخذ منه درهماً واحداً ولنا حديث آخر في غير هذا الموضع بعد شفاء شريف.

بعد رفض عبد الله أن يأخذ من مال عبد الله... افترق الشريكان فكل منهما سيذهب في ناحية يبحث عن مصالحه... كانت صباح وأمها قد شاهدتا بعضاً من هذا اللقاء فتقدمتا وهنأتاهم بالسلامة.

وقفت صباح بالباب عندما لمحت حلم سعادتها سيذهب مع والده... وكان قد رآها في تلك اللحظة فشاهدته يلوح لها بإشارة مخفية من خلف زجاج السيارة، ثم يرسل لها قبلة مسروقة في الهواء، من نافذة السيارة كما بادلتة تلك التحية بإشارة مخفية باستحياء.

لم تُخَفْ تلك الحركات على والدها، أو على والد شريف... في تلك اللحظة عاد شاهر يحمل حاجيات شريف التي جلبها من شقيقته... فقال عبد الله:

بعد أيام سنأتي لزيارتكم ومعنا وفد لخطبة ابنتكم صباح إلى ولدنا شريف، لقد لاحظت الآن كل شيء وعرفت مدى تعلقهما ببعضهما... رد هانئ عليه:

_ بل نحن من سنأتيكم أولاً لتهنئتكم بسلامتك من السفر، وسلامة شريف.

انطلقت سيارة شريف وهو يلوح بيده إليها من خارج النافذة، ويشير بيده إنه سيعود قريباً.

أما هانئ والد صباح فكان قد بدأ ينتقل مع أسرته إلى فيلا كبيرة، اشتراها قبل أيام كما علمنا، وتقع في مكانٍ آخر من المدينة.

بدأت القرية في أبهى زينتها احتفالاً بعودة ابنها سالماً... وغداً بيت عبد الله أشبه بسوقٍ شعبي لكثرة الداخلين عليه والخارجين منه للسلام والاطمئنان والتهنئة بعودة شريف سالماً وعودته هو أيضاً، ممن لم يسبق أن قام بالسلام عليه بعد عودته من الغربة.

غربت شمس ذلك اليوم، وطال السهر... وفي نهاية المطاف
آوى الجميع إلى بيوتهم... وبدأ النقاش بين شريف
ووالدته... وجلس والده يستمع فقط، فقالت الأم تفتتح
الحديث:

_ يجب أن نبحث لك عن عروس تليق بك يا ولدي.

_ نعم يا أماه العروس موجودة.

_ من هي يا ولدي؟ هل أعرفها أنا أو أبوك؟

_ نعم تعرفونها وهي طفلة... زميلتي في الجامعة سابقاً
صباح.

_ خير الناس يا ولدي... ابنة هانى جارنا سابقاً عندما كنا
نسكن المدينة؟

_ نعم بعينها.

جلست الأم تستعيد صورة صباح عندما كانت طفلة؛
ومنذ ذلك الحين كانت تأمل بتزويجها لولدها شريف، نعم
كانت تعجبها كثيراً لكنها تذكرت أمراً كان يحيرها منذ
البداية... وهو تقارب العمر بينهما وربما صباح تكبر
شريف ببضعة أشهر... لذلك لم تفتح الحديث مع ولدها
طيلة الأعوام الماضية، أما اليوم وقد رغبها بنفسه، كان لا
بد من مناقشة الأمر معه جدياً.

_ اسمع يا شريف أهم ما تريده الأم أن تجد لابنها صبية تحبه ويحبها وتسعده.

_ نعم يا أماء... وهذه الصبية تحبني، وأحبها وكنت أشعر فيما مضى بميلها الشديد نحوي.

_ لا تتعجل يا ولدي فهناك ما يجب أن تنظر إليه قبل الزواج منها بالذات.

_ ما هو؟ لقد درسنا المرحلة الجامعية معاً وأعرف الكثير عنها، هل تعرفين عنها ما يعيبها؟

_ كلا والحمد لله... لن أخالف رأيك يا ولدي وما يسعدك يفرحني.

_ فقط الفتاة أكبر منك أو أنتما متقاربان بالعمر.

_ وما يعني هذا؟

_ يعني أنها ستكبر وتفقد صباها بعد عشر أو خمس عشرة سنة، وأنت ما زلت في عز شبابك، ثم أيضاً ستتوقف عن الإنجاب بعد خمس عشرة سنة... أكثر أو أقل، وهذا بعلم الغيب.

فقال ممزحاً:

_ وهو المطلوب... وهي فرصة لأجدد شبابي بعرويس
أخرى... أماه وهل تظنين أنني ممن ينجبون ويرمون في
الشوارع؟ كما تشاهدين في الأحياء الشعبية وفي القرى!!
أماه بالكاد ستنجب ولداً أو ولدين، وعسى الله أن يقدرني
على صلاح تربيتهم وإصلاح معيشتهم وبناء مستقبلهم.

_ لا يا ولدي... الولد يولد ورزقه معه.

_ يا أماه لن أجادلك... نصف أطفال البلد في الشوارع!
وهل ما نراهم في أسواق الخضار... يبيعون أكياس
البلاستيك، أو يتسولون في الشوارع... أو يدفعون عربات
الخضار مقابل لقيمات يأكلونها، أو العاملين في مشاريع
البناء ينقلون ما فوق طاقتهم، الخشب والطابوق
والاسمنت، هل أولئك منسيون من رزق السماء يا أماه؟!
_ لهم الله يا ولدي... غداً يكبرون ويبنون أنفسهم
ومجتمعهم... قاطعها قبل أن تكمل:

_ لا إله إلا الله يا أمي، نعم... نعم كما تشائين... كما
تشائين المهم هل أنت راضية عن صباح، وهل سنذهب
معاً لخطبتها.

_ وهل تظن أنني سأرفض لك طلباً... كما تشاء... كما
تشاء يا ولدي، المهم أنك عدت لنا سالماً.

لم يطل الأمر كثيراً على فراق الأحبة شريف وصباح؛ حتى كانت أبواب عبد الله تقرر من قبل عائلة هانىء بوفد من أهله وأعمامه وأخواله وأقاربه، للسلام عليه وتهنئته بالعودة من السفر وتهنئته بسلامة شريف وخروجه من المشفى.

شكرهم عبد الله وأكرمهم بما جادت به نفسه الخيرة... وتم على أثر تلك الزيارة تحديد موعد لذهاب أسرة عبد الله إليهم لخطبة صباح ورد الزيارة، إلا أن هانىء طلب مهلة قصيرة حتى يتم انتقاهم، وتركيز أمورهم في البيت الجديد الذي اشتراه مؤخراً... وأخيراً تمت الخطبة، ورفرفت السعادة على العروسين.

قبل أن نختتم جميع أحداث هذا الجزء من روايتنا، لا بد لنا من نظرة نعيش فيها مع الأسرة الجديدة.

جلست صباح في أحد الأيام ترتب أغراض بيتها... سحبت حقيبة عن سطح دولا ب ملابسهم، كانت مهمة منذ سنوات، أنزلتها بصعوبة على الأرض... بعد أن حاولت تذكر محتوياتها لكنها فشلت في تكوين فكرة عما تحتوي!

في اللحظة نفسها دخل شريف يلاعب ابنتهما سماح التي بلغت الرابعة من العمر... فتحت صباح الحقيبة فوضع شريف الطفلة فيها مداعباً.

_ ماذا تفعلين؟ وعما تبحثين في هذه الحقيبة؟

_ لا شيء محدد، لكنني أراها كل يوم على سطح الدولاب، ولا أتذكر ماذا وضعت فيها.

_ إنها ثيابي الخاصة قبل الزواج بسنوات... قدميها حسنة لمن يستحق... لم تعد مقاساتها تناسبني ولا موديلاتها.

لم ينتبها إلى عبث طفلتها سماح بمحتواها، فكانت الطفلة تخرج بعض الملابس وتحاول تقليد والدها بلبسها ويدها جاكيت قديم تحاول لبسه... نزعت الأم عنها وبدأت تفتش جيوبه، بغية تقديمه مع بعض الملابس لمن يستحق من الفقراء... خرج بيدها من جيبه الداخلي قصاصتي ورق ملفوفتين معاً فقالت ممازحة ولكن ببعض الجدية والترقب المشوب بالحذر:

_ ما هذا يا شريف أكنت تلعب من ورائي؟ مع من؟ ومتى قبل الخطبة؟ أم بعدها؟

سكت شريف للحظات... ثم ظهر القلق على وجهه... حاول الإمساك بالقصاصتين من يدها، لكنها نقلتهما إلى

يدها الأخرى بسرعة وهي تقول باسمه والقلق بادٍ على وجهها:

_ لمن كنت تكتب؟ من هي سعيدة الحظ التي نجت من برائنك؟

_ لا أذكر أنني راسلت أنثى في حياتي ولا أعتقد أن ما فيهما كلمات غزل... ربما تذكير بموعد امتحان أو محاضرات؟!

_ إن كاتنا قبل الزواج نجوت يا شريف، وإن كاتنا بعد الزواج... ابنتك عندك... وبيت أهلي لن يضيق بي.
_ لك هذا... أرني هما.

فتحت القصاصة الأولى وفتحت معها محاجر عينيها للآخر... وجف قلبه... سألها ما بالك مندهشة هكذا؟ تبسمت... ثم فتحت القصاصة الأخرى دون أن تتغير تقاطيع وجهها وقالت:

_ الأفضل أن نتلفهما ففيهما عبث صبية أعرفها كانت تحبك وأنت لاهٍ عنها.

تذكر القصاصتين اللتين مرت قصتهما معنا في بداية الرواية فقال:

_ ليتني أعلم من وضعتهما في جيبي دون أن أدري... لكنه توقع أن تكون هي صاحبتهما في ذلك الحين... بما دلّ من قسّات وجهها والفرح البادي عليه... وبدأت تنفرج أساريرها وتضحك بمرح.

_ وماذا كنت ستفعل؟ هل ستشكوها؟

_ لا بل كنت سأتزوجها وأجعل منها ضرة لتنكد عليك عيشك.

_ سقى الله تلك الأيام... لكنك لم تكن جاداً في البحث عنها.

_ صحيح... حينذاك لم أفكر أبداً بالزواج ولا بمن يلهيني عن دراستي وتركت الأمر للقدر.

_ وها هو رماني حيث أراد وأردنا والحمد لله.

بهذا ننهي الجزء الأول من الرواية، دون أن نترك قضايا معلقة بحياة أبطال قصتنا شريف، وصباح

حيث سنعيش في الجزء الثاني مع أخبار بعضهم فترة شيقة، وجميلة، وسندخل إلى كل ما يمس حياتهم الخاصة، وما يتبعها من مفاجآت وأحداث حقيقية.

.....تم الجزء الأول.....

الباب الثالث

الجزء الثاني

الحرام

من عرفناهم في الجزء الأول	
هشام	ابن أيوب وصفية
صباح	زوجة شريف
أبطال جدد	
سماح	ابنة شريف
سامي	زوج سماح
أمينة	ابنة سامي الكبرى
مها	ابنة سامي الصغرى
كريم	ضابط من رفاق سامي
أبو الشوارب	رئيس عصابة

الفصل الأول

معادن مهترئة

خرج هشام يترنح من الخمارة... كانت رائحة الخمر تنتشر من فمه، فيلتقطها كل من يمر قربة في الشارع. الجو مكفهر ينذر بعودة المطر الذي توقف قبل قليل... خرج وهو بالكاد يملك عقال عقله... وبالكاد أيضاً يوازن مشيته... لكن يبدو أن النسيم البارد الرطب الذي بدأ يدغدغ وجهه، جعله يصحو تدريجياً، فيذكره بما ترك خلفه قبل قليل! جريمة نكراء... فتاة في عمر الزهور... وردة تأبى أن يشمها إنسان خشية أن تُخدش وريقاتها ممن يلامسها... قريبته... وثقت به، يلعب معها يومياً دور العاشق الولهان... لأشهر خلت أنهى إليها حبه، الفتاة (سماح ابنة شريف وصباح) ابنة السابعة عشرة، زميلته في المدرسة الصبية التي كُتب عليها موت أبيها شريف الذي عرفناه في مقدمة الرواية... توفي منذ سنوات بجادث سيارة مروع فعاشت في أسرته بعده بفقرٍ وضيقٍ حالٍ، حلّت المصيبة بموت والدها أثناء ذهابه إلى عمله، بعد أن فقد السيطرة على سيارته، فدخل بها تحت شاحنة كبيرة، وترك أسرة مؤلفة من أم ترملت... ترعى سماح مع

توأمن لا يزيد عمراهما عن خمس عشرة سنة... ما من معيل لهما سوى الله سبحانه وفاعلي الخير... لكن ما خفف عنهم السؤال قليلاً البيت الصغير الذي يسكنونه، فهو ملك لزوجها ورثه عن عبد الله أبيه... ومعاش بسيط من شركة التأمين بالكاد يغطي جزءاً من حاجتهم...

أما الشاب المتيم بسماح، فهو هشام بن أيوب الذي هجر له أمه وتركه مع ثلاثة أطفال تحت رعاية أمه صفية التي عرفناها في الفصل السابق بما كان زوجها أيوب يصفها بمجونها وعبثها بقيم الزوجية.

بدأ عقل هشام يصحو رويداً، رويداً... لكن ببطءٍ شديد، وإن كان لا يتمنى أن تأتي هذه الصحو، كيلا يتذكر فعلته الشنيعة قبل ساعات... وما ترك من مصيبة خلفه عصر هذا اليوم.

لقد أوقع الفتاة سماح المسكينة قريبتة بكلامه المعسول، ووعود بناها على الآمال والأحلام... لقد استغل سذاجة الفتاة وبساطتها بما كان يؤملها من زواج... ويؤدي معها دور العاشق الولهان! وربما يكون صادقاً؟؟

ذهب هشام مع الفتاة في جو ملبد بالغيوم، في نزهة عشاق لا يفتنون إلا لعواطفهم قرب شقة صديق له مسافر إلى

قريته، وغايته جلب بعض الأوراق التي كُلف بها من قبله... يمنيها خلالها بعش للزوجية وحياة سعيدة، قد يكون ما حدث فرضته ظروف معينة، تسارعت وتحكمت بتلك المصيبة؛ ولكن ربما كان بإمكانه دفع تلك المصادفة بعقلية أوسع ونية صافية.

حتمًا صدقته العاشقة المسكينة وتاهت معه في بحر الخيال وما يحتويه من الأحلام والآمال.

كان هشام يعرف أين يخبئ صديقه مفتاح شقته، فما أن وصلا إلى المكان حتى أخذه وفتح الشقة، بعد أن طلب منها أن تنتظره في الخارج قليلاً... ربما في حقيقة الأمر لم يكن يريد منها أن تدخل معه أبداً.

ملّت المسكينة الانتظار في الخارج، وأصبحت ثيابها القصيرة الرقيقة تقطر ماء... ندمت أشد الندم على مرافقته، والسير معه في الطريق الطويل الذي يختاره أحياناً، حيث يطول ويلتف قليلاً، لكنه في النهاية يؤدي إلى المكان نفسه... كان هشام بحديثه الجذاب... يمنيها بالزواج والبيت السعيد ويوعدها بالإقامة قرب أمها في القرية... كان هذا أقصى ما تتمناه فتاة بعمرها... إضافة إلى أنه كان محدثاً لبقاً، ينفث السحر في القلوب... ويقرب لها

السعادة في حديثه حتى أنها تشعر كأنها تعيش فيها... ليست هذه أول مرة تسير معه، كنا يمشيان أحياناً في الطريق نفسه لكن هذه المرة عدلاً سيرهما بناء على رغبته... لم تنزعج منه أو تتضايق فهذا ما كان يسعد سماح... كانت تنتشي أكثر وهي تتأبط ذراعه في الربع ساعة التي يطول بهما طريق الذهاب أو العودة... كنا يتناجيان وبينيان قصوراً في الهواء، وعلى الرغم من فارق السن بينهما... كان هشام يكبر سماح بحوالي خمس سنوات، لكنها لم تكن تجد بأساً بذلك... فتقول في نفسها المفروض أن يكون الرجل أكبر من زوجته... المرأة شيخ قبل الرجل بسنوات.

طال انتظار سماح خارج المبنى... وعادت الأمطار التي عانت منها قبل قليل إلى السقوط... الجو أصلاً كان متهيئاً في كل لحظة لسقوط الأمطار بعد انقطاعها قبل سويعة، لكن الجو في الوقت نفسه بارد جداً... اشتدت الأمطار... وميض هائل يتبعه بروق تضيء السماء فيعقبها رعود تصم الآذان... لم تستطع الفتاة البقاء في انتظاره على الرصيف في الخارج، بعد أن طلب منها كان قد طلب منها ذلك بتلك الحجة أي أن له حاجة في شقة صديقه

سيتناولها ويعود بسرعة... اشتدت الأمطار غزارة، وأصبحت تصب كأفواه القرب والهواء البارد جداً يلسع جسدها المبتل وما تعرى من جسدها، شيء لا يحتمل... وهنا تشجعت سماح وأخذت تفكر بالدخول إلى المبنى، بعد أن عاندت ورفضت ذلك لفترة... ولسوء حظها كانت وقتها تحت ميزاب إحدى الشقق في العمارة فكانت أول دفعة من صبيهه على رأسها... عندها اضطرت إلى الدخول والاحتماء ببهو العمارة بعد أن ابتلت، وأصبحت وكأنها خارجة من بركة ماء...

وجدت سماح باب الشقة مفتوحاً... ترددت كثيراً في البداية... لكن حاجتها لتجفيف نفسها وثيابها المبتلة، فرضت عليها الدخول... ومعه سبب آخر أجبرها على ذلك... إذ لا يمكن لها السير في الطريق وهي بتلك الحالة... بعد أن التصقت ثيابها بجسدها، وتحولت كأنها قطع من الثلج تلسع جسدها... كما اشتدت الرياح فزادت من برودة الطقس.

أخيراً خرج الشاب الذي اعتذر عن تأخره عنها في الداخل، وهو هشام كما أسلفنا... ورائحة الشراب تفوح منه، لكنه بادرها بأدب قائلاً:

_ حبيبتي لقد تأخرت عليك وأنا آسف جداً... كلفني بالألمس صديقي محمود صاحب الشقة، بجلب بعض أوراق المحاضرات كي أرسلها له، إلى بلدته وكان قد نسيها هنا.
ردت عليه:

_ أرى رائحة الشراب تفوح منك!
فقال وهو يبتسم لها:

_ أنا لا أشرب في العادة كثيراً... لكن خلال البحث عن الأوراق وجدت زجاجة غير مختومة فتحتها وأخذت أشرب منها، وربما نسيت نفسي... لا عليك يا حبيبتي لا تخافي، أنا أشرب باعتدالٍ وأعرف متى أتوقف عن الشرب... أرى العاصفة زادت من زيادة حديثها ومن أمطارها! لكن هل تستطيعين العودة وثيابك مبلولة هكذا؟ لماذا لم تدخلي فور بدء سقوط المطر إلى بهو المبنى؟

_ لم أتوقع أنك ستتأخر كثيراً هكذا! ومن يراني داخل البهو ماذا سيقول عني؟

كانت تتكلم وهي ترتجف بشكل مثير للشفقة... ملابسها الشتوية التي على جسدها لا تكاد تصلح لأن ترتديها في فصل الربيع، فكيف الآن في هذا الجو القارس البارد

والعاصف! ها هي ثيابها الآن أخذت تلتصق بجسدها،
وأصبحت تفضح مفاتها!

وبدأ الماء يتسرب من ثيابها إلى الأسفل... وتشكلت بقعة
كبيرة حول قدميها، أخذت ترتجف من قطرات الماء
المتسللة من قمة رأسها حتى أخص قدميها على الأرض...
فما كان من هشام وقد رأف بحالها، إلا أن دعاها للدخول.
كان الموقف محرّجاً لها وله، هي لم يسبق لها الدخول إلى
شقة غريب في حياتها... وهو أيضاً لم يسبق له أن أدخل
فتاة إلى شقة صديقه على حد قوله لها... لكنها ابنة خالته
وقد يبيح لنفسه دعوتها شفقة عليها.

كان يقول لها إنه حتى اليوم لم يسبق له أن اختل بفتاة في
أي مكان... لكنه عذر نفسه بأن للضرورة أحكاماً... وكان
عليها أن تصدقه... ناداها قائلاً:

_ هيا ادخلي ريثما تجف ثيابك... لم تكن سماح بحاجة
إلى تكرار الدعوة... الأمر أصبح الآن يفوق احتمالها...
فهي ترتجف من البرد بثيابها هذه وترتعد فرائصها لهذا
السبب!

لبت الدعوة فوراً لكنها قالت:

_ هل ستبقى أنت معي في الشقة؟

_ كلا سأنتظر على باب الشقة أو على السلم، لكنه عاد وغير رأيه وقال:

_ لكن إذا رأي أحدهم بماذا سأبرر وقوفي في بهو العمارة؟ لا أحد يعرفني هنا.

_ إذاً رافقني إلى بيتنا.

_ حسن هيّا... ولكن ألا ترين نفسك بهذه الثياب؟

_ سيعذرني من يراني فالمطر يصيب كل من يسير تحته بدون مظلة.

_ هههه انتظري قليلاً... ثم دخل إلى الشقة، وعاد بسرعة يحمل بين يديه امرأة كبيرة نوعاً ما، ثم قال وهو يضحك:

_ عندها ستسير خلفك مظاهرة كبيرة من المراهقين... انظري إلى نفسك من الأمام والخلف!

نظرت فعلاً في المرأة إلى كامل جسدها من جميع النواحي، وقالت بحياء معاتبة:

_ أف... أف... يا لخلي! لكن لماذا لم تنبهني فوراً؟

_ الحمد لله لم يدخل أحد بهو العمارة حتى الآن... ليتني لبست معطفاً قبل خروجي من البيت، وحملت مظلة... هيّا.. هيّا لندخل إلى الشقة وأمرنا الله تعالى... لحظات وقال:

_ سأذهب أنا إلى البقالة التي أمام العمارة، مدة ربع ساعة على الأقل وسأعود بعدها إليك...

_ نعم... ولكنني أحتاج لأكثر من ساعة لتجفيف ثيابي، هذا إذا انتهيت...

_ يا لك من متفائلة!! ألا تخافين من أن تفاجئي بصاحب الشقة يأتي فجأة... لقد تأخرت بإرسال أوراقه له... لقد طلبها منذ أيام مني، أو ربما يأتي صديق له ليزوره.

_ وماذا يعني؟

_ يعني الأمر محرج... سأبقى هنا... أليس من الأفضل لك؟

_ كما تشاء ابق بعيداً عند باب الشقة من الداخل... أين باب المطبخ؟ لا أريد دخول غرفة خاصة... أشار إليه ودخلت... بحثت عن مفتاح الإنارة وأشعلت الضوء وقبل أن تغلق الباب بالمفتاح مازحها قائلاً:

_ سأدخل معك... ثم قال مماًزحاً... سوف أغمض عيني...

هههه، لا تخافي بل سأجلس في الصالة لأحرسك... هيا جففي ثيابك هناك في المطبخ توجد مدفأة كهربائية... كان ينظر إليها وهو يبتلع ريقه، أثار منظرها وهي تقف أمام المرأة التي تتوسط باب المطبخ شهوة عارمة بنفسه، لكنها بقيت مكبوتة... أدار وجهه وجلس على مقعدٍ بعيدٍ عن

باب المطبخ، قريب من باب الشقة الرئيسي، وهو يحدث نفسه... اصبر يا هشام بقيت بضعة أشهر فقط حتى تنهي فتاتك المرحلة الثانوية، وبعدها سننزوج وستكون سماح ملكك.

أما في الخارج فقد تكاثرت الأمطار... ولم ينقطع وميض البرق الذي يتسرب من نوافذ الشقة إلى الداخل، يتبعه هزيم الرعد بصوته المرعب!

جلس هشام يراقب الجو مقابل الباب لحراستها من أي طارئ، لكن الهواء البارد دفعه للدخول وإغلاق باب الشقة الخارجي... وهنا لاحت له حركاتها خلف باب المطبخ الزجاجي وهي تخلع ثيابها أمام المدفأة... فالباب في وسطه لوح من الزجاج العاكس للضوء من جهة الضوء... لذلك عندما أنارت الضوء أصبح الزجاج من الداخل كأنه المرآة يعكس ما أمامه ويخفي ما خلفه... أما من الخارج فقد أصبح الزجاج يكشف كل ما خلفه داخل المطبخ... خاصة وأن الأمطار والسحب أظلمت النهار والعصر قد اقترب، والسماء مغطاة بالغيوم فحجبت نور الشمس. بدت أمامه الفتاة شبه عارية عندما نزع ثيابها الخارجية.

أراد أن ينبهها، لكنه اضطر للسكوت خاف أن تكتشف أنه رآها وهو يعلم بخاصية الزجاج ولم يحذرهما. كما أنه هو من طلب منها الدخول إلى المطبخ... عندها لن تصدق أنه لا يعلم بالأمر، وهي تعلم أنه يقضي أكثر أيامه عند صديقه في هذه الشقة.

لذلك سكت هشام مرغماً وأدار ظهره للباب لكن الشيطان أخذ يوسوس له ما يوسوس... فبدأ يسرق النظر بين الفينة والأخرى نحوها، والفتاة المسكينة لاهية ساهية، بل ربما لم تكن تملك تلك المعلومة من قبل... كل ما تعرف عنه أن أمامها مرآة ليس أكثر... وربما فقرها كان يحجبها عن التطور... كانت تحلج ثيابها وتضعهم على الكراسي حول طاولة موجودة في وسط المطبخ تنظر إلى نفسها وتبتسم... يخطر في بالها أنها تقف وتنظر إلى مرآة دولاب أمها صباح... لم تكن تعلم أن هناك من الخارج يستطيع رؤية من في الداخل بوضوح دون أن تدري... فحينما دخلت المطبخ لا نور فيه وهي من أنارته... ورأت فيه مرآة الباب... بل ربما خُدعت، فلم تنتبه لكل هذا، فبعض الأبواب تركب لها مرآة من الداخل والخارج تمنع الرؤية في الاتجاهين... ربما لم يخطر الأمر

على بالها بسبب تلك الحالة التي هي فيها، بل ربما عجلت بالتخلص من ثيابها الباردة كالثلج، وهذا ما دفعها لعدم الانتباه إلى نوعية الزجاج، أو لعدم معرفتها بهذا النوع الفاضح لما وراءه من جهة النور.

اطمأنت سماح بعد أن دفعت طاولة السفرة الموجودة في المطبخ خلف الباب... ثم تأكدت من إقفاله من الداخل بالمفتاح... وثقب المفتاح أيضاً لا يمكن الرؤية منه. همها ثيابها المبتلة من الخارج والداخل، تجففها أمام المدفأة الكهربائية، وفي الوقت نفسه تفرش لأحلامها المستقبلية زهوراً وردية... تتصرف تصرف الواصل من أنه خارج دائرة الخوف، بل تشعر أنها في أمانٍ كامل... حاميتها صديقها وحبيبها كالحارس الأمين خلف الباب، تظن أنه يحمل بيده سيف الكرامة بالنسبة لها، ورمح الأمانة ليطال أي دخيل للدفاع عنها... هذا ما كانت تظنه.

فجأة مرت كلمات جدها هانئ عندما سمعته يعاتب صفية أي أخته في أحد الأيام على خلافٍ بينهما فيقول:
لها: (مطرح ما تأمن خاف... مثل شرقي قديم).

عندها فقط أخذ قلبها البريء يخفق بقوة ويزيد من دقاته، كانت تستعيد كلمات جدها وصوته الأجش حتى

كادت أن تفجر طبلتي أذنيها... لكن المسكينة أزالَتْ ذاك
الخاطر بسرعة من بالها، وقالت لنفسها:

_ لا يمكن أن يغدر بي... ثم أنا في حصن حصين في
المطبخ، ولن أفتح له قبل أن أرتدي ثيابي كاملة... ثم هذا
الشاب الذي يقف في الخارج حبيب العمر... حارسي اليوم
وهو نفسه عريس المستقبل، وأملّي الذي لا يخيب والذي
وضعتُه نصب عيني.

لا تدري المسكينة بما يدور هذه اللحظة في عقل حبيب
العمر هذا، الجالس خارج الباب الفاضح لها دون أن
تدري... ومن تظن بأن من يقف خلفه السند والحامي
لها... لم تكن تدري أنه أصبح العدو الخفي! الإرهابي
الذي لا يجعل للقيم الإنسانية قيمة أو وزناً! تردد هشام
فيما سيفعل... التردد زاد في تعقيد أمره... الحل موجود ولا
يستطيع تنفيذه، وهو أن يغادر الشقة حتى تنتهي من
أزمته وتخرج، لكن هذا ما لا يستطيع فعله... فكان
يخرج من الشقة لدقائق معدودة... يعود ويتذكر ربما أحد
أصدقاء محمود صاحب الشقة قد يأتي فجأة، لهذا عليه
حمايتها من دخیل مفترض مفاجئ، لكن المنظر يزيده

رغبة ويشير الشهوة أكثر من ذي قبل... كانت جالسة أمام المدفأة الكهربائية فيزيدها نور المدفأة فتنة على فتنتها. أخذ يفكر ويتساءل:

تُرى ألا تعرف سماح خاصية هذا الزجاج... ألم يلفت نظرها منذ البداية؟ ثم يقول ولا يصدق نفسه:

_ أية داعرة تكون في مثل تلك الحالة، وتعلم بأن الزجاج يفضح ما خلفه، ثم تقبل على نفسها ماهي فيه!! فكيف بفتاة عذراء شريفة أن ترضى بما هي فيه... يا إلهي ماذا أفعل؟ الشيطان ينطح بقرنيه الزجاج ها هو حطمه!!! لا لا تعلم هي، وإلا لقامت قيامتها علي... لكنني أنا من ظلمها وظلمت نفسي معها، يجب أن أنسحب من هذا الموقف، بدأت الظلمة تزداد بسبب تكاثف الغيوم التي تحجب الشمس في الخارج... كذلك مرحلة ما قبل الغروب تزيد الظلام... تقدم نحو مفتاح النور يريد تشغيله وهو يتمتم ويلوم نفسه:

_ يا لك من قذر يا هشام... أليس ما تفعله هو الغدر بعينه... ألم تتجاوز حدود الأدب والدين؟ أليس هذا هو العار الكبير والخيانة... الفتاة أمانة برقتك... هل وصل بك الحال إلى امتهان شرف الأمانة وكرامتها... فطن هشام

إلى أنه فيما لو أضاء نور الصلاة حيث يجلس، سيصبح
الزجاج كاشفاً على الجهتين، وستكتشف قذارة لعبته التي
جاءته مصادفة، ولم يكن يتوقعها إلا بعد فوات الأوان.

أخذ الصراع العظيم الذي لا يحتمله إنسان يدور برأسه
بين الخير والشر! ترى من سيكون الفائز؟

لم يستطع هشام تحمل المنظر المثير الذي يراه الآن...
ويبدو أنه جهز لنفسه عذراً أقبح من ذنب، فيقول: خزاك
الله أيها الشيطان لماذا تلعب بعقلي!! فيرد عليه شيطانه:

أنت شاب في منتصف العشرينيات من العمر تعيش في
مجتمع شرقي مغلق يفور رغبة وحرماناً... وأمامك جسد
شبه عارٍ... أراك لن تستطيع الصبر؟ ولن تستطيع
التحمل؟ ويناديه سيد الأخلاق: وما الذي يبقيك هنا؟!
ويرد على نفسه: الحق معك... إنها قبل كل شيء أمانة...
أمانة في عنقك.

يخرج إلى البهو فلا يستطيع البقاء... يخشى ظنون سكان
المبنى بوجوده... يذهب إلى الشارع فيجد البرد والأمطار
التي لا تحتمل... يبتعد عن المكان... يدفعه الخوف من زائر
لشقة صديقه قد يفتك بها... لا بد من العودة إذًا.

حار في أمره... قرر الدخول والانتظار... هل وصلت الأمور به الآن إلى ما فوق طاقته وقدرته على التحمل؟ عاد إلى زجاجة الخمر التي شرب منها جرعات قليلة عند دخوله في المرة الأولى، صب منها كأساً وشربه... عيناه معلقتان بما يتحرك خلف الزجاج... جسد أنثى لم يره حتى في أحلامه... غابت القربي الآن! لم يعد يرى سوى ذاك الجسد شبه العاري... احتسى ما كان في كأسه قبل قليل دفعة واحدة... وأتبع الكأس ببقية الزجاجة... أصبحت الآن فارغة تماماً... تناول أخرى واحتسى ما فيها بسرعة أكثر من سابقتها... بعدها فقد هشام السيطرة على أعصابه وبدأ الحريق يشتعل في صدره، وفي عقله أكثر من جوفه الذي ألهبه الخمر... وأسفاه منك أيتها المروءة... ويا أسفي عليك أيتها الكرامة!!

طارت الزجاجة في الهواء كلمعة برق ضاقت بها غيمتان مشحونتان اصطدمتا خلال ثوان، فحطمت الزجاج والأخلاق... وبقفزة سريعة من فتحة الزجاج... أشبه برعد تنج عن ومضة البرق قبل ثوان!

مفاجأة لم تكن بحسبانها، ولم تتوقعها ممن أمنتها على نفسها... تمالكت نفسها وهي تستر نفسها بقطع ثيابها

التي لم تجف بعد... أخذت تستنجد... ولكن لا حياة لمن
تنادي!

توالى صراخها وهي ترى الوحش البشري يقترب بسرعة
منها... بدأت تسمع هسيس أنفاسه تتسارع وتقترب... ها
هو يكاد أن يلامسها... تحس بحرارة لهائه ككلب يطارد
قطعة... ترى عينيه الحمراءوين... بدأت تفقد الوعي
تدريجياً... جحظت عيناها... انهارت إلى الأرض...
واحسرتاه طعن الأمل، وماتت القيم.

سنترك الأمور الآن كما هي... فلا بد لنا الآن من العودة
إلى الوراء قليلاً لنستكمل حكايتنا في الفصول السابقة.
ونعود الآن أولاً معاً إلى نهاية الجزء الأول لنتعرف على
أبطال روايتنا الجدد قبل أن نغرق في الأحداث المقبلة.

الفصل الثاني

نهاية وبداية

قلنا أنَّ شريف تزوج صباح بعد قصة حب لم تطل كثيراً، وكما رأينا فهو لم يهنأ بهذه القصة إطلاقاً... لقد أطل بقصته هذه الحادثة البشعة التي أدت إلى دخوله المستشفى لمدة أسابيع، وتشاء المصادفات أن تلتقي الأحداث الغابرة مع الحاضرة فتكمل حياة الأسرتين، لهذا لا بد لنا من تنوير بعض النقاط المعلقة.

فخلال الحديث عن علاقاتهم الاجتماعية، بعد أن تطورت ووصلت إلى ما مرَّ بنا من تقارب ومصاهرة، وانتهاء العلاقات التجارية بينهما، برفض عبد الله قبول أي مبلغ كتعويض عن معاناته، أو استمرارية الشراكة بينهما... وإن العلاقة الأخوية بينهما أي عبد الله وشريكه السابق عادت ودية إلى ما كانت سابقاً... ومَتَّنت العلاقة بينهم برابطٍ شديد الأهمية وهو رباط المصاهرة، بزواج ابنة هاني الفتاة صباح من شريف ابن عبد الله... وللعلم إنَّ هذا الزواج بين سماح وشريف أثمر لهما طفلة أسمياها سماح، التي عرفناها في الفصل السابق.

وقُصد بهذا الاسم عودة التسامح بين الأسرتين، وختام نتائج العلاقة الباردة بين الأبوين، أما العلاقة الزوجية التي كانت بين صفية أخت هاني وزوجها أيوب رأينا كيف تفكك رباطها بعد أن ترك أيوب منزله بما حوى لزوجته التي أصبحت بحكم المطلقة تماماً بالنسبة له... تحت شرط العناية بأولادهما الأربعة هشام وإخوانه... وعلى إثرها انتقل أيوب للسكن في مكتبه... أي مقر عمله متجاهلاً تعبهُ وشقاء عمره في بناء منزله... والسبب المهم أيضاً كان حياؤه من ألسن أهل حارته وخجلاً مما سيتناقلونه بينهم من أخباره وأخبار زوجته... وكيف رضي بوجودها في بيته، كيف تقبل ذلك وهو يعرف عبثها... خاصة وأن جيرانه كانوا يشاهدون بأنفسهم تردد الرجل المسمى كمال إلى بيته أثناء غيابه... طالت الألسن وعرفوا به عشيقاً لصفية زوجته... وهذا الرجل زميلها الذي يعمل في مجال الأدب، وأثبت ألا علاقة له بالأدب، من خلال أفعاله المنافية حرفاً وحرفة.

اختفى أيوب عن المسرح وجاء ولده هشام ليبدأ بقصةٍ جديدةٍ مشينةٍ... علمنا أولها وبقي أن نتابع نتائجها.

الفصل الثالث

عودة على بدء

في مقدمة هذا الجزء... شاهدنا هشام وهو يجري، بعد أن أحس بصحوة من عقله تذكره بفعلته الشنيعة... لذلك كرّر راجعاً من حيث أتى... راكضاً من المكان نفسه، لا يأبه لغزارة الأمطار التي تصب على رأسه فتربط حوله السماء بجبال طويلة وكثيفة وكأنها تشد بها إلى الأرض... أخذ هشام يجري دون هواده... يخوض البحيرات الصغيرة التي شكلتها الأمطار، بعد أن ملأت حفر الشوارع الكثيرة، وسالت كأقنية وجداول بجانب الأرصفة حتى أصبحت المياه تعيق سرعته، وتسيل عليه من رأسه حتى أسفل قدميه... عقله المشوش يُسمعه لغطاً غير مفهوم... فظن أن مساً من الجنون أفقده توازن عقله... لكن عقله المضطرب جعله يتمم ويقول وكأنه يهذي أو أنه كان يهذي فعلاً:

_ يا إلهي... يا لهول ما فعلت...

ثم يتمم من جديد:

فوق هذا كله تركتها وحيدة... يا إلهي ماذا فعلت... ثم فطن إلى أمر آخر وأخذ يضرب على رأسه بكفيه، ويتمتم ملتاعاً:

_ تركت الباب مفتوحاً وموارباً خلفي... ترى هل دخل أحد ما بعد رحيلي مباشرة؟ ترى ألا يكفي ما فعلته بها؟ ثم يؤنب نفسه... كم أنت نذل يا هشام! إن أصدقاء محمود صاحب الشقة كُثُر... يزورنه دائماً في شقته دون موعد... كم أتمنى أن يستمر هطول الأمطار الغزيرة فيعطلهم عن زيارته خلال هذه الساعات... ثم يعود فيحادث نفسه بعدما استفاق على هول فعلته:

سأعود إليها... سأخذها إلى أقرب مأذون... سأتزوجها على الفور... ليحدث ما يحدث... أخطأت ويجب أن أصلح خطئي... هداً روعه قليلاً بعد أن قرر هذا الأمر.

أخذ يهدئ من سيره بعد أن أقر بشناعة عمله... بدأ يتزن تفكيره قليلاً... يفكر كيف رضي بترك الفتاة مغمياً عليها وبهروبه السريع... أخذ يبرر فعلته بأن الشيطان عبث بعقله ولم يعطه فرصة ليتمالك نفسه، بعد أن رآها في تلك الحالة، وإن الذنب على الشيطان الذي وسوس له... ثم يلوم نفسه ويقول:

_ لماذا لم أنبه سماح على خاصية زجاج المطبخ؟ اقترب هشام من الوصول إلى المكان... شعر أن قلبه يكاد أن يقفز من حلقه خوفاً من العواقب التي كان يتوقعها... أخيراً وصل بعد أن غربت الشمس وحل الظلام... دخل إلى الشقة متردداً خائفاً... لم يعلم بأن (العبد في التفكير والرب في التدبير).

كانت المفاجأة الأولى له أن الباب مغلق! بحث عن المفتاح وجده في مكانه... كما كان عندما دخل الشقة للمرة الأولى!

ثم كانت المفاجأة الأكبر التي صعقته وأطارت ما تبقي من عقله... لا أحد في الشقة... المكان مرتب تماماً لا يوجد زجاج مكسور... لا فتاة مغتصبة ملقاة على الأرض... وكأن أحداً لم يدخل إلى هذا المكان لا بعده ولا قبله! حتى شظايا الزجاج لا وجود لها، ولا آثار على حواف الباب أو على أطرافه مكان الزجاج... كما في العادة عندما يكسر زجاج نافذة أو باب... ها هي المدفأة الكهربائية مطفأة وباردة، وطاولة المطبخ ليست في المكان حيث تركها... زجاجة الخمر الفارغة في الصالة لا وجود لها... والزجاجة التي كسرت الزجاج أيضاً اختفت مع الشظايا!!

جلس يفكر ويعيد تصوير جريمته بذهنه... يقول:
رميت الباب بزجاجة ثقيلة ومتينة... شيء لا يصدقه
العقل... كيف هذا؟ هل أنا واهم ولم أفعل شيئاً؟
لم يجد تفسيراً لهذا التبدل السريع أو كيف تم ترميم
المكان... فيها هو كل شيء مكانه... انتابه الخوف حتى أوشك
أن يفقد عقله... في النهاية كاد أن يصدق نفسه ويقول...
أنا لا أو من بالسحر ولكن الآن؟!!

انتابته قشعريرة فرح عند ما أخذ يشك بأن كل ما حدث
كان حلماً... وأنه ما زال حتى الآن بحالة سُكرٍ، لكنه يشعر
بأن وعيه لا يشوبه شيء... هناك شيء لم ينكره، وهو ما
جعله يكاد أن يصدق بأن القضية لا تتعدى الحلم أو
التهيؤات سببها له عقله المشوش بسبب الخمر، فلو كانت
هذه الحادثة فيها بعض المصادقية، أين إذاً الزجاج المحطم
من باب المطبخ؟ أين الضحية؟! من الذي جمع شظاياه
بالكامل من الأرض ومن حواف الباب... هل كشفت
الجريمة؟ هل أن ما حدث كان بالأمس؟ ... بالأمس كان
الجو صحواً، ولم تتساقط الأمطار فيه... تساؤلات كثيرة
جداً لا نهاية لها تدور في رأسه... لكن لا محيب... كل ما
أسعفه تفكيره المحطم هو الخروج من ذلك المكان

العجيب... لفت نظره وجود كراسة على طاولة الصلاة، نظر إليها فوجد اسم سامي لكنها لا تؤكد شيئاً... قد تكون قديمة وسامي هذا يدرس مع زميله محمود وفي المرحلة الثانوية نفسها بينما هشام في السنة الثانية من الجامعة لكن تجمعهم معهم صلة القربى والصدقة.

عندها أغلق الباب ووضع مفتاح الشقة في مكانه المعتاد... وقرر الهرب من المدينة بحيث لا يلوي على شيء، كان قراراً سريعاً اتخذته ونفذه بأسرع مما فكر فيه... عندها خرج هشام من المكان مسرعاً إلى بيته... بدل ثيابه على عجل وأخذ كل ما يحتاجه... ودع أمه بحجج واهية بحيث لم يجعلها تشك بسبب ذهابه، على أنه سيعود بعد أيام، لكن بنفسه قرر مغادرة هذه المدينة نهائياً إلى مدينة أخرى، ريثما تتضح هذه الأحجية وتحل تلك الألغاز التي رافقتها.

كان يود بل يتمنى قبل رحيله أن يعلم ما جرى، قبل مغادرة المكان هارباً، أي مكان جريمته، لم يصدق أن ما رآه كان حلماً، بل هناك فاعل لما حدث في الشقة بعد هربه.

ركب هشام على الفور سيارة أجرة إلى مدينة مجاورة، لا تبعد كثيراً عن مدينته التي يقيم فيها، بحيث يستطيع تقصي الأخبار... لكن ما كان يعانيه من خوف وشعوره أنه قد يكون هناك من يطارده، لذلك فضل الفرار إلى أبعد مكان يستطيعه، لم ينتظر... ما أن وصل إلى المدينة وقبل أن يستقر وضعه فيها قليلاً فتح خطاً جديداً لهاتفه النقال... ثم اتصل ببيت أهله... ردت أمه التي فوجئت بقراره، وقال:

_ أماه أنا لن أعود إلى البيت قريباً... لا تبحثوا عني... لقد قررت ترك الدراسة نهائياً، لم يعد لي رغبة لا بالجامعة ولا بالدراسة... لقد فشلت خلال الأعوام السابقة وتأخرت عن رفاقي كثيراً بسبب عدم رغبتني ورسوبي سنوات كثيرة... سأبحث عن عمل يساعدني على بناء مستقبلي، ثم قطع الاتصال قبل أن يسمع بكاء أمه وتوسلاتها... كان في نيته تقصي الأخبار بشق الطرق دون أن يعرض نفسه للمساءلة، وبذهنه إنه لن يعدم أية أخبار عن جريمة قذرة قد تنتشر رائجتها... وفي الوقت نفسه يتقصى أخبار أهله، لأنه مقتنع بأنه قام بفعلته القذرة، وأما الباقي فهو

يشك بأنه تم بفعل فاعل رمم المكان، خلال الساعتين التي كان يجول في الشوارع تحت الأمطار هارباً؛ طال بحث أهله... وبحث أقاربه في السؤال عنه... لكن كل ذلك لم يسفر عن نتيجة، وذهب مجهودهم دون جدوى، خاصة أن اتصاله الثاني من مدينة أخرى ومن هاتف عمومي في الشارع، وهناك تعمد ألا تطول إقامته فيها أي المدينة الأخيرة، لذلك عمد إلى التضليل بتركها من فوره... انتقل إلى الريف بحثاً عن عمل... وبعدها تاه هشام في خضم الحياة... وتلاشت قضيته مع مرور الزمن... ونُسيت جريمته، وتناسى هو بقصده، لكن جريمته ما فتئت تذكره بفعلته الشنيعة التي ظن أنها ستمر دون عقاب من العبد، وعقاب من ربه الذي لا ينسى... أما الآن فقد تيسرت أموره في النجاة والعمل... ولكن (إن بعد اليسر عسراً) فالله يمهّل ولا يهمل ولو بعد حين.

وكيلاً نترك القارئ يعيش في عالم الخيال والأساطير... لا بد لنا من العودة إلى المكان لنستكمل مجريات الحادثة نفسها حين تركنا هشام يفر هارباً... وقبل أن نعود إلى ضحيته المسكينة التي تركها بين الحياة والموت... لذلك لا بد لنا من نبذة قصيرة عن صلة هشام بسماح.

هشام هو ابن أيوب الذي عرفنا نهاية قصته مع زوجته صفية الذي انتهى بالهجران التام لها... وصلة هشام بسماح التي هي ابنة صباح، ولكن بينهما فرق عمري واضح... ومع معرفة صباح بسلوك عمتها صفية (أخت هاني) وافقت على خطبته من ابنتها، وتناست ماضي عمتها صفية وتاريخها المشوش، تناست فشل هشام بالدراسة ورسوبه المتلاحق في بعض الصفوف بسبب الفوضى التي يعيشها... كل هذا في سبيل أمر واحد هو ضمان راحة ابنتها... والدافع إلى ذلك أن تكون صلة القربى هذه وسيلة لإسعادها، وحمايتها تحت مظلة هشام قرييها... ثم أنه يملك بيتاً في أطراف المدينة، ولن تعاني معه من حياة القرية ومتاعب الزراعة والفلاحة... وهنا آن للقارئ الآن معرفة سبب هذا التبدل المفاجئ داخل موقع الجريمة.

بعد عودة هشام إلى الشقة فوجئ بعدم وجود آثار لجريمته في المكان نفسه، التي اقترفها بما أوحى له من عقله المضطرب بسبب الخمر، وربما سوء تربيته وحياة الحرية المطلقة التي كان يعيشها ضمن أسرته المفككة... وإن كان للصدفة البحتة الدور الأكبر... لقد فعل ما فعل ثم قام بالفرار إثر جريمته الشنعاء إلى حيث لا يدري أحد هرباً

من واقعه، ودون أن ينظر خلفه... أو يفكر بما سيحصل
 لتلك الإنسانية المسكينة من أذى وقهر بعدها.
 لكن لله إرادة أخرى... فقد سخر الله للفتاة المسكينة
 بعدها بدقائق فقط أمراً وضع حكمته فيه... وصل شاب
 آخر من أصدقاء الشلة نفسها، كان يمر من قرب المكان،
 وعندما فاجأته الأمطار الغزيرة لم يجد أفضل من التلطي
 في شقة صديقه محمود، لأنها قريبة منه هذه اللحظة
 ريثما تحف الأمطار... وفي الوقت نفسه وجدها مناسبة
 جيدة لتفقد زميله صاحب الشقة، من حيث الصداقة
 التي تربطهما، وفي الوقت نفسه يدرس الجميع في المدرسة
 نفسها، باستثناء هشام الذي ما زال يدرس السنوات
 الأولى في الجامعة نظراً لعدم اهتمامه بها.
 وهشام يتردد أحياناً عليهم... وفي الوقت نفسه تربط
 الجميع صلة قربي متفاوتة، ومجاورة سكن في القرية،
 وكان هذا الشاب أي سامي يتردد على محمود في شقته هذه،
 إما للدراسة وإما لزيارته وعرف عنه رفاقه طيب الخلق
 والهدوء.

وعند وصول سامي إلى باب الشقة... كان أول ما أثار فضوله رؤية باب الشقة المفتوح والموارب قليلاً، ولكن لم يستغرب الأمر كثيراً... هنا أخذ يحدث نفسه:

_ ربما نسيه محمود أو تركه عامداً... لموعد مع أصدقاء له، أو لأنه ربما ذهب إلى البقالة المجاورة... أو ربما يتكاسل بفتح الباب إذا قرع... ويكتفي بكلمة تفضل... فلا زائرين له سوى بعض أفراد أهله أو رفاقه... لم يشغله هذا الأمر كثيراً... ولم يأخذ له أهمية.

قرع الباب كالعادة أيضاً، ودخل قبل أن يسمع كلمة تفضل... ولكن الهول فيما رأى؟! مفاجأة أو شكت أن تطيح به إلى الأرض لولا أن تمالك نفسه! وقف مشدوهاً وهو يرى أمامه فتاة شبه عارية... نظر إليها ملياً، فاثارت بنفسه الشفقة... أدار وجهه جانباً، ولكن من خلال تلك اللحمة السريعة... عرفها وعرف فيها خطيبة صديقه هشام، وهو يعلم بأن خطبتهما شبه مؤكدة... ويعلم بأن هشام ينتظر نهاية السنة الدراسية لتحصل الفتاة على الشهادة الثانوية، وبعدها يستعد الجميع لإتمام الخطبة ثم يعقبها الزواج... كما يعلم بما يربطهما من صلة قربي... وقف للحظات مشدوهاً أمام هذا المنظر... لم ينتظر...

خلع معطفه بسرعة البرق... وقفز نحوها وهو يحمله مفتوحاً بين يديه الاثنتين... ومن ثم رماه بسرعة البرق عليها... دون أن يتابع النظر نحوها... أدار وجهه إلى ناحية أخرى كيلا يرى جسدها... قام بتلك الحركة السريعة قبل أن يصل إليها بحيث ستر بمعطفه أكثر جسدها... لقد أثبت نفسه وأخلاقه أن يرى ما لا يجب أن يراه... أما هي فقامت لحظة دخوله بحركة سريعة لفتت نظره، بحيث أصبحت تقف منحنية، ورأسها فوق الطاولة.

لقد أحست لدى دخوله بحركة غريبة، أو ربما لمحت خياله... فظنته غريمها هشام الذي أوقعها في هذه الورطة... أسندت عقب سكين مطبخ كبيرة على الطاولة التي كانت تحتمي بها... ثم وضعت ذؤابتها تحت ذقنها... وكانت تجلس على الكرسي قرب الطاولة... فما أن رأت حركته حتى رفعت رأسها عالياً تريد أن تهبط برقبتها على السكين بحيث يحترقها... أعاقها المعطف الذي سترها به قبل لحظات مما عطلها عن تنفيذ فعلتها ثوانٍ معدودة وهذا ما أعطاه الفرصة لإنقاذها.

لم يفت سامي بأنها محاولة انتحار... لم يتردد ودون تفكير... قفز على الفور... أمسك شعرها... رفع رأسها بقوة ثم نزع السكين من قبضة يدها وهو يصيح بها:
_ قفي... قفي أيتها الحمقاء... ما بك؟ ماذا تفعلين؟ ولماذا؟
صعقت الفتاة من سرعة دخوله المفاجئ وحركته السريعة... وقد ظنته للوهلة الأولى غريماً... أخذت تبكي وتصيح:

_ أيها القدر... هشام ماذا فعلت بأختك؟؟ ألسنت أنا من عليك حمايتي؟ لكنها توقفت عن الكلام، ولازمتها في تلك اللحظة هستيريا شديدة، وأخذت تنظر إليه بترؤ، بعد أن عرفت فيه زميلها في المدرسة وابن بلدتها... أخذ سامي يلاطفها ويهدئ من روعها بالكلام محاولاً أن يصرفها عن فكرة الانتحار... بينما هي تحاول الاستتار بمعطف سامي، وقد عرفت فيه زميل هشام وخيل لها فكرها أنه شريك له ويريد أن يأخذ حصته من شرفها، لكنها اطمأنت قليلاً بعد أن تذكرت أنه رمى معطفه عليها ليسترها؛ ثم عاد وسحب سامي غطاء الطاولة القماشي؛ ورماه عليها كي يخفي ما تبقى من جسمها العاري... استيقظت من الصدمة وتأكدت بأن هذا

الشاب ليس مدعواً إلى هذه الوليمة... ولا يريد بها مكروهاً... أرخت يدها التي تحمل السكين بحيث تناولها من يدها بلطف، وفهم أكثر القصة... ثم خرج من الشقة وهو يقول:

لا تخافي... ارتدي ثيابك... سأعود بعد قليل... أخذت ترتدي ثيابها... لكن تأثير الصدمة لم يسعفها بأن تكمل لبس ما تبقى من ثيابها المبللة والتي لم تجف تماماً، وهي في تلك الحالة من الهستيريا العنيفة... أما ما كان يحدث قبل وصول سامي بلحظات فهو:

بعد هروب هشام الذي اعتدى على شرفها ولم تستطع منعه من تنفيذ فعلته، مع مقاومتها المستميتة وعدم استسلامها له... ولكن القوة الوحشية تغلبت على البراءة... وكانت قد دافعت عن نفسها بشراسة... مزقت وجهه بأظافرها... دون جدوى... هداها تفكيرها إلى الانتحار بعد أن وقعت الواقعة.

لفت نظرها وجود سكين مطبخ كبيرة قريبة في متناول يدها، تناولتها وكان أول ما خطر إلى فكرها قطع شريان يدها، لكنها لم تجرؤ أن تُتم العملية عندما أحست بوخز السكين... تراجعت على الفور، حاولت تنفيذ غايتها

بالطريقة التي رأينا سامي ينقذها منها، علمنا كيف حاولت التملص من سامي لكنه مع هذا استطاع أخذ السكينة من يدها.

عاد سامي بعد قليل وهو يحمل معه بعض الطعام والعصير وسألها:

_ أخبريني عما حدث؟ وما الذي أوصلك إلى هنا، وإلى ما أنت فيه.

_ الغدر والخيانة والخسة!

_ من هشام يا سماح؟

_ نعم... ممن أمنت فيه ووضعت ثقتي به، ذاك الذي كنت أنا عرضه وشرفه، ومن كان من واجبه الدفاع عنه... ذلك القدر الجبان.

_ هشام... لا حول ولا قوة إلا بالله... لكن لماذا جئت معه... هل هو من أجبرك أو خطفك؟

_ كلا... لكن أُمي كانت تثق به أكثر مما يجب... ولم تحسب حساباً لما كان جدي يقوله: (مطرح ما تأمن خاف) وها أنا وقعت فيها.

_ أين هو الآن؟

_ هرب القدر، لكنني لم أستطع منعه... قاومت بكل قوتي ولكن...

_ المهم الآن وقع المحذور... علينا أن ننهي القضية بسلام.

أجابته وهي تبكي وتندب حظها وحياتها:

_ وكيف ستنتهي... على ماذا؟

_ ستظهرين أمام الناس وكأن شيئاً لم يحدث... وإلا أنت من سيخسر... ولن يصدق أحد أنك لم تذهبي بملء إرادتك... انتبهي أن تثيري هذا الأمر حتى أمام أهلك.

_ ولكن...

_ لا يوجد ولكن... توجد بنظر الجميع فتاة عذراء شريفة وأصيلة هي سماح... وما زال هشام خطيبها وقريبها يغار عليها ويضحي بدمه من أجل الحفاظ على عرضها وعرضه... ولم يتعرض لها بشيء... هذا ما يجب أن يعرفه الناس، وأنا سأذهب إليه وأرى فيه ما يستحقه... الليلة أو غداً على الأكثر سأقابله وأجعله يعجل بزواجك منه.

وأخذ يهدئ من روعها... أخذت ترتجف وتبكي وتولول... لكن سامي أسكتها بكلمات لطيفة وبقوله:

_ عليك أن تتصوري أنه لم يسلب منك شيئاً سوى
الثقة، اسكتي بالله عليك... الآن يجب أن نتعاون لترميم
وتنظيف المكان؛ قبل أن يفاجئنا أحد من أصدقاء محمود
صاحب الشقة... أعتقد وكما يبدو لي أنه لن يعود من
القرية هذا اليوم، الأمطار غزيرة وسيكون يوم غد يوم
عطلة كما أن السير لم يعد متوفراً في المساء... هيا اكنسي
الزجاج ولا تبقي أي أثر له... سنعيد كل شيء كما كان.

كلماته الرقيقة والهادئة، أخذت تعيد لها بعضاً من الهدوء،
وإن كانت لم تنقطع عن البكاء... وكانت قد اطمأنت حين
قال لها: سأعمل على إعادة الأمور إلى ما كانت عليه...
لكنها قالت بصوت يتهدج:

_ ما الذي ستعيده لي؟! شرفي الذي انتزع؟! انتزعه
الشیطان بالقوة... أجاب وما زالت المفاجأة تحيره وهو
يفكر هل سيقبل هشام عرضه:

_ سأطلب منه الزواج، وإذا رفض أرجوه بزواجه منها
لفترة وبعدها يطلقها؟! ثم قال لها: انسي ما حدث وأقنعي
نفسك بأنك منعته من الوصول إليك... ولم ينل بغيته
منك... أليس كذلك؟ لكنها لم تنقطع عن البكاء... أخيراً
نهرها بصوتٍ مرتفعٍ أمر:

_ اسكتي هيا... وافعلي ما أطلبه منك قبل أن يرانا أحد معاً منفردين هنا، هيا... ثم خرج مسرعاً وعاد بعد أقل من نصف ساعة، يرافقه رجل يحمل لوحاً كبيراً من الزجاج... بديلاً لزجاج باب المطبخ السابق.

كانت الشقة خلال أقل من ساعة قد نُظفت وأُعيدت الطاولة إلى ما كانت عليه، وأُخرجت الفضلات إلى الحاوية، نظر إليها وهو يقول:

_ الحمد لله الآن توقفت الأمطار... علمت أنه اعتدى عليك، لكن ستخبريني في الطريق بالتفصيل كيف جئت إلى هنا ولماذا دخلت إلى الشقة؟ يا إلهي هل وصلت به القذارة إلى مثل هذا العمل البشع؟! أنا أصدقك وأثق بكلامك... كان يتكلم محاولاً عدم إثارتها أو إغضاها... مرت دقائق صمت بين الاثنين... كان ينتظر منها أن تخبره لماذا دخلت معه إلى الشقة وهل هي لا تعلم بأن الشقة يقطنها شابٌ أعزب! كانت كلما همت بالكلام يمنعها ارتجاف شفتيها، وعدم قدرتها على إخراج كلماتها... نظر إليها وقال:

_ لا عليك الآن... تصنعي الهدوء وتوقفي عن البكاء... سنترك هذا المكان الآن على الفور... والأهم من هذا كله

كما قلت لك أن تنسي ما حدث... انسيه هذه الليلة فقط... وكرر جملة... هذه الليلة فقط... وسأبحث عنه لنصلح الأمر بأي طريقة أحلها الشرع، وما حدث لا نستطيع الرجوع فيه إلى ما قبل ساعات، لكنني الآن سأنتظر في الخارج، وسأراك بعد دقائق... تكونين قد انتهيت من تسوية وجهك وشعرك... عودي كما كنت قبل الحادثة ثقي بي غداً ستكون الأمور كما تريدين، وخرج... عاد بعد دقائق ودخل بعد أن قرع الباب... كانت قد انتهت من إصلاح شأنها، وارتداء ثيابها بالكامل، وما زالت الدموع تغالبها وتهطل من عينيها بغزارة... فقال:

— هيا بنا أعتقد بأن كل شيء عاد إلى ما كان عليه في هذا المكان وهي محاولة أولى لنسيان الماضي... ثم قادها بعد أن طلب منها مسح دموعها والسير معه... كان سامي يحاول طمأنتها بأن الأمر سيعالج بسرعة.

ثم قال لها بكلمات خجولة:

— عندي صديق يدرس في كلية الطب وهو سنة ثالثة نسائية، سنذهب إليه... اسبقيني وانتظريني في صالة مطعم الجامعة لعله يجد لنا حلاً.

_ يا إلهي ماذا تقول؟ وماذا سيفيدني؟! دعني أنتحر لقد
أخبرتكَ بأنني أوشكت أن أمزقه بأسناني لكنني لم أستطع
منعه ثم استرسلت بالبكاء من جديد.

كان يقصد لما يسمع أو يطالع عن بعض عمليات الترقيع
لمثل تلك الحالات:

_ هذا يعني أنك أصبحت الآن... أليس كذلك؟ ويقصد
أنها (ثيب).

_ نعم... وبكل أسف، كانت تتكلم وتمسح دموعها بيدها،
وتقول:

_ ليتك تركتني انتحر... لكنك الآن جثة هامدة... لم أتردد
عن الانتحار حين وجدتي أضع رأس الموس تحت رقبتي.

_ دعينا الآن مما مضى... ولا أفكر بأنك راغبة فيما فعل،
أو أن ما حدث بموافقة منك... ولكن لا أعتقد أنك
ستنجين من بقية المخاطر... ويعني بذلك الحمل... لماذا
تقومين بتلك الحملة الشعواء ضد نفسك... بطلة أنت يا
سماح... ثم عاد يسألها عن بعض التفاصيل.

_ كلا دعني من الطبيب لن يقدم لي شيئاً.

_ إذا سذهب إلى بيتكم، ولم ينفك عن طمأننتها... وأنها
غداً ستكون بأفضل حال، وأنها ستستعيد حالتها النفسية
القلقة جداً.

عاد بعض الهدوء إليها تقريباً، وبدأ يلازمها شعور بأن
معاناتها ستقلب قريباً إلى سعادة بزواجها من هشام.
كما وعدها سامي.

الفصل الرابع

جروح دامية

وصلت المسكينة إلى البيت... بيت أهلها وقد غربت الشمس... ولحسن حظها، ومن الممكن لسوء حظهم جميعاً بسبب تأخير أخويها اليوم عن العودة من عملهما... ظن الجميع أنهما لم ينهيا أعمالهما في البناء بسبب كثرة سقوط الأمطار هذا اليوم... بذلك لم تعد بحاجة لتبرير تأخيرها لهما... وهي تعلم بأن أمها الأرملة المسكينة... صباح ليس من الصعب إقناعها.

لكن الغضب والشقاء الباديين على وجه سماح... كذلك آثار البكاء أيضاً لا تخفى على الأم، ما جعلها تستفسر بقلق شديد منها عن سبب هذا التغير:

— ما بك يا بنتي لا أراك كعادتك؟

— لا شيء يا أماه... لا شيء... في محاولة منها كي تتستر على نفسها وعلى خطيئها المستقبلي... كل هذا وما زال الأمل في قلبها وإن كانت ما زالت تحمل أملاً أن يبقى الحب بعد أن يصلح غلطته في أقرب وقت، وتعتب على نفسها لأنها هي من جنت على نفسها بالدخول إلى شقة تعلم مسبقاً بأن من يقطنها شباب عُزب.

_ هناك شيء تخفينه ولا بد لي من معرفته... لا تكذبي
بما لا يصدق... أراك في حال غير الحال الذي أعرفه
فيك... هيا أخبريني قبل أن يعود أخواك، عندها لا يد لي
فيما يعملونه بك... ثم تذكرت تأخيرهما، فتابعت
متسائلة:

_ لا أعلم والله ما الذي أخرهما إلى هذا الوقت على غير
العادة؟!

_ إنها الأمطار يا أماه... في محاولة منها لتغيير اتجاه
الحديث.

_ سيعودان بإذن الله المهم أنت أخبريني ما بك؟ ثم نظرت
إليها ملياً وقالت:

_ الأمر لا يعرف الطبيعي... أرى في لبسك الفوضى... هيا
بدأت أحترق... أين هشام؟ طبعاً تقصد خطيب ابنتها
المأمول... لماذا لم يدخل معك كعادته عندما يأتي بك إلى
هنا؟!

_ كان مشغولاً وكلفني بالسلام... لحظات وتغير وجهها ثم
انخرطت في بكاءٍ عالٍ لا ينقطع... وقفت أمها وقادتها من
يدها وقد تلون وجهها باللون الأصفر خشية أن تكون
سماح تورطت بشيءٍ ما، ثم قالت:

_ هيا ادخلي قبل وصول أخويك... أنت تعلمين ما الذي يحدث لك ولنا إن كان هناك ما يعيب... صارحيني وإلا أنا من سيخبرهما بأنك...

لم تدعها تكمل تهديدها بل وضعت رأسها على صدرها وأخذت تبكي وتشرح لها تفاصيل مختلفة عما حدث بينهما، وتخبرها أنها دافعت عن نفسها دفاعاً مستميتاً ولم تسمح له أن ينال غرضه منها، طبعاً كما نصحتها سامي... عندها صرخت الأم ملتاعة وقالت:

_ أيها القذر هل وصل الغدر بك إلى هذه الدرجة؟ هيا ادخلي المطبخ وساعديني... لكن حركة غريبة في الخارج دفعتها للوقوف في الباب، ومع رذاذ المطر في هذا الجو المتقلب وعلى أنوار الشارع شاهدت مجموعة من جيرانها، ومن أهل القرية تجري في الزقاق الضيق... لم يرد أحد على أسئلتها عما يحدث هناك حيث يجرون... أمسكت ولداً واحتجزته عن الجري وهي تصرخ فيه:

_ ما الذي يحدث في القرية؟ لماذا الناس تجري؟

_ لا أعرف... ولكن رأيتهم يجرون فجريت معهم.

توقعت الأم صباح أن أحد البيوت دخلته مياه الأمطار
كما يحدث أحياناً، فدخلت تعيد التحقق بما حصل مع
ابنتها.

_ يا سماح ادخلي الحمام سأفحصك... جن جنون البنت
وأخذت تدافع عن نفسها.

_ تعرفيني يا أماء... قلت لك إنني هددته بالسكين... فرَّ
من أمامي وهو يتظاهر بأنه يجربني.

بدأت الأم تبكي مع ابنتها وتقبلها وتصفها بالشرف
والفضيلة والشجاعة والبطولة!

_ أرايت يا أماء هذا المخادع، لكن الله نجاني منه وأتم
الله فضله بمجيء سامي الذي رافقني إلى بداية الزقاق.

_ ولماذا لم يدخل معك؟ فهو عادة يأتي لزيارة أخويك
وتربطهم صداقة.

_ يبدو أنه مشغول.

_ المهم أثبتت قدرتك على الدفاع عن نفسك والحمد لله.

لكن الأم عادت تظهر قلقها لتأخر ولديها... لقد حل
الظلام... وبررت تأخيرهما بسبب غزارة الأمطار أو
الخوف من الصواعق، التي تضرب الآن بقوة في الخارج...
ذهبت سماح إلى النوم ولم تنتظر أخويها لتناول الطعام،

وهي تمنى نفسها بأن يتصرف سامي غداً بما يصلح الأمر
كما وعدّها.

مضى حوالي الساعة على الضجة التي شغلت بال صباح،
لكنها عادت من جديد بضجيج أكثر من الأول...
وخرجت لتستطلع الخبر... ويا لهول ما رأت... جنازة
محمولة على الأكتاف تقترب من البيت يسبقها الآن بعض
الرجال من كبار السن... وضعت يدها على صدرها رعباً...
جحظت عيناها وهي ترى وجوههم الكالحة على أنوار
الشارع!!

الوجوه التي سبق وأن رأت مثلها من قبل عندما نعوا
زوجها لها... تمسكت بالجدار كيلا تسقط على الأرض...
بدأت تلهج بالابتهال والدعاء... وتنطق بالبسملة والصلاة
على النبي، تقول وهي تتأثى وتحشرج:

(بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على خير الأنبياء رسول
الله...) لم تكمل حتى وصل أولهم ولم ينتظر أن يقف، بل
بدأ كلامه وهو يمشي نحوها ويمسد لحيته بيده:

_ أمسكي نفسك يا بنيّتي... فالأعمار بيد الله... أنت امرأة
شجاعة مؤمنة... تشجعي... لكنها قاطعته ولم تدعه
يكمل:

_ ماذا حدث له؟ ومن هو؟

_ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا... انزلت سيارة العمال بسبب الأمطار بركابها، وجميعهم بين قتيل ومصاب وبينهم أحد أولادك توفاه الله... صاحت ملهوفة:

_والآخر؟

_ بين المصابين في المشفى... قلت لك إنك امرأة عاقلة وتؤمنين بالقضاء والقدر.

لم ينتهِ من كلامه حتى وصلت مجموعة أخرى من أهل الحي تحمل جنازة أخرى وتكرر على أسماعها ما سمعته قبل قليل... لقد مات الآخر في المشفى نتيجة إصابته... لم تحتمل الصدمة... سقطت مغشياً عليها...

تُكَلت صباح بولديها وكانت قد ترملت قبل سنتين عن زوجها... ولو لم يضع الله في الإنسان خاصية النسيان وجعلها منحة لعباده لجنت الناس، وفقدت عقولها.

توقفت عن التحقيق مع ابنتها... ربما لم تنس، لكنها ربما وثقت بكلام ابنتها وأعيتها المصيبة عن متابعة التحقيق معها.

الفصل الخامس

حلول جذرية

وقع سامي في ورطة لم يكن يتوقعها... ماذا سيفعل الآن في المصيبة التي ساقته إليها الظروف؟ وكيف سيعالج المصيبة التي دمرت الفتاة جسدياً ونفسياً؟ بعد أن فشلت اتصالات سامي في العثور على هشام، وفشل في العثور عليه في جميع الأماكن التي يعرف أنه يتردد إليها... ذهب إلى بيته، إلى بيوت أصدقائه، إلى الأندية... صالات الألعاب... أبداً لا وجود له...

حينذاك تأكد من أنه غادر المدينة... هرب هشام... هاتان الكلمتان ظل يرددهما حتى ساقته قدماه إلى أحد المقاهي في طريق بحثه عنه... جلس فيه يفكر في المأزق الذي أوصله قدره إليه دون أن يدري... تشعبت أفكاره... كلما وجد حلاً... لا تكتمل مقوماته، المصيبة أكبر من أن تهزمها أنصاف الحلول... تململ في النهاية في كرسيه بشكل لفت صريره أكثر أنظار رواد المقهى... فأخذ يغمغم بكلماتٍ مسموعةٍ لكنها غير مفهومة، بينما في الحقيقة كانت تلك الكلمات تعبر عن حلٍ قاسٍ ارتضاه لنفسه... كان يحدث نفسه ويقول:

_ ربما أرسلني الله كي أنقذ هذه المسكينة... ولكن قد فعلت... هل وجب عليّ أن أنقذها مرتين؟ إذا كان لا بد من التضحية.

نعم الحل الوحيد... ليس لي إلا أن أتزوجها دون أن يشعر أحد بما حدث، البنت شريفة اغتصبت بالقوة دون إرادتها. نعم أنا وحيد والدي... لسانهما دائماً يلهج بمتي ستزوج؟ هل عثرت على ابنة الحلال؟ دائماً يحثونني على الزواج... عمري الآن قارب العشرين عاماً... نعم كنت لهم عاصياً... وجداراً عنيداً... والداي اليوم بحاجة لمن يؤنسهما... بعد أن كبرا في السن. نعم الآن... الآن سألبي طلبهما... سأنهي تلك الأزمة بتلبية رغبتيهما... لكن أدعو الله أن أعثر يوماً على ذلك القدر هشام لأنتقم منه... الحل يجب أن يكون بسرعة وإلا... ولكن وإذا لم يقع الحمل عندها سأنجب منها أولادي وأرتاح من مسؤولية غريب أو غريبة في بيتي، وهذا ما أتمناه، ولكن من يضمن ألا... ومن يضمن ألا يكون مني... يا إلهي أرشدني إلى سواء السبيل. نعم سأتزوجها، وأجعل منها أختاً لي فترة الأشهر الأربعة الأولى... لن أقربها حتى تتضح الأمور، وأجري على الله... ولكن هل ستقبل بي؟

لا أريدها أن تقبل بي منقذاً؛ بل زوجاً ووليفاً والحب قد يأتي بعد الزواج... تنفس الصعداء حين استقر على هذا القرار الذي لم يجد له بديلاً.

وفي اليوم التالي ذهب لمقابلة الفتاة بحجة الاستفهام عن سبب غيابها اليوم عن المدرسة... وكان قد اعتاد على زيارتهم بحكم الصداقة بينه وبين أخويها التوأمين. فاجأته المصيبة بموت أخويها، وأجل الأمر حتى الأربعين على وفاتهم... كان يجب عليه أن يتصرف بسرعة... أمامه حيرة مقلقة... إن أجّل عدة أشهر ربما سيظهر الحمل عليها، وتنكشف الفضيحة... لا بد من التصرف بأقرب وقت إذاً.

خرج المعزون في نهاية أيام العزاء من بيت صباح وبقي هو ينتظر... ناداها أمام أمها... فاجأهم فوراً بثلاث كلمات أرسلها سريعة كالطلقات...

_ هل تتزوجيني يا سماح؟ هل تقبلين بي يا أم سماح زوجاً لابنتك؟ ثم بصوت عالٍ إلى سماح:

_ لا تنتظري هشام... لقد غادر البلاد ومن الممكن إلى الأبد، ولن يعود... ثم همساً: ارتكب جريمته وهرب في

اليوم نفسه... قال لها سامي هذا الكلام دون أن تسمعه صباح أمها وكي يحسم الأمر.

بعد أن أفضى سامي إليهم بنيته في الزواج من سماح وبمنفسه ستر الفضيحة، قال تلك الكلمات ولم يعطهم فرصة للرد سوى يوم واحد... ثم أضاف وهو يخرج من الباب:

حضروا أنفسكم نحن قادمون لخطبتك غداً... وإن لا... اتصلوا بنا... أما أنا فلا بديل ولا تراجع ثم أدار ظهره عائداً من حيث أتى، ودعته سماح إلى خارج الباب فقال لها: _ ما أن يظهر الحمل عليكِ حتى نفترق... وإن لا... زواجنا قائم... لست مستعداً لتربية أطفال غيري. ودون أن يعطيهم فرصة للتفكير أكثر من ذلك كرر كلامه لسماح.

بقي أمامه عقدة الأهل وهو يعلم بساطة أهله وحاجتهم لتزويجه... فور وصوله إلى البيت جلس قرب أمه مبتسماً... سألته أمه وهي تعرفه من ملامح وجهه عندما يريد منها شيئاً ما:

_ طلباتك يا سامي... كم تريد؟ لقد اعتادت هذا
الأسلوب منه خاصة حين يكون بحاجة إلى المال... أجابها
ممازحاً وهو يقبل جبينها:
_ واحدة فقط ...

ردت أمه:

_ كثير هذا... بعد أن ظنت أن مطلبه ورقة عملة من
أكبر الفئات... عادت وسألته:
_ ماذا ستفعل بها يا سامي؟

_ تطبخ وتغسل وترتب وتساعدك... وتكون شريكتك
في البيت وتلهين أنت وأبي فيما بعد بأطفالها!
همهمت ولم تعرف كيف تجيب... فهمت القصد، تحولت
ابتسامتها إلى رعشة فرح هزت كامل جسدها... ثم نظرت
إليه بحنان لا يوصف، وقالت:

_ إنه يوم المنى... أخيراً يا سامي؟! الحمد لله... يا لها من
بشرى سارة كم سيفرح والدك بهذا الخبر! لكن نسيت
أن أسألك من هي سعيدة الحظ هذه؟ وكعاداته الصراحة
بدون مراوغة قال:

إنها زميلتي سماح تعرفينها أنت... فقالت:

_ أتذكرها جيداً... هي جميلة ولطيفة... نعم رأيتها أكثر من مرة، ليس لدي شيء أقوله... طالما أعجبتك أنت لن أمانع... كما أن والدك لن يمانع بل سيفرح كثيراً... أنا أعرف أمها المسكينة صباح التي ترملت في عزّ صباها، ورفضت الزواج من أجل تربية أطفالها بعد الحادث الذي أودى بزوجها...

نعم فبسبب كونهم أبناء قرية واحدة كانت تعلم أن شريف والد سماح مات بجادث سيارة قبل سنوات، وترملت ورفضت الزواج من كل من تقدم لها لتربي أولادها.

_ مسكينة أنت يا صباح... لكن يا ولدي أعتقد بأنها مخطوبة إلى هشام ابن خالها، ولم يبقَ على إعلان الخطبة والزواج سوى بضعة أشهر فقط أليس كذلك... ولكن هل فسخت خطبتهما؟

_ نعم... وثانياً لا عليك يا أماء؟؟ هشام غادر البلاد للعمل ولن يعود، وطلب من أهله فسخ الخطبة نهائياً.

_ لا حول ولا قوة إلا بالله لماذا يا ولدي؟

_ أماء قسمة ونصيب المهم أن أسرع قبل أن يتقدم غيري لها.

_ وثانياً لماذا لا تنتظر نهاية العام الدراسي؟ ونتائج

الثانوية؟

_ ومن يضمن لنا ألا يأتي شاب من المغتربين أصحاب

الجيوب المنفوخة، والسيارات الفارهة

فيلطشها مني؟!!

_ نعم الحق معك يا ولدي... اقترب الصيف، واقتربت

إجازاتهم.

قبل مضي شهرين على الحادثة أقيمت لهما حفلة عرس

متواضعة جداً... حقق هذا الزواج مصالح الجميع... سماح

تقادت الفضيحة وأهلها تخلصوا من مصاريفها وهمها...

وسامي عمل بما أملى عليه ضميره الحي.

أما والداه... فقد حققا هدفهما بزواج ابنهما الوحيد

والممانع دائماً لفكرة الزواج في الوقت الحاضر.

أما بين سامي وسماح فكان هذا الزواج عبارة عن صفقة

إنسانية لا يعلم بها سواهما.

ومع أن مستقبل سامي ما زال مجهولاً... وأمامه الكثير من

الطموحات الشبابية التي أحرقتها المروءة التي ألزم نفسه

بها! قرر هذا الأمر حفاظاً على شرف الفتاة.

بقيت الحقيقة سرّاً لا يعلم الأهل بها، ومع أنه كان قد اتفق مع عروسه على التظاهر بالزواج لفترة، على أن يطلقها لأسباب يختلقانها بعد مضي بضعة أشهر إن نجت من حمل السفاح... وبعدها من السهل عليهما أن يختلعا سبباً للفراق... بحيث تبقى القضية تحت شعار مطلقة شريفة أمام الناس جهاراً... ذلك خير من فضيحة مدويه تلحق العار بالجميع... لذلك سارت الأمور في طريق الخير... لكن المؤسف لهشام أن الحمل ظهر عليها بسبب تلك النزوة التي قام بها هشام... كانت العشرة القصيرة هذه، والرفقة الطويلة في المدرسة وعدم مسؤوليتها عما حدث... أوجب عليه تحويل هذا الزواج المصطنع إلى زواج حقيقي... شعر سامي بأنه لا يستطيع التخلي عنها وتعلق بها... وكان يبرر لنفسه... ما ذنب المولودة؟ طفلة جاءت إلى الدنيا سفاحاً دون ذنب... هذه الطفلة جاءت في نهاية الشهر السابع ظاهرياً أمام الجميع... لكن الحقيقة التي كانت أنّ الحمل تم طبيعياً منذ الحادثة، وكما نعلم الطفلة أتت إلى الدنيا نتاج جريمة نكراء، فلا ذنب لها في كل ما دار وسيدور مستقبلاً، أسماها أمينة بعد ولادتها فوراً... ومنذ البداية

حبها الله إليه... أخذت الطفلة الحيز الأكبر من قلبه،
وقلب والدتها... أحبها وصعب عليه التخلي عنها وعن
أمها.

مر حوالي سنتين على ولادة أمينة... ثم رزقهما الله بطفلة
أخرى أسمياها مها، وأعقبها طفلان من الذكور
وطيلة عشرين عاماً مرت على الحادثة، وعلى ولادة أمينة لم
تشعر سماح بفرقٍ بين معاملته لابنتها أمينة أو معاملته
لابنتهما مها، بل كان يعاملهما معاملة واحدة... لذلك
وفقه الله في مستقبله خلال تلك المدة، فنجح في دراسته
ونجح في كلية الشرطة التي انتسب إليها حتى وصل بعدها
إلى رتبة رائد، وعُيّن مديراً لأحد الأقسام الشرطية الهامة.

الفصل السادس

بين نارين

لم يستفق سامي من أفكاره حين دخلت في هذه اللحظة زوجته سماح، فوجدته غارقاً فيها... أخذت تراقب تحولات قسماات وجهه وانفعالاته... كانت تراه يبتسم أحياناً... ويتجهم وجهه أحياناً أخرى وكأنه سيوشك على الانفجار. فهمت حيرته... مصير أمينة يشغله، تركته وحيداً خشية أن تقطع سلسلة أفكاره... لكن رنين جرس الباب الخارجي المفاجئ أيقظه من شروده، فاجأهم جميعاً... لم يكن لديهم فكرة عن موعد زيارة مرتقبة لأحد... سماح هي الأقرب إلى الباب، قامت لتفتحه... وسبقت الخادمة التي نهضت متثاقلة قليلاً... وصلت سماح قبلها... ثم سمع صوت صرخة دوت... أعقبها صوت سقوط شيء ما.

هرع الجميع... ليجدوا سماح ملقاة على الأرض... بعد أن أعقب الصوتين صوت صراخ الخادمة وهي تستغيث... وبوصول ابنتها الثانية مها طالبة التمريض... وتوارد باقي أفراد الأسرة تباعاً... كانت سماح مغشياً عليها والباب

مفتوحاً... لم يدر في خلد أحد أن ينظر تلك اللحظة، إلى خارج الباب المفتوح ليرى من كان وراء سقوط الأم. تدافع الجميع حول سماح... ينظرون إلى الأم الملقاة على الأرض، البنت الصغيرة... مها والأب والخادمة شاهدوا جسد الأم مسجى ومكوماً بطريقة عشوائية على الأرض... الجميع بين باكٍ وحزينٍ تتساقط دموعهم المماً على وضع الأم المأساوي، حركة بسيطة غيرت الموقف لينقلب المنظر إلى فرح لا يوصف حين تحركت الأم... رفعت مها جسد أمها العلوي وبدأت بإسعافها مبدئياً... وفي الوقت نفسه منعت تحريكها قبل وصول الإسعاف لنقلها إلى المشفى، حسب خبرتها من خلال دراستها في أحد المعاهد الصحية... وطلبت من الجميع الابتعاد قليلاً عنها... لكن يبدو أن الحذر لا يمنع القدر، رفعت الأم رأسها وكانت تلك الحركة هي الوحيدة التي تصدر عنها بعد الحادثة!

يبدو أن الأم أصيبت بالشلل... ها هي الآن جسداً... ولكن تنقصه الحركة وربما لا تنقصه الحياة، كما يبدو أيضاً أن الصرخة التي كانت قبل لحظات، هي آخر صوت صدر من فمها حتى الآن، وفي تلك اللحظة... دخل أحد

أولادهما يحمل طاقة من الورد مبعثرة وغير منظمة... ويتساءل عن ألقى هذه الطاقة قرب الباب من الخارج... يسير خلفه أخوه الأكبر منه... لكن وقوفه المفاجئ، جعله يصدمه من الخلف... قبل أن يسأل عن سبب توقفه في الباب رأى ما رأى أخوه... رأيا أمهما مسجاةً على الأرض... اختلطت أسئلتهما الخائفة مع صراخ أخواتهم بين باكِ، وداعٍ لوالدتهما بالشفاء وحدث أية معجزة تعيد لها الحيوية.

سكتت مها لحظة ثم قالت تطمئن الجميع:

_ لا تخافوا إنها صدمة نفسية أصابت الوالدة وستقوم منها... المهم أن لا تتراموا عليها الآن، هي بخير لكنها فاقدة للوعي... تحتاج إلى هدوء وهواء نقي بالدرجة الأولى... كما يجب عدم تحريكها ريثما تأتي

سيارة الإسعاف... قام سامي فور مشاهدة زوجته ملقاة على الأرض بطلب الإسعاف هاتفياً... وها هو صوت أبواقها يصل إلى مسامعهم من بعيد... قالت مها:

_ أنا سأرافق والدتي ووالدي إلى المشفى، أما أنت يا أمينة انتبهي إلى إخوتنا... ضعي الطعام لهم وأبلغني جدتي صباح بما حدث... لأنها ستصاب بالجنون إن سمعت الخبر من

غيرنا... ونحن سنطمئنكم عن أماننا كل فترة... بين الحين والآخر.

بوصول طاقم الإسعاف، تم نقل سماح زوجة سامي إلى المشفى لإجراء الفحوص اللازمة ومعرفة نتائج الأزمة الصحية التي طالتها فجأة وسببها.

عاد الزوج إلى البيت بعد أن طمأنه الأطباء على زوجته... قالوا له إن كل ما في الأمر عبارة عن صدمة نفسية... القلب عمله جيد وكذلك التنفس... وتستجيب للوخز والإحساس بالألم، وقد تستيقظ من الإغماء بين لحظة وأخرى... كان لابد له من العودة إلى البيت بسرعة؛ خشية أن يتبعه أولاده إلى المشفى، خاصة وأن صباح والدتها الآن وصلت إلى المشفى وهي تبكي وتولول، وتريد أن تعرف ما الذي أصاب ابنتها!

جلس سامي مع أولاده وابنته أمينة يحدثهم ويطمئنهم عن أمهم، إلا أن قلبه كاد أن يحترق لهفة وخوفاً عليها بعد أن أخبره الطبيب أنها ستبقى في المشفى أياماً قليلة، ريثما تستقر حالتها وإذا استفاقت في أي وقت سيخبرهم... وكلمة (إذا) هذه كانت تحز كالسكين في صدره... يسأل ويتساءل:

وماذا إذا لم تستفيق؟ لكنه يحاول استبعاد هذا الرأي عن فكره... أخيراً سلم أمره لله... وبدأ يرد على تساؤلات أولاده، وإن كان لا يستطيع أن يفهم ما حدث حتى سألته ولده الذي شاهد الطاقة:

_ من رمى طاقة الورد قرب الباب من الخارج؟ استغرب سامي هذا السؤال... لم يكن لديه فكرة عن الموضوع، فقال وقد علت قسماته مظاهر الغضب:

_ أيّ طاقة ورد؟ وأين هي؟

_ التي كانت قرب باب بيتنا من الخارج.

حينئذ بدأ سامي يكوّن فكرة عن سبب سقوط سماح على الأرض عند الباب... ثم عاد وسأل ابنه مرة أخرى عن قصة الطاقة:

_ أين عثرت عليها؟

_ وجدتها مرمية بشكل عشوائي قرب الباب من الخارج، لقد وجدت نصفها مسنداً على الحائط وأزهارها إلى الأسفل! فهمت أن حاملها تخلص منها بسرعة لسبب ما لا أعرفه! لكن ربما خاف عندما رأى أمي تسقط على الأرض فهرب!! رد ولده وكأنه تذكر شيئاً:

_ نعم... نعم الآن تذكرت... حين دخلنا بسيارتنا من البوابة الرئيسية... لمحت شخصاً يخرج مسرعاً من المدخل الجانبي دون أن أميزه جيداً، ولكن على ما أعتقد رأيت سيارة سبور حمراء متوقفة في مقابل البوابة الرئيسية قرب الرصيف... ربما كانت هذه السيارة تخص الشخص نفسه، وربما ركبها وغادر... رد والده:

_ حين جاءت سيارة الإسعاف وذهبت بسيارتي خلفها، لم ألاحظ شيئاً... ولكن هل تعرف الرجل إذا رأيته؟
_ ربما أميز قامته لأنني لم أر وجهه كاملاً...

سكت الوالد وفي نفسه مرارة وكآبة... ثم نظر إلى ولده وهو يتمتم: ما الفائدة إذا؟

رن جرس الهاتف وهجم عليه جميع الأولاد والكل يعتقد أن هذا الاتصال جاء من المشفى الذي تعالج فيه والدتهم... تدافع الجميع نحو الهاتف وكان المتصل يطلب من السيد سامي الحضور فوراً إلى المشفى، وجَم الجميع ودَبَّ الخوف في قلوبهم... فقال ولده:

_ هل حدث مكروه لأمنّا؟ لم ينتظر سامي حتى يجيب على تساؤلات الأولاد... لأنّه أصلاً لا يعلم لماذا يطلبونه لكنّه خرج من البيت مسرعاً يحادث نفسه ويقول:

_ تركت صباح والدتها عندها... لماذا لم تتصل هي بنا؟ قاد سيارته بسرعة جنونية... ودقات قلبه تتسارع كلما اقترب من المشفى... وعند وصوله قال الطبيب له:

_ زوجتك أصيبت بنزيف طفيف في الدماغ بسبب صدمة نفسية أو مفاجأة مفرعة فقط... جميع صور الأشعة والطبقي محوري أثبتت وجود خثرة ضئيلة في الدماغ سببت لها تلك الحالة.

الحقيقة كان وصولها إلى المشفى متأخراً قليلاً... لكن يبدو أن طريقة حملها ونقلها إلى المشفى حماها من تفاقم الإصابة... كان يستمع إلى تقرير الطبيب وهو ينظر إلى ابنته مها... وكأن تقاسيم وجهه تبدي الشكر والامتنان على حسن تصرفها.

تابع الطبيب كلامه قائلاً:

_ المصابة بحاجة إلى عملية صغيرة في الدماغ، ولا بد من توقيعك على تعهد بالقبول لإجراء العملية.

لم يناقش سامي الأمر بل دخل إلى مكتب الإدارة، وقام بالتوقيع على التعهد المطلوب الذي يسمح بإجراء العملية ويخلي المسؤولية عن المشفى وفريق الأطباء الذي سيجري

العملية، أخذ سامي يستفسر من الطبيب عن مدى نجاح العملية، والطبيب يرد على استفساراته:

_ العملية تستغرق ساعة أو ربما أكثر... لأن سماكة الدم النازف كبيرة بالنسبة لضعف سماكة العظم حسب الأشعة، وبحاجة إلى فتح جمجمة المريضة بمساحة ما بين ١٦سم^٢ وعشرين سم^٢ وطبعاً حسب ما يراه الطبيب الجراح، وحاجة المريضة من أجل سحب الدماء التي نرفت... حتى يطمئن على نجاتها... إذا أردت تابع معي الجراحة على الشاشة في المكتب هنا... بعض العمليات هنا تصور وتنقل على شبكة المشفى لتدريب الأطباء الجدد من غرفهم... انظر... الحمد لله الآن كما يقول د. الجراح للفريق:

_ النزف متوقف واحتمال نجاح العملية كبير جداً، وربما تنجو وتعود كما كانت... والسبب إسعافكم المصابة ضمن حدود الوقت المناسب، وهو أقل من ست ساعات شريطة انقطاع النزيف في الجمجمة) ... ((للعلم المعلومات الطبية منقولة بدقة)).

أضاف الطبيب... لكن هناك احتمال وارد أيضاً... في حال نجاح العملية ونجاتها، ربما تصاب بإعاقة ما... جسدية أو حسية... المهم لتوكل على الله فقط.

خرج سامي من غرفة الطبيب، وجلس على مقعد قرب ابنته، والدموع تترقق في عينيه خوفاً على زوجته وعلى ابنته التي كانت لديها الصورة الكاملة عن حالة والدتها، لقد علمت من الطبيب بها قبل وصول والدها... بينما صباح والدة سماح تجلس قبالتهم، وتفرك كفاً بكفٍ والدموع لا تفارق عينيها، تبتهل إلى الله أن ينقذ ابنتها من الموت.

لفت أنظار سامي شاباً مضطرباً جداً كان يروح جيئةً وذهاباً من أمامهما، ويسرق نظرات خاطفة نحو ابنته مها، لكنه لم يبال بالأمر لانشغاله بالتفكير بما قد يحدث لزوجته في حال فشلت العملية... لأي سبب كعودة الزيف أو أية مضاعفات أخرى... طال الأمر... طلب سامي من مها ابنته أن تتصل بالبيت كي يرسلوا السائق وتعود معه إلى البيت لترتاح. لكنها رفضت قائلة:

_ لن أترشح من هنا حتى آخذ أمي معي.

_ لا يا بنتي على الأقل خذي جدتك معك إلى البيت كي ترتاح، فهي امرأة كبيرة في السن، ومن الصعب عليها البقاء جالسة على الكرسي... وما يريد الله فلا يد لنا بتغييره.

_ خذ جدتي أنت... أنا لن أتحرك دون أمي.
_ أمري لله، ثم نهض منادياً صباح (حماته) كي تعود معه لترتاح في البيت، لكنها اعترضت بدورها قائلة:
_ دعنا ننتظر ما سيقدره الله لابنتي من أمر كان مفعولاً.
ثم وجه كلامه لابنته:

_ أخبريني يا بنتي عن أي تطورات جديدة تحدث مع أمك هنا، لكنه تراجع وقال:

_ بل سأنتظر معكم حتى أطمئن عن نتيجة العملية... ثم عاد وجلس على المقعد.

لم تمض لحظات حتى خرج الطبيب والبشاشة تعلو وجهه قائلاً وهو يرفع الكمامة عن فمه:

_ بحمد الله لقد نجحت العملية والباقي على الله، ولكن لا زيارة اليوم إطلاقاً... ربما غداً نسمح بزيارة المريضة... عودوا إلى بيتكم وسنعلمكم بكل طارئ... رفض طلب

سامي وتوسلات البنت مها برؤية والدتها ورجاء صباح أم
سماح قائلاً إلى مها:

_ أنت متدربة في المهنة نفسها، ولا تجهلين خطوة
الزيارة في مثل حالة والدتك، من نقل بكثريا أو عدوى
أو حُماتٍ راشحة... فجلست صامتة ولم تجبه.

عاد الأب وابنته وبقيت نظرات الشاب تلاحقهما حتى
تواريا عن أنظاره... لاحظت مها محاولاته للتقرب منها،
لكنها لم تُعر الأمر اهتماماً شديداً في البداية، فهي في
شغل شاغل عنه حتى أن والدها لاحظ ذلك الاهتمام،
حين كان الشاب لا ينفك عن النظر إليهما... سألها حين
ركب السيارة وغادرا المشفى:

_ هل تعرفين ذلك الشاب الذي كان في الممر؟ وأخبرها
عما كان لاحظ عليه من تصرفات غير خافية على أحد...
قالت:

_ كلا لم يسبق أن رأيته من قبل، ولكن ربما كان هو
يعرفني أو أنه من طلاب مدرستي نفسها سابقاً.

في البيت أرادوا الاستفهام عما حدث للأم... وعن
الأسباب التي أدت إلى إصابتها، خاصة بعد أن أخبرهم

أحد أولاده بقصة باقة الورد المرمية قرب الباب، والسيارة الحمراء التي كانت متوقفة أمام البوابة...
جلسوا جميعاً على طاولة العشاء... وأخذ الصمت والوجوم
يخيم عليهم... قطع الصمت صوت رنين جرس الهاتف
فقال سامي متكاسلاً:

_ ليرد أحدكم على الهاتف ودعوني جالساً... لقد تعبت
من الوقوف، فمنذ الصباح أقف على قدمي... عندها قامت
أمانة ترد عليه.

_ أبي الاتصال من أحدهم يسأل عنك.
ما أن رفع سماعة الهاتف حتى نظر إلى أولاده وجدّتهم
التي جاءت معهم وقال:

_ المتكلم الطبيب المناوب... كلفته بالسؤال عن أمكم
أولاً بأول، وأن يطمئننا تبعاً عن حالتها الصحية. تدافع
الجميع للوصول إلى سماعة الهاتف في سباق محموم لمعرفة
مصير أهمهم... أخيراً خطفت السماعة أمانة لتتركها
لأختها بعد أن انتزعتها من يدها بالقوة وهي تزغرد وتقول
مبشرة:

_ استفاقت أمنا وهي تسأل عنا الآن.

نظرت حولها فوجدت أباهما قد أصبح قريباً من الباب وكان يهم بالخروج، حاولت أن تتبعه إلا أن أختها مها رمت السماعه وسبقتها راكضة كي تلحق بوالدها.

يبدو أن البنت مها كان لها هدفان من ذهابها إلى المشفى... الأول الاطمئنان عن أمها ثم رؤية الشاب الذي كان يهتم بها في المشفى بالأمس، ودغدغ عواطفها، ولا تعرف هدفه بدقة حتى الآن حين كان يلاحقها بنظراته الحاملة كما بدا لها.

سمح الطبيب لهم برؤية سماح... لفترة قصيرة جداً، وشريطة ألا يكلمها أحد ولكن المفاجأة كانت كبيرة لهم بوجود طاقة وردٍ كبيرة جميلة وضعت قربها دون اسم المرسل، كتب فقط على البطاقة المعلقة فيها التمنيات لها بالسلامة!

هذه الطاقة أثارت شكوك السيد سامي بأن يكون المرسل شخصاً ما له صلة بزوجته لا يريد أن يعرفه أحداً! قال في نفسه:

_ لو كان المرسل شخصاً نعرفه، فلماذا يخفي اسمه... أما ابنته مها... توقعت أن يكون المرسل الشاب نفسه الذي

كان يطاردها بنظراته في الممر، لم يتضح لأحد أي تفسير لهذا الأمر فترك للظروف.

صباح اليوم التالي ذهب كل إلى عمله... مها إلى معيها والأولاد إلى مدارسهم وأمينه إلى البحث عن شركة لتعمل فيها، والسيد سامي إلى مكتبه... جلس سامي خلف مكتبه ويده ملف البريد اليومي، وفكره يتنقل بين زوجته المريضة وهل ستعود إلى حالتها الطبيعية، أم أنها ستخرج بنوع من الإعاقة؟ ثم من هو الإنسان الذي تسبب بسقوطها وإغمائها... ومن الذي أرسل طاقة الورد لها في المشفى؟ ولماذا أخفى اسمه؟ ومن الذي رمى طاقة الورد أمام باب البيت... أسئلة عجز عن إيجاد تفسير لها، وهو الضابط المختص المتألق والخبير بتلك الأمور.

الفصل السابع

طريق السعادة

صباح اليوم التالي... قاربت الساعة الثامنة صباحاً...
اقترب موعد ذهاب الأب إلى مكتبه في دائرة الأمن
المركزي مكان عمله.

ومن المفروض أن يصطحب بعض أولاده لإيصالهم إلى
مدرستهم القريبة من مقر عمله.

رفعت أمينة صينية القهوة وصحف الصباح التي كان قبل
قليل يقرأها... لفت نظرها إعلان لشركة تطلب
سكرتيرة... وقعت عليه عيناها في الصفحة الأخيرة...
وبما أنها هي خريجة المعهد نفسه وتبحث عن وظيفة،
وكان والدها قد انتهى من ارتداء ثيابه الرسمية، وهي تضع
لمساتها الأخيرة على أناقته... فجأة صاحت أمينة تنبهه
وتقول:

انتظري يا والدي... ثم رمت الصحيفة أمامه على الطاولة،
وأشارت إلى الإعلان وهي تقول والسرور بادٍ على وجهها
وقالت:

انتظرنى سأذهب معك... نظر الوالد إلى ساعته وقد بدا الضيق على ملامحه، وأخذ يقرأ الإعلان بصوتٍ مسموع وهي تستمع إليه... وجدها فرصة حقيقية لابنته فقال: هل تعتقدين أنَّ هذه الوظيفة تنتظر أمينة؟ إنَّ آخر موعد للمقابلة هو هذا اليوم... وسيكون قد تقدم لتلك الوظيفة العشرات بل المئات من الفتيات... ردت بلطف:

إذا قدر الله نصيباً فربما يقبلونني فيها، وربما حالفتي الحظ... انتظرها قليلاً... نظر إلى ساعته من جديد وقال: لم يعد معي وقت كافٍ... الساعة الثامنة إلا خمس دقائق... في تلك اللحظة خرجت أمينة مسرعة تمسك بيد والدها بدلال وهي تقول:

_ انتهيت... ثم سحبته من يده وسارت أمامه وهي تكاد أن تجره جراً: هيا... هيا يا أبتى... حلمي أن أجد وظيفة تريخني وتشغل وقتي... لقد مللت الجلوس في البيت وانتظار الوظيفة...

أكملت أختها ضاحكة: أو العريس... فقالت أمينة: إن جاء لن أطرده... من أجل أن تفرحوا بي.

كان سائق السيارة ينتظر أمام الفيلا المتواضعة ككل يوم في الصباح في مثل هذا الوقت، قال سامي للسائق مسعود:

_ هيا بنا... هيا، حاول أن تسرع قليلاً... ثم نظر إلى ابنته متسائلاً... سنوصلك أنت أولاً... فقالت: مازال لدي متسع من الوقت... إنه في التاسعة، أجابها منزعجاً:

_ إذاً لماذا أخرت الجميع إذاً... كان السائق مسعود يستطيع أن يعود إليك ويصحبك! ردت عليه بدلالٍ قائلةً:

_ لكي أستفيد من بركاتك يا والدي... أنت الخير والبركة يا أبتي... ثم ربما كان هناك تسجيل أسماء أو دور... عندها لا بد لي من الحضور مبكراً كي آخذ دوراً... ادع لي يا والدي...

نزل الضابط سامي أمام مركز عمله، وكانت أمينة آخر من وصل إلى غايته في الشركة التي جاءت من أجل الحصول على وظيفة فيها... سألها مسعود:

_ هل أنتظر في السيارة؟

_ ربما أتاخر... اذهب أنت فلا علم لي متى أنتهي... نظرت إلى اللوحة الكبيرة التي كتب عليها اسم الشركة وقرأت ما كتب عليها وقلبها مفعم بالأمل أن يتم قبولها فيها... الشركة الأهلية للألبسة الجاهزة.

اصطفت خلف المتدمات... كانت الفتيات المتدمات بالعثرات... الجميع يقفن في طابورٍ واحدٍ وكل فتاة تحمل بيدها ملفها الخاص الذي يحوي شهادتها وأوراقها... فطنت إلى شيء وقالت متأسفة:

_ يا الله لقد نسيت من عجلتي الأوراق المطلوبة... حتى أنني لم أقرأ في الصحيفة ماذا يطلبون من شروط وأوراق للتقدم لهذه الوظيفة... أخذت تحدث نفسها:

_ إن رجعت إلى البيت لجليها... لن أعود قبل أن يكونوا قد اختاروا واحدة... لكنني سأخذ دوري وأجرب حظي... لدي القدرة على أن أجيب على أسئلتهم ثم أستكمل طلباتهم في اليوم التالي... هذا إذا وافقوا... وقفت في الطابور... بعد قليل اقترب رجل كبير في السن، تبدو الطيبة الشديدة في قسماته يحمل في يده ورقة، وهي عبارة عن جدول يسجل فيه أسماء المتدمات لهذه الوظيفة... عندها ترددت قليلاً، واحتارت فيما ستفعل، هل تنسحب وتعود إلى البيت؟ هل تبقى وهي التي لا تحمل أية أوراق؟ وخلال هذا التردد وصل الرجل والذي أسمته في سرها الرجل الطيب... سألها عن اسمها فقالت:

اسمي أمينة سامي... ولكن يا والدي نسيت كل أوراقى
حيث لم أقرأ الإعلان جيداً... وكان قد بدأ يسجل اسمها،
فقال لها:

_ يا بنتى ماذا جئتِ تفعلين هنا؟ إن من يدخل إلى مطعم،
يجب عليه أن يتحسس جيوبه قبل الدخول ويتأكد إن
كان يحمل ما يكفي من النقود... رفع القلم حيث كان
يريد شطب الاسم الذي كان قد بدأ بتسجيله... لكنه تردد
قليلاً وهو ينظر إلى عينيها التي اغرورقت بالدموع.

رفع قلمه قائلاً... لن أضيع عليك الفرصة... وإن كان
الأمل قليلاً فيها... هذا إذا لم يكن مستحيلًا... ها أنتِ
ترين هنا أكثر من عشرين متسابقة على وظيفة واحدة.

لكن سأخدمك بطريقة معقولة... أرجو أن آخذ جزائى
من الله سبحانه، سأترك اسمك على القائمة ولن أشطبه
وكما اقترب دورك سأنقله إلى الخلف... ثم قال بصوت
مرتفع تسمعه المتقدمات... اذهبي واحضري بقية
أوراقك... دورك محفوظ حتى نهاية المتقدمات... هيا
بسرعة ولا تتأخري.

خرجت من المبنى لتبحث عن سيارة أجرة... أخذت تنظر
يميناً ويساراً، لكنها تفاجأت بوجود سائقهم مسعود ما زال

أمام المبنى يتحدث مع رجلٍ يبدو أنه تعرف عليه... كان ذلك لحسن حظها فقالت:

_ أحمذك يا رب على فضلك... اذهب بي يا مسعود إلى المنزل... لقد احتجت بعض الأوراق... وصعدت إلى السيارة وهو يقول لها:

سبحان الله كعادتك، النسيان في الأوقات الحرجة... هذه ليست المرة الأولى، هيا اتصلي بأهلك كي تجهز لك الأوراق قبل وصولنا... أجابته ساخرة على سبيل المزاح:

_ حقا أمي ستأتي من المشفى وتدخل غرفتي من النافذة هيّا... هيّا أسرع... الغرفة مقفلة ولا أحد في البيت. أما الرجل المسؤول عن الدور فهو لم يكذب خبراً... ذلك الرجل الطيب فكان كلما نادى على اسم... ينادي باسمها... ثم ينادي الاسم التالي، كيلا يقع في مشكلة مع بقية المتقدمات.

أخيراً وصلت ولم يبقَ منهن سوى عدد قليل جداً... نادى على اسمها... فأجابه من باب الصالة لدى دخولها في اللحظة نفسها، وقال لها دورك الآن:

إلا أن الفتيات المتبقيات امتعضن ورفضن إدخالها... لذلك وقفت في آخر الطابور وأخذت تسأله:

_ إذا بقيت حتى نهاية الطابور هل ستدخلني؟
اقترب منها يتمتم... يا بنتي سأدخلك طبعاً... لكن الأمل
ضعيف جداً، وكما ترين عدد المتقدّمات كبير جداً، ومع
هذا لا تيأسي يا بنتي... ردت شاكرة ومتسائلة:

_ لكن يا والدي هل صاحب هذه الشركة رجل شريف
يؤتمن له بأخلاقه ويدفع الرواتب في مواعييدها؟ فأجابها:

_ يا بنتي هذا يعود لنفسية الإنسان الذي يعمل عنده... لم
أسمع بأنّه اعتدى على أحد... ولم يشكّ أحد من أنّه لا
يدفع رواتب الموظفين في مواعييدها المحددة... هي شركة
جديدة افتتحها صاحبها منذ سنوات، وهي كبيرة جداً...
لقد استقالت السكرتيرة السابقة ولا أعلم السبب...
لكنني لم أسمع أنّها شكت من معاملته... هيا... هيا، جاء
دورك الآن ولم يبق سواك لعل وعسى!!

قالت وهي تسير بخطوات ثابتة نحو باب الإدارة:

_ لا تخف يا والدي سيقبل الله دعوات والديّ، ودعواتك
ادعُ لي... تمنى لها الرجل التوفيق... وقال في نفسه متسائلاً:
_ وهل تلك الفتيات أغضبن أهلهن إن لم يُقبلن؟ ثم هزّ
رأسه قائلاً... إن كل الأهل يلهجون بالدعاء لأولادهم
ويتمنون لهم التوفيق... دخلت سماح لمقابلة اللجنة...

اعتمدت على الجرأة والشجاعة... أجابت على أسألتهم بدقة وثقة... لم تكن شخصيتها الأجل... لكنها على الأقل إحدى الجميلات... ما إن همت بالقيام للخروج بعد نهاية لقاء اللجنة، حتى فُتح باب المدير.

كان لا بد من مرور المتسابقات واحدة... واحدة من مكتبه حتى يرى كل متقدمة منهن... نظر إليها متأملاً قوامها ثم سألها عن اسمها... وأسئلة أخرى حول شهادتها، ثم سأل عن اسم أبيها... فكانت ترد عليه بثقة شديدة:

اسمي أمينة... سامي... اسم أبي... اسم أمي سماح... فغير فاهه وهو يسمع تلك الأسماء خاصة الاسم الأخير... سماح... انتفض بحركة لا إرادية ثم تقلصت عضلات وجهه، وبدأ على وجهه وكأنه تذكر شيئاً ما أزعجه، حتى أنها فزعت منه لكن هدأت عندما قال:

_ اجلسي... اجلسي... جلست وقد داخلها بعض الخوف لكنها حافظت على رباطة جأشها... فأخذ يسألها أسئلة دقيقة جداً عن أسرتها، وأكثر من تلك الأسئلة... حتى شعر بأنّها ملّت وانزعجت فقال:

دعي رقم هاتفك في الاستقبال ونحن سنتصل بك...
خرجت من مكتبه وهي بين الشك واليقين من أن تحوز
على تلك الوظيفة.

أما المدير فقد كان في حيرة من أمره... وضع رأسه بين
يديه ثم أخذ يتحدث بصوتٍ مسموعٍ تشوبه الدهشة
والانفعال: سماح... سامي... يا إلهي كيف اجتمعت تلك
الأسماء معاً عند هذه الفتاة؟! هل تكون سماح هي تلك
الفتاة التي... لكنه لم يجرؤ على إتمام تفكيره بضحيته، التي
هرب على إثرها من بلده قبل زمن... وهل سامي هو نفسه
رفيقي سابقاً وأحد أفراد الشلة التي كنا نسهر معاً في شقة
محمود؟! ثم أخذ يستعيد ذلك الموقف المشين.

الفصل الثامن

عودة الطاعوت

أخذ يتساءل ويستغرب هذه الظروف ويبتهل إلى ربه ألا يكون ما أقلقه حقيقة، لكنّه أردف:

_ لكن ما الذي حدث لسماح بعد تلك الحادثة... لعلّها انتحرت؟ ولكن لماذا هربت أنا قبل أن أصلح غلطي؟ لماذا فعلت ذلك؟ ثم أخذ يتصور الحادثة وهو يعرض شفته ندماً، ويهز رأسه في محاولة لطرد تلك الذكرى المزعجة من عقله ويتمتم:

_ أدخلتها لتجفف ثيابها وليس في نيتي أن أعتدي عليها... لكن بعد أن خلعت ثيابها الخارجية، المبتلة بالماء في محاولة لتجفيفها من مياه الأمطار... أغراني الشيطان القذر حتى وصلت إلى مبتغاي، لم تفد مقاومتها الشرسة... لقد كنت فاقداً للوعي تلك الساعة بسبب الخمر... لكن يا إلهي أذكر أنني عدت لأصلح غلطي وأعدها بالزواج... لكن لم أشاهد أية آثار لجريمتي!!

ثم يتجه تفكيره إلى منحى آخر... ترى هل تزوجت؟ هل اكتشف أمرها وذبحت... والأهم هل اعترفت أمام أحد بما وقع؟ وبالذات أهلها هل اكتشفوا دناءتي؟ بل قلة أمانتي

لقريبتى!! يا ... الله كيف ولماذا عادت الآن تلك الذكرى
بهذه القوة؟!!

ثم أخذ تفكيره يتجه نحو التعاطف معها ومع مستقبلها...
هل خرجت من ذلك المكان؟ ومع من... لقد وجدت
كراسة تخص سامي وقتها، هل هو من تزوجته وكيف؟ أنا
أعرفه في قريتنا من قبل، ولم يكن معي في الجامعة... كان
أصغر مني سنًا وكنا نسهر معاً في شقة محمود... كان حين
ذاك يأخذ مصروفه من أهله... وما زال غير منتج وإن كان
أهله مستوري الحال تقريباً... وماذا كان رده إن كان هو
من اكتشف ما حدث؟ ربما لم تخبره بما حدث... ولكن
من الذي أتى بتلك الفتاة إلى هنا؟ إنه جزاء من ربي
ويريدني ألا أنسى تلك الذكرى... جريمة تأبى حيوانات
الغاب أن تقبل بها... حادثة مضى عليها أكثر من عقدين
من الزمن.

خلال تلك الأعوام حمل هشام من الندم والأسف ما أثقل
كاهله... أما اليوم بعد أن أيقظ دخول الفتاة إلى الشركة
الأفكار القديمة في مخيلته... وأعادت لذاكرته ماضيه
الأسود... اهتز كيانه... لكنه أحس ببعض الراحة حين

أقنع نفسه أن الأمر قد لا يعدو تشابه أسماء... ومع ذلك لم يخرج الخوف من داخله.

أمسك بعض الملفات التي تخص المتقدمات على الوظيفة، وقراً جدول تقديراتهم واقتراح لجنة التقييم التي عملت على اختبارهن... ثم نظر إلى تقدير اللجنة للفتاة الأخيرة... أمينة سامي... وجد أن تقديرها ليس الأفضل بسبب مؤهلاتها المتواضعة بالنسبة لبقية المتقدمات، ومع هذا رغب في توظيفها... وليطمئن قلبه طلب من اللجنة الاتصال بالفتاة كي تلتحق بالوظيفة بعد أيام، إلا أن مسؤول اللجنة قال له منبهاً:

_ أعتقد بأنّها من بين عشرات المتقدمات نالت المرتبة السابعة.

_ نعم لكن من خلال التدريب والممارسة ستتحسن.

_ لماذا؟ ولدينا متفوقتان أولى... وثانية.

_ نعم ... لكن المتفوقة ستسيطر علينا بخبرتها العالية، بينما هذه نحن من سيفرض سلطته عليها... في هذه الحالة نحن من دربناها، ونحن من أوصلناها.

_ كما تشاء... وخرج وهو يزّم شفّيته دليل عدم قناعته بكلامه... دون أن يجعله يراه.

_ انتبه يجب أن يكون التعامل معها بلطف ودون حساسية... والدها ضابط أمن كبير حسب قولها... وقد يفيدنا في بعض الأمور الحساسة التي تتعرض لها الشركة.
_ آسف يا سيدي... فهمت سبب قبولها وفعالاً... ربما يكون لوجهة نظرك فائدة لم أنتبه لها.

فتح ملفها وأمسك قلماً وبدأ يعمل حسابات عمرية ليتأكد من عمر أمها سماح، لعلها ليست هي نفسها التي اعتدى عليها وأخذ يتمتم:

_ عمري حينذاك ثلاثة وعشرون عاماً، وعمر والدها شريف بعمر سماح، وقد أكد له ذلك ما وجدته في ملفها.
فأخذ يسجل: أذكر عندما تزوج شريف الفتاة صباح كان عمري آنذاك ليس أكثر من خمسة أعوام، وولدت سماح في ذلك الوقت... لكنه لم يخرج بنتيجة حاسمة فترك الأمر للظروف.

وهكذا كسبت أمانة وظيفة في شركة مرموقة، دون أن تدري أو تحلم أنها ستكون هي التي تم اختيارها، ربما تكفيراً عما عانتها والدتها من هذا الرجل قديماً، وإن كانت الفتاة لا تدري به! عادت إلى البيت ترقص فرحاً.
_ ماذا يا أمانة هل تقدمت إلى المقابلة؟

- _ نعم يا أبتى... لكنه أمل إبليس بالجنة.
- _ أف... لماذا هذا التشاؤم؟
- _ أتريد الحقيقة يا والدي... ثم سكتت وأكملت وهي تضحك... كنتم تكذبون علي.
- أجابها وهو يضحك أيضاً وقد فهم غايتها:
- _ كيف يا بنتي؟ لكل إنسان جماله... وكل فرد يختلف حضوره عن الآخر.
- _ ذكي أنت يا والدي... فهمت أنا الآن لماذا اختاروك في هذه الوظيفة الحساسة!
- _ المهم ما الذي تريدين قوله؟
- _ لو كنت صاحبة دار لعرض الأزياء... لاخترت نصفهن ليعملن كعارضات أزياء فيها... ضعت بين جمالهن وثقافتهن، فهن بين جامعية وماجستير... ولا أعتقد أن ترتبي سيكون أكثر من العاشرة بينهن... أنا خريجة معهد متوسط سكرتاريا.
- لحظات وإذا بالتلفون يرن وترفع السماعة... والمتكلم على الطرف الآخر:
- _ منزل أمينة السيد سامي؟
- _ هو نعم تفضل.

_ هل من الممكن أن أتكلم مع الأنسة أمينة.

_ نعم... تعالي يا أمينة.

_ مبارك... لقد تم قبولك في الوظيفة... من الممكن أن

تباشري عملك بالوظيفة غداً... ثم تستكملي أوراقك فيما

بعد.

_ يا إلهي بهذه السرعة النتيجة!! بالأمس فقط كانت

المقابلة؟؟!!

_ وما المانع؟ حاجة الشركة أهم من الشكليات، فنحن

بحاجة لسكرتيرة للعمل فوراً... وأنت نجحت في الامتحان

وهذا يكفي... ستخضعين لدورة تدريبية أثناء العمل...

ثم أغلق الخط.

_ أبي... أبي ثم انخرطت في البكاء، والضحك في آن واحد

لقد فزت... لقد فزت بالوظيفة... أنت ساحر يا أبي كم

أنت محق في حدسك يا أبي!

الفصل التاسع

التقاء النقيضين

في الصباح جهزت أمينة نفسها للالتحاق بالوظيفة، وطلبت من والدها أن يذهب معها ليعرف المكان ويتعرف على صاحب عملها... رافق سامي ابنته إلى مكان عملها الجديد... وقرر أن يدخل معها كي يتعرف على صاحب العمل... قرع الباب... فتح المدير بنفسه... تلاقت الوجوه... صاح والدها مذهولاً:

_ من هشام؟!!

_ عجباً سامي؟!!

بعد أن ذهب وقع المفاجأة التي لم تكن تخطر على بال سامي، بينما كان هشام يتوقع ذلك، كان لقاء وصدفة لم يُحسب لها أي حساب من قبل.

مضت دقائق صمت ودون أن ينبس أحد منهما ببنت شفة، إلا أن نظراتهما المتسائلة كانت توحى لكل منهما بغضبٍ مكتوم... قطع الصمت وبدأ الحديث الضابط سامي:

_ من كان يظن بأننا سنلتقي يوماً يا سيد هشام؟!!

_ حقاً جبل إلى جبل لا يلتقيان... لكن إنساناً إلى إنسان يلتقيان... عجباً لهذه المصادفة... وتقدم نحوه مرحباً وفي النهاية كانت الأحضان تجمعهما... كان التعبير عن الشوق والمحبة بينهما مصطنعاً إلى أبعد الحدود!

وهو ما فرضته عليهما المصلحة الآن فقط.

سامي فُرض عليه الأمر بمصلحة ابنته... وهشام طبعاً لا يريد أن تنكشف فضيحته أمام الناس، لأن شركته وسمعته في المنطقة لا غبار عليها. بدأ هشام بالحديث مرحباً:

_ يا لهذه الصدفة الجميلة السعيدة... أين أنت خلال تلك السنين الماضية؟ ما شاء الله اليوم أنت ضابط كبير... لم أرك منذ تركت أنا المدرسة وسافرت ومن المؤكد أنك تابعت الدراسة... ثم نادى الحاجب طالباً قهوة لثلاثة أشخاص، ثم سأل متابعاً حديثه:

_ أليست هذه الحسنة ابتك؟ أكيد الجميل لا ينجب سوى الجميلات.

_ نعم... وقد علمت أنها قبلت في شركتكم... وجئت معها لأتشرف بمعرفة الرجل الذي ستعمل عنده ولم أعلم

أنك أنت... أتمنى أن تنال رضاكم وأن تحفظوا الأمانة...
كان يرمي إلى ماضيه البعيد مع والدتها.

_ نعم هي في عيوننا... فازت بمؤهلاتها العقلية وجراتها
وشهادة اللجنة، لهذا السبب منحتها فرصة العمل في
شركتنا وكانت إحدى الجميلات اللبقات، وأثبتت بأنها
إحدى المؤهلات... ويبدو أن حظي السعيد شرفني
بمقابلة الصديق القديم سامي ابن قريتي... أشكر الحظ
الجيد الذي أوحى لي بقبولها في قسم الإدارة في شركتي.

_ أشكرك على كلماتك اللطيفة، كما أشكر هذه المصادفة
التي جمعتنا أيضاً.

نظر هشام صاحب الشركة إلى الفتاة التي تجلس على
الكرسي مشدوهة تستغرب هذه الحفاوة المبالغ فيها،
وتساءلت في نفسها:

_ حين سألتني صاحب الشركة وعرف اسم أبي شعرت بأنه
سيوافق على قبولي، علماً أنني لم أتوقع ذلك بسبب الخبرة
التي لا أملكها كغيري من المتقدمات، ولكن ربما
بسبب صداقة قديمة تربطهما... نظر هشام إليها قائلاً:

_ هيا يا بنتي اذهبي إلى الغرفة المجاورة استلمي عملك...
مكتبك هناك وستصل قهوتك إليك بعد قليل... ثم نادى
بصوتٍ مرتفعٍ نوعاً ما إلى مساعده:

_ حاضر... كلمة أجابته من باب الغرفة المفتوحة من قبل
أحد الموظفين.

_ سلم الآنسة أمينة مهامها، وشرح لها اختصاصاتها
والعمل المطلوب منها... أمينة هي السكرتيرة الجديدة
هنا، وستعمل مكان السكرتيرة السابقة... ذهبت أمينة إلى
مكتبها والسعادة لا تسعها لحصولها على هذه الوظيفة غير
المتوقعة.

تابع هشام وسامي الحديث والحوار بينهما... وكما عرفنا
كان كل منهما يحمل ضغينة على الآخر، ولا شك أن
القارئ تابع القصة وعرف الأسباب... خاصة وأنَّ سامي
هو من يعرف القصة بحذافيرها... ويبحث عنه منذ
سنوات... ومع هذا لم يظهر له شيئاً مما ينوي، وبدأ سامي
الحديث:

_ أشكرك يا هشام على قبول ابنتي في هذه الوظيفة،
ولكن أين اختفيت أنت طيلة السنوات الماضية؟

أذكر أنك تركت الجامعة قبل نهاية الفصل الدراسي... ثم ما شاء الله هذه البجوحة الظاهرة عليك؟ اللهم لا حسد... وأنا أعلم بأن والدك كان متوسط الحال يعيش من دخل ليس كبيراً جداً، وقد علمت أنه فيما بعد توفي وعشتم في كنف الوالدة... أليست أمك صفية التي كانت زوجة أيوب؟

_ نعم... لكنني حين أعدت حساباتي بمستقبلي عندما كنت في الجامعة، بدا لي أنني سأعيش حياتي من وظيفة متواضعة لأكرر مسيرة الكثيرين، ومن بينهم والدي الذي ترك الوظيفة وعمل في مهنة أخرى هي صناعة الديكور... لذلك هاجرت إلى دول الخليج للعمل، كافحت وغامرت... ها أنا كما ترى صاحب أكبر شركة ألبسة... هل زرت صالات البيع العديدة التابعة لشركتنا في هذه المدينة؟ إن لم تزرها بعد لن تتوه عنها... ستجد إحداها في الشارع الخلفي، حيث لدينا أكثر من عشرة فروع في المدينة ومئات الموظفين وليس لدي مصانع، ولكن مصانع البلد الكبرى... تصنع لشركتي ما أطلب... طمئني عن وضعك أنت... ماذا عملت؟ أراك في المدينة نفسها التي أعمل بها! ترى أي حظ سعيد رماك فيها ليجعلنا نلتقي؟ أما أنا فقد

ألهاني طلب الثروة حتى الآن عن الزواج... أما أنت ما شاء الله... أسرة وأولاد ووظيفة محترمة ورتبة عالية... أيضاً كما تفضلت وقلت اللهم لا حسد.

رد عليه سامي:

_ حصلت على الثانوية وتزوجت قبلها بأشهر من فتاة من المؤكد أنك تعرفها... وكان يلح لزوجته سماح والحادثة المعروفة... لكنني عجلت بالزواج خشية أن تخرج من يدي... بعد أن علمنا بفسخك للخطبة منها ثم قبلت في كلية الشرطة وتخرجت برتبة ملازم، ثم تابعت دراستي من خلال وظيفتي، وأصبحت أترفع في الرتب وكذلك أترفع في الجامعة... حتى حصلت على إجازة في الحقوق... اليوم أنا رئيس قسم في المباحث برتبة رائد، ودخلي يكفيني والحمد لله... وترك والدي لنا أيضاً ثروة صغيرة جداً... لكنها بركة أعتر به وبها... كان الاثنان يتحدثان بهدوء ولكن في عقل كل منهما حديث آخر... سامي كان يقول في نفسه:

_ أيها المجرم سأضعك في السجن يوماً ولن تنجو بجريمتك القذرة... أيها الجبان المخادع لن أدعها تمر دون عقاب.

أما هشام فكان يلوم نفسه قائلاً:

_ مالي أنا ولهذه الورطة... ليتني لم أقبل هذه الفتاة عندي لما عشت هذا الخوف... ثم يغالب خوفه قائلاً:

_ لكن هكذا أفضل سأضمن حريتي وأعرف ماهي نواياهم مسبقاً... خاصة إذا استطعت الزواج من الفتاة... حينها ستتناسى الأمور تماماً... ولكن هل يعلم سامي بما حدث؟ من المؤكد كما يبدو لي أن سماح زوجته... نفسها سماح زميلتي التي حدثت معي بسببها تلك المعاناة والخوف الذي يلزمني منذ حوالي الربع قرن؟!!

انتهيا من شرب القهوة... ودع سامي هشام ثم دخل إلى حيث تعمل ابنته مودعاً لها ثم قال:

_ انتظريني هنا في نهاية الدوام، سأمر عليك أو ربما أرسل لك السائق مسعود... المهم لا تركبي مع أحد ولا تعودي وحدك، ثم خرج... لم يتعد تفكيره في الطريقة التي سينتقم فيها لجريمتة بالاعتداء على سماح زوجته حالياً، لكنه لم يطمئن إلى نوايا هذا الرجل... خاصة على ابنته عندما رأى اهتمامه الزائد بها، ونظراته المحدقة فيها.

خرج سامي من مكتب أمينة، ودخل هشام بعد قليل إلى مكتبها، محاولاً إظهار الاهتمام الزائد لوجودها في الشركة

وضرورة عملها عنده... وربما لغاية في نفس يعقوب بدأ
يكثّر من التودد إليها.

انتهى الدوام... عرض إيصالها إلى بيتها، لكنها رفضت
بلطف زائد قائلة:

_ أشكرك... لقد طلب والدي مني أن أنتظره لأنه سيمر
ويأخذني أو ربما يرسل السائق مسعود.

خرج هشام من الشركة والهّم يكاد أن يصصره، وهو
يفكر ويتساءل... كيف تزوج سامي (سماح)؟

ترى هل أخبرته بما جرى؟ هل حدثته بما حصل بيننا؟
لا بد أنه اكتشف وضعها، ثم عاد وقال:

_ لماذا أستاذ الأمور... ربما تكون غير ما أتصور، ثم
حتى ولو كانت أخبرته... ما الذي سيتغير اليوم؟ فهما لا
يمكن أن ينبشا الماضي، والقضية قانوناً سقطت بالتقادم
وليس وراءها سوى الفضائح لهما وستطال الأسرة
بالكامل.

التم شمل الأسرة على مائدة الغداء... سأل سامي ابنته عن
الوظيفة الجديدة ومدى ملاءمتها لها... أظهرت الارتياح
والفرحة، لكنها لم تخبره بمحاولات التودد التي يقوم بها
هشام نحوها.

مرت أسابيع وتالت حتى جاء يوم عيد ميلاد أمينة.
أقام لها والداها حفلة مصغرة لم يدعُ إليها أحداً، لكنه
أهدى ابنته بهذه المناسبة عقداً يتوسطه قلبٌ جميلٌ ثم
انتحى سامي بابنته، وعندما انفرد بها قال لها:

_ هذا العقد ليس ثميناً كما ترين، كيلا يطمع به أحد...
المهم انتبهي جيداً كيلا يضيع منك... أيضاً احرصي على
القلب الموجود في وسطه... يوجد بداخله رسالة تهملك
كثيراً جداً... لا تفتحيه إلا في حالتين فقط... يوجد داخله
ورقة صغيرة... عليك أن تعطيها إلى صاحب الشركة
هشام في حال حاول الاعتداء عليك، أو أصرَّ على طلب
الزواج منك وإذا كان لا بد من ذلك... اطلبي منه أن يفتح
القلب ويقرأ الورقة فوراً بأية طريقة كانت.

عندها سيكشف عنك في الحال... والحالة الثانية إذا مُتُّ
أنا... يجب عليك أن تفتحيها وتقرئي ما فيها فوراً وعسى
الله ألا يضطرك إلى فتحها... رفض والدها أن يعطيها ولو
معلومة بسيطة عما يوجد داخل هذا القلب ... بل أكد
عليها بقوله:

_ لا تتصرفي بغير ما قلت لك.... مضى على عمل أمينة في
شركة هشام عدة أشهر دون أي حادث يذكر، باستثناء

محاولات التودد لها والتقرب منها بأدبٍ ولطفٍ... أما هي فلم تشعره بأيّ استجابة له... أو لمحاولاته... ومع كل ما كان يمر بها لم تخبر أهلها بشيء من ذلك... لكنّها في الحقيقة كانت معجبة بوسامته وثروته... في أحد الأيام طلب هشام من جميع موظفيه العودة إلى العمل المسائي، كعمل إضافي مأجور وعادت أمانة إلى الشركة كغيرها من الموظفين... كانت تدخل إلى مكتبه وتخرج منه، مستجيبة لطلباته المستمرة بحكم مسؤوليتها... كانت جميع طلباته عادية، وعند دخولها لمكتبها أحد المرات وجدت الرجل الطيب ينظف المكتب، أي مكتبها... تفاجأ بوجودها... على الفور سأها مستغرباً:

_ ماذا تعملين حتى الآن هنا؟ لقد غادر جميع الموظفين الشركة... أنا الآن أقوم بترتيب جميع مكاتبهم وتنظيفها، حيث لن أتمكن في الصباح أن أنهي تلك المهمة قبل حضور الموظفين، والسبب ضيق الوقت بعد الدوام المتأخر اليوم فقالت:

_ حتى الآن المدير لا يزال مستمراً في العمل، ويطلب بعض الأوراق والجداول مني، وهو لم يذهب بعد... قال لها محذراً:

_ أنكري وجودي... أنت لم تريني الآن في الشركة...
 دعينا نرى مقصده من صرف الموظفين دونك، وإذا حدث
 لك أيّ مكروه نادي بأعلى صوتك تطلبين النجدة... أنا
 موجود وكذلك الحراس الذين ينامون في الداخل... الغريب
 أن جميع من في الشركة من الموظفين، غادروا الشركة منذ
 أكثر من نصف ساعة وأكثرهم من الشباب... لماذا
 يستبقيك أنت؟ أنا أتابع تنظيف المكاتب كما ترين، كنت
 أعتقد بأنه لم يبقَ غيري داخل الشركة... بقي عليّ تنظيف
 مكتبك ومكتب المدير... غريب توقعت أن الأبواب بعد
 دقائق ستقفل في الشركة، ولن يبقى أحد سواي داخلها
 وسوى الحراس داخل وخارج الشركة.

لم يتم حديثه حتى كان الرعب يهز جسدها بالكامل، فقد
 سمعت صوت هشام يناديها ونبراته فيها الكثير من
 النعومة والرقّة المصطنعة، على غير ما كان عليه قبل
 لحظات!

بدأ الخوف يعتري أمينة... عندما علمت أنه لم يبقَ في
 الشركة سواهما، هي وصاحب الشركة... أحست بقلقي
 شديد... كان لا بد لها من أن تحييه... أجابته بنبرة جادة...
 دخلت إلى مكتبه بجرأتها المعروفة في محاولة لتخفي ما

يعتريها من الخوف والقلق... وقفت أمامه تنتظر أوامره،
وبدا عليه هو كأنه يريد أن يقول لها شيئاً ما، لكن في
النهاية حلت عقدة لسانه وقال:

_ أريد أن أوجه إليك سؤالاً خاصاً... لكنها قطعت عليه
جرائته التي استجمعها قبل قليل قائلة:

_ يبدو لي أن جميع الموظفين غادروا الشركة! لماذا
استبقيتني هنا؟ فقال متردداً... وقد فشل في التعبير عما
يختلج في صدره:

_ انتهى عملهم، وهو يختلف بطبيعته عن عملك، كان في
لهجته يحاول اصطناع الهدوء وقد ظهر احمرار وجهه
وتغيرت قسماته.

بدأ القلق يزداد من جديد، ويدب في قلب أمينة ويتحول
إلى تحسبٍ وخوفٍ... أخذت تنظر إلى القلادة تريد خلعها
وتقديمها له كما أوصاها والدها... كي يكتشف السر
ويمنعه من الاعتداء عليها حسب قوله.

وأرادت أن تطلب منه أن يفعل ما أوصاها والدها... من
فتحها وقراءة ما بداخلها، لم يظهر في نواياه حتى الآن ما
يريب... لذلك بدأت تردد في نفسها:

_ حتى الآن لم يطرح عليّ أي فكرة ولم يتحرك من مكانه... سأنتظر قليلاً.

نهض هشام بهدوءٍ شديدٍ وهو يبتسم ويتقدم نحوها وهو يقول:

_ انتهى عملنا الآن... إذا أردتِ أن أصبحكِ معي فهو خيرٌ لك من الذهاب وحيدة... كان يبدو عليه أنه سيتم حديثه بقول آخر قطعه عليه دخول الحاجب... الرجل الطيب بعد أن قرع الباب، ما أفزعه جداً وظهرت علامات البغته على وجهه فقال موجهاً كلامه له:

_ ماذا تفعل هنا حتى الآن؟

رد عليه بصوتٍ يحمل الكثير من الأدب والتواضع: أنظف المكاتب وأرتبها، لن أستطيع إنهاء تلك الأعمال في الصباح قبل الدوام... لم يبقَ عليّ سوى مكتبك هذا... ظننت أنك خرجت يا سيدي وقد أبلغت الحراس أن يبقفوا أبواب الشركة من الخارج بعد قليل... سكت السيد هشام برهة قصيرة قبل أن يقول:

_ هذا جيد وذكرني غداً بمكافأتك... ثم نظر إلى أمينة وقال:

_ هيا يا آنسة أمينة سأخذك معي إذا أردت... ردت عليه
شاكراً:

_ الآن اتصلت بوالدي خلال حديثك مع العم هذا... وهو
في طريقه الآن إلى هنا... تغير وجه السيد هشام قليلاً...
ويبدو أنه كان يخطط لشيء ما يريد قوله... ربما كان يريد
أن يفتحها بمشروع الزواج منه، وكان يتردد بسبب فارق
السن... كما عطل عليه وجود العم الطيب، ثم عطل
عليه قولها مجيء والدها الضابط سامي من أن يصارحها
بما في نيته... أجل الموضوع إلى فرصة أخرى... لكنه قال:

_ حسن... سنكسب تشريف السيد سامي ونشرب معاً
الآن فنجاناً من القهوة... ثم نظر إلى الحاجب قائلاً:

_ لا تذهب الآن... سنحتاجك بعد قليل... تابع عملك.

_ لقد أخبرتك بأنه لم يبقَ عليّ سوى تنظيف مكتبك
هذا... سأخرج حتى تناديني... إلّا أن السيد هشام اضطرب
قليلاً وقال:

_ بل اجلس الآن... فهم العم الطيب بأنه لا يريد أن
يقابل سامي وحده، ربما أخبره بتأخيره لابنته بعد خروج
الموظفين، أو أنه لا يريد أن يراه يجلس وحيداً مع ابنته.

لم يطل الأمر كثيراً حتى كان والدها يقرع الباب... لكن هشام لم يتركه دون أن يدعوه إلى العشاء في أحد المطاعم معتذراً عن عدم قدرته على دعوته إلى منزله، كونه عازباً، خاصة وأن والدها اعتذر عن شرب القهوة معه لضيق الوقت... فهم سامي بأن هذا التلميح لطلب يد ابنته... قاد سامي ابنته مودعاً... وفي طريق العودة دار الحديث التالي بينه وبين ابنته:

- _ هل شعرت بشيء غير طبيعي من هشام؟
- _ في البداية نعم... لكن خفت منه للحظة، ولكن تبين لي أنه يتودد لي... وأكثر من محاولاته جذب انتباهي إليه.
- _ ماذا فعلت وهل صرح لك بشيء؟
- _ كلا... لكن خفت بطبعي وكنت سأعطيه الأيقونة... ربما بالغت بخوفي منه لقد أحسست أنني أراه كطاووس نفش ريشه في سبيل غاية في نفسه! ولكن توقعت أن مسأيرته لي خوفاً منك ليس إلا.
- _ أنت عاقلة يا بنتي... انتبهي لنفسك وكوني حذرة باستمرار.

خيم الصمت عليهما بقية الطريق... هي تفكر بما يربط
مستقبلها في داخل الأيقونة... وما الذي فيها سيوقفه عن
أي تصرف شاذ نحوها!

بدأت الدموع تسيل من عينيها، وأفكارها تذهب بها يميناً
وشمالاً، وتسأل نفسها عن غرابة هذا الأمر الذي جعل
من مصيرها يرتبط بقطعة من البلاستيك! وبما تحتويه من
أسرار... لا يجب عليها بالذات معرفتها!

في البداية لم ينتبه والدها وهو يقود السيارة لمعاناتها...
ولكن صمتها المطبق واختفاء تغريدها الدائم وقفشاتها
اللطيفة جعله ينظر نحوها للحظة ويتساءل:
_ ما بك يا بنتي صامته يا أمينة؟ هل تعرضت في الشركة
لمضايقات؟

_ كلا يا والدي لا شيء من ذلك، ولكن أنت تعلم أن
الدوام المرهق... خاصة الدوام المسائي.
_ افتقدت ضحكاتك وتعليقاتك الطريفة!
_ لا تشغل بالك... انتبه فقط لقيادة السيارة.

بينما هي في الحقيقة تتكلم ودموعها تسيل على خديها، ولم
ينتبه لها والدها... عادت إلى صمتها وغرقت في أفكارها
تناجي نفسها وتتكهن بما تحتويه أيقونتها من أسرار،

غفلوا خلال أكثر من عقدين من الزمن عن كشفها لها،
فبدأت تتكهن الأمر وتقول في نفسها:

_ لا يمكن في مثل هذه الحالة سوى في التوقعات
التالية... أولاً لست ابنتهم... ربما تربطني بهشام صلة
قربى تحرمني عليه... كالرضاعة مثلاً ولكن بين عمرينا
الكثير... ولكن مثل هذه ليست أسراراً.

ثانياً أن أكون مصابة بمرض خبيث يخيفه في حال محاولته
الزواج مني أو الاعتداء عليّ هذا المرض يقرب أجلي! وهذا
مستبعد جداً لأنني أقوم بتحاليل طبية نصف سنوية
للاطمئنان على صحتي... ترى وما غير هذين السببين
ممكناً أن يمنع السيد هشام من زواجه مني أو...؟! ثم
تحول تفكيرها نحو السيد هشام مديرها فتمتصت بصوتٍ
غير مسموع:

_ وماذا لو طلب هشام الزواج مني... تجاوز العقد الرابع
من العمر بقليل... ثري... لطيف... شخصية جذابة جداً...
وما المانع من زواجي منه... أنا في الثانية والعشرين وهو في
الرابعة والأربعين... الفرق وإن كان كبيراً لكنه مقبول...
سيبلغ الستين من العمر وما زال شاباً... بينما أكون أنا
فوق الأربعين سيذهب صباي وحيويتي... لا لن أتدل

عليه إن رغب بي... بل سأوافق على الفور... أليس أفضل
من أن أرمي نفسي مع شاب فقير ومعاناة سنوات طويلة
من التعب والبحث عن لقمة العيش؟ ولكن هناك ما
يمنع في تلك الأيقونة ليتني أعرفه ولو كلفني الغالي
والرخيص!!!

التفت والدها لحظة فوجدها تبتسم طبعاً عندما كانت
تحلم بعريس ثري يسعدها وقال:

_ تماماً بهكذا الوجوه الجميلة يظهر جمالها... اضحك
للدنيا تضحك لك... ابكِ تبكي وحدك... ثم استمر في المزاح
معها فتابع... لكن إن بكيتِ سأبكي معك... أريد لك
السعادة فقط يا بنتي.

_ يا إلهي لماذا يكرر كلمة ابنتي من أعماق قلبه؟ لو كان
هناك شيء مما أفكر به لاختلفت لهجته وتصنع في كلماته،
ثم تعود من جديد إلى استعادة ذكريات الماضي... لعلها
تكتشف إن كان هناك ما يعيب العلاقة بينها وبين
أهلها، لا شيء يدل أو يوحي لها بأنها ليست ابنته أو ابنة
سماح وحفيدة جدتها صباح... ثم بعدها تعض شفيتها
قهراً وتغمض عينيها وتترك الأمور لصاحب الأمر.

أما هو... أي والدها فكان تفكيره محصوراً بالطريقة التي سينتقم فيها من هشام على جريمته القديمة... وهناك أيضاً أمر آخر... يريد معرفة مصدر الثروة الكبيرة التي يتمتع بها... كيف جمعها؟ ومن أين جاءت... لكن هذه قد يجد لها مبرراً من خلال اغترابه خارج البلاد لسنوات طويلة... بل ربما تكون هذه الثروة مشروعة، وصل الاثنان إلى البيت، بعد العشاء دخلت أمينة إلى غرفتها تفكر وتستعيد ما مر بها اليوم من أحداث... وإن كانت طفيفة، ولكن أهم ما كان ينصب عليه تفكيرها ويشغل بالها... القلادة وما يحتويه القلب من أسرار... جلست في سريرها تفكر من جديد... تحدث نفسها وتتساءل:

_ ترى ما هو السر الموجود داخل الأيقونة؟ عن ماذا تتكلم؟ وما الذي يخفيه عني والدي؟ وما هذا السلاح الفتاك ضد السيد هشام؟ والذي إذا رآه سيتنازل عن شهواته؟ أو رغبته في الزواج مني كما بدا لي!

نعم إنه يحلم بذلك... لقد شعرت أنه لا يميل إلي فقط... بل إنه يحاول امتلاكي بأي ثمن...

دخلت أمينة إلى المطبخ، وأحضرت سكيناً وبدأت تعالج بها سرّاً القلب الموجود في محاولة لفتحه... لكن دون

جدوى... قلبته ببطء فلم تجد فيه مفصلاً لتفتحه... بدأت بالضغط على السكينة بشدة... لكنها كانت تنزلق عن الأيقونة نظراً لنوع البلاستيك الصلب، لكنها عملت بيدها فجرحتها... ركضت إلى المطبخ... تحضر ضماداً لتعالج يدها قبل أن ينتبه للأمر أحد من أهل بيتها... لكن والدها رأى الدم الذي تلطخت يدها به... ناداها قبل أن تختفي بغرفة نومها، فأوقفها وضمدها لها متسائلاً:

_ ما الذي حدث يا بنتي؟

_ لن أنكر الحقيقة... كنت أحاول فتح القلب الذي شغلت بالي بما فيه... وكانت تلك محاولة منها لتدفعه كي يكشف لها السر الكبير المخبأ في هذا الوعاء الصغير! فقال لها:

_ تأكدي يا حبيبتي لا يوجد سر في هذه الدنيا يبقى مكتوماً إلى الأبد... وستعرفين ذلك في الوقت المناسب، ثم هذه الأيقونة مع صلابتها لا يمكن فتحها بهذه الطريقة... لا تفتح إلا عن طريق الكسر، وهي كما ترين من البلاستيك الجاف وقد صبّت كقطعة واحدة... لكن بضربة خفيفة نوعاً ما بمادة صلبة تنكسر... ولكن ليس

الآن... وسيأتي الوقت المناسب لتعرفني كل شيء... إنما لا تقلقي، ثم همس لنفسه سرّاً:

وقد لا تحتاجين إلى فتحها إلى الأبد... ربما يدخل هشام السجن ونرتاح من شره.

عادت أمينة إلى غرفتها لتفكر من جديد بهذه الأحجية التي تُركت دون حل... لكنها خرجت في النهاية بتصور يكاد أن يكون بالنسبة لتفكيرها حقيقة... وهي أن والدها يمسك على هشام ما يدفع به للسجن، إما بجرائم تهريب وإما بجريمة قتل... وإن الورقة المكتوبة داخل هذه الأيقونة من الممكن أن تشكل صورة لدليلٍ ضده... لكن ما لا يمكن تفسيره لماذا معي أنا بالذات؟ قد يتلعه أو يتلفه إذا رآه... ثم عادت وقالت: لربما لا تحمل له سوى التحذير بما يمسك والدي ضده... ليس لي سوى الصبر، وانتظار ما يأتي به القدر... لذلك سأحاول تناسي الأمر، وتركه لظروف انكشاف السر فيما بعد... المهم أنّها في النهاية خرجت بنتيجة وهي أنّ هذا السر ما هو إلا حماية لها من أخطاء هشام المتوقعة... وإن والدها يعرف من ماضيه ما يجب أن يحميها من أي محاولة للاعتداء عليها... لكن هذا كله لم يمنعها من الخوف من

جهد مقلد

المجهول... فكانت تشعر بالقلق بسبب السر الذي تحمله في
عنقها ولا تعلم دورها فيه أو أقله ما يحتويه.

الفصل العاشر

عجائب و غرائب

صباح اليوم التالي جلس سامي في مكتبه ينتظر بريده اليومي، وبقيت أفكاره تدور حول المشكلة السابقة نفسها. قُرِع باب مكتبه فأيقظه من أفكاره المشتتة... دخل الحاجب وهو يبتسم وقسمات وجهه تدل على سعادة واضحة وهو يقول:

_ تفضل البريد يا سيدي... أولاً الحمد لله على سلامة العائلة يا سيدي ومبارك ثانياً...

_ أشكرك على أولاً... وما هو ثانياً أيضاً؟ هات ما عندك.

_ نعم يا سيدي... علمت وتنتشر إشاعة بين الموظفين بترقيتك إلى رتبة مقدم.

_ أيضاً أشكرك ثانياً... ثم أضاف وهو يبتسم... بئس دائرة رسمية يعلم المراسل بقرارات الوزارة قبل مديرها... أليس كذلك؟

_ نعم يا سيدي وأيضاً معهما ثالثاً...

_ ما شاء الله... سأكلم الوزارة الآن كي تنصب أنت المدير العام، ويضعوني مراسلاً مكانك... كي أعلم بقراراتهم قبل مديرها حينذاك!

_ كلا يا سيدي... كنت في غرفة الكمبيوتر عندما كانت تخرج الرسائل من الطابعة فلفتت نظري وأنا أساعد في طيها ووضعها في المظاريف... وكان ذلك فضولاً مني، وأعتذر منك... لكنني أحبت أن أكون أول من يبشرك بتلك الأخبار السارة!

_ لا عليك... القرارات السرية تأتيني مباشرة... لا توجد أي قرارات سرية تحتاج إلى كتمان... ولكن هات الثالثة.

_ إنها في البريد أمامك، ثم حيّاهُ وخرج... فتح سامي المصنف لقراءة البريد... وقعت عيناه على ورقة مميزة بإشارة من نوع خاص يعرفها جيداً... فكل يوم يمر بعضها من أمامه من أمثالها... لكنها أثارت انتباهه... مما جعله يهب عن كرسيه واقفاً، وهو الرزين الهادئ... لقد فاجأته صورة يعرفها في أعلى الورقة... كانت صورة شخص تشبه غريمه هشام، والمفاجأة الأكبر أنها رسالة من البوليس الدولي الانتربول... طبعاً تمعن في الصورة... كانت الصورة قديمة جداً... لا مجال لإنكارها... صاحبها معروف لديه في تلك الفترة... لا تختلف كثيراً عن صورته أيام الدراسة، لكن المفاجأة الأكبر هي ما الذي يريده الانتربول منه؟ تبسم المقدم سامي هكذا سنسميه بعد حصوله على الرتبة

الجديدة... فوق ابتسامته على أولاً وثانياً... لقد أصبح الآن
يمسك بهشام من يده التي تؤلمه... وأصبح يملك الضغط
عليها في الوقت المناسب ومتى شاء... وهذا كان أقصى ما
يتمناه سامي لغريمه.

أخذ يقرأ النص بصمت... لكن خياله كان يذهب إلى أبعد
مما فيها ويتمتم:

_ أولاً... أليس هو من رمى طاقة الورد أمام باب البيت
مباشرة؟ ثم هل هو من كان يضع طاقات الورد في غرفة
سماح في المشفى يومياً؟ ثم ما هي نيته في التلطف مع
أمنية... ولماذا قبلها في شركته، لقد أخبره هشام بنفسه
بأن درجتها لم تكن الأولى في الاختبار، ولا حتى في مركز
متقدم من ترتيب الناجحين، أثناء المقابلة التي تابعتها
نحن القراء... وعلمنا السبب المباشر.

استغرب سامي وجود صورة هشام على البلاغ المرسل من
الانتربول الرامي إلى القبض على صاحب الصورة! نظر إلى
الورقة وإلى الاسم المذكور فيها، والمطلوب البحث عنه
للقبض عليه والتحقيق معه ثم تسليمه لهم... لكن
المذكور في الورقة اسم آخر... اسم لشاب أجنبي وليس اسم
هشام.

كان المطلوب شخصاً آخر يحمل اسماً أجنبياً... جان بار...
 تأتني قليلاً في الحكم على الصورة... مع العلم أن الوجه
 يشبه وجه هشام، ولكن لا يمكن الشك بأنه ليس هو...
 توقع أن يكون قد بدل اسمه فيما مضى... عاد فنظر ثانية
 ليتأكد من الصورة... الشبه كبير جداً بحيث لا يمكن
 الشك معه... لكنه تساءل بحيرة:

_ ترى هل الأمر مجرد تشابه بالصور فقط؟ رجع قليلاً إلى
 الزمن الماضي... وقال: ربما؟! لكن هشام أخبرني منذ
 أيام بأنه سافر في الماضي إلى دول الخليج بعد هروبه من
 بيت أهله، حسب قوله... وبدأ يحدث نفسه:

_ سنرى على كل حال ما الذي ستقدمه لنا الأيام وتوضحه
 لنا... وضع الملف على الطاولة، وتابع مطالعة ما تبقى من
 التقارير التي أمامه... وعندما انتهى وضع بقية الملفات
 جانباً، ووضع ملف جان بار (هشام) في درج خاص ثم
 أسند ظهره على كرسيه، وسرح في هذه القضية المعقدة،
 والتي يصعب حلها... أي قضية هشام، وأخذ يتساءل:

_ ترى ماذا لو كانت الصورة هذه صورة هشام... أتمنى
 ذلك... ولكن هل جاءت فرصة الانتقام (لسماح)؟
 ولكن يا ترى ماذا سيكون موقف أمينة مني إذا علمت

فيما بعد أن هشام والدها؟ وأنا من رميت به في السجن! وكيف ستعيش معنا... خاصة حين ذاك ستعلم أنها ليست ابنتي، وليست سوى ابنة أمها فقط! وكيف ستكون حياتها بيننا؟ وحين تعلم أنني أنا من كشف سر هذا النصاب الكبير الذي يبحث عنه البوليس الدولي، حسب ما ورد في تقريرهم... ومن المؤكد أنه عمم في كل مكان في العالم... هل سأستتر عليه؟ هل سأهمل واجبي وأخفي ما جاء في هذا التقرير؟ قطع عليه سلسلة أفكاره قرع الباب، ودخول مساعده يخبره بأن رجلاً يطلب مقابله... سمح له بالدخول... دخل الرجل بجرأة وخطوات ثابتة... رفع سامي رأسه عن التقرير الذي كان قد عاد إلى التدقيق فيه من جديد، بعد أن كان قد وضعه في درج خاص قبل قليل... أذهلته المفاجأة فهب واقفاً حين رأى أمامه ما لم يكن يتوقع! إنه غريمه نفسه.

نظر إليه مستغرباً إليه بسبب هذه الزيارة دون موعد مسبق... نحى سامي الملف جانباً ووقف... ثم مد يده مصافحاً:

_ أهلاً بك سيد هشام... ما هذه الزيارة المفاجئة؟

_مرحباً سيادة الرائد... بل عفواً سيادة المقدم... ألف
مبارك على الترفع... حين طلبت مقابلة الرائد سامي قالوا
لي:

بل قل المقدم سامي، لأن نجمة جديدة أضيفت على كتفه...
من المؤكد أنت تستحقها وآسف على هذه الزيارة دون
موعد مسبق...

_ أشكرك... وأهلاً بك... شرفت مكثي ولكن هل
أخدمك بشيء؟

_ كلا أشكرك... لكن كان لدي عمل هنا... فأحببت أن
أزورك بالمناسبة.

_ تفضل... وأشار إليه كي يجلس، ثم قرع الجرس وطلب
قهوة له.

_ لم تخبرني سبب زيارتك إلى مديريتنا؟!!

_ جئت إلى دائرتكم أطلب الحصول على ترخيص يسمح
لي بحمل مسدس... أنت تعلم أنّ أعمالنا تفرض علي حمل
السلاح الفردي للدفاع عن نفسي ضد لصوص
مفترضين... خاصة أنني معرض لمثل هذا الأمر في أي
لحظة.

_ حسنٌ... اتصل سامي بزميل له وأوصاه أن يسرع بإنجاز
معاملة هشام... ثم أخذاً يتبادلان الأحاديث المتنوعة...
حول ذكريات المدرسة وما إليها.

استطاع سامي الحصول منه على معلومات عامة تهم
القضية التي ينوي التحقق منها... وإن كانت المعلومات
ضئيلة لكنها قد تفيده... كل هذا ودون أن يشعر هشام
بأنه يخضع إلى تحقيق سري... ودون أن يشير سامي إلى
القضية التي جدّت وأن هناك من يبحث عنه... وفي لحظة
قال هشام ودون مقدمات:

_ في الحقيقة أريدك يا سيادة المقدم بأمر خاص...
لاحظ سامي أن هشام يغالب نفسه للحصول على شجاعة
مصطنعة للكلام... تابع بعدها:

_ أود أن أدخل في حديث خاص إذا أمكن؟
_ أتمنى أن تزورني في منزلي فنتحدث حينذاك بما تريد.
_ هل تستطيع ترك عملك نصف ساعة لنتنقل إلى المقهى
المجاور؟

_ خيراً إن شاء الله... يبدو أنك في عجلة اسبقني وسألحق
بك.

جلسا في المقهى... دخل هشام في الحديث مباشرة إلى الموضوع، قائلاً:

_ أنت تعلم أنني أعيش وحيداً هنا... ووضعي المادي ممتاز جداً... وليس عندي زوجة تعيش معي وأنت تعرف عني وعن أخلاقي... ولست أرمل أو مطلقاً ولا أولاد عندي.
كان سامي قد تكهن بما يريد منه منذ بدأ هشام حديثه فقال:

_ نعم إنني أعرفك ثم سكت... ولكنه أتم حديثه في نفسه: ليتني أستطيع أن أفرغ مسدسي في رأسك أيها القذر... لكن ما يمنعني عن اعتقالك الآن عدم وجود قرار من المديرية حتى الساعة للقبض عليك، ولكنني في النهاية سأضع الأصفاد بيدك الآن... ولكن الآن يقف في الطريق عدم تحميل نفسي مسؤولية ذلك.

_ لماذا سكت ولم ترد علي؟ هل هناك مانع أو عائق؟
أراد سامي أن يداريه قليلاً... وفي الوقت نفسه لا يريد أن يكشف له عما يضره نحوه... فقال:

_ ولكن ألا تجد فارقاً كبيراً في السن بينكما... أنت تجاوزت الأربعين من العمر... وأمينة أصغر منك كثيراً... إنها فوق العشرين بقليل... ولكن في النهاية لا أستطيع

أن ألزمها بشيء... ثم أيضاً الرأي الأخير لها هي... أعطني مهلة أستشورها، وعلى هذا تصافحا وافترقا.

عاد سامي إلى مكتبه وهو يتمتم... أيها القدر تريد الزواج من ابنتك ابنة أمينة ضحيتك! حتماً سيأتي اليوم الذي تعرف فيه من تكون أمينة بالنسبة لك... إنها ابنتك أيها المجرم نتيجة مأربك أيها الرخيص... لكن انتظر علي حتى أجزم وأؤكد من الطريقة التي سأتعامل فيها بقضية المدعو جان بار والذي هو أنت؛ وأعرف تفاصيل الاتهامات التي تلاحق لأجلها... كم أتمنى أن تصل بك إلى الإعدام، وأنا من سيشدك من قدميك عندما تلتف أنشودة المشنقة على رقبتك لأعجل بموتك... لا بل سأوصي الجلاد أن لا يضيّقها كثيراً على رقبتك لتشعر بعذابها... عندها ستري عدالة القدر... ها قد جاء الانتقام لجريمتك الأولى القديمة... لكن دعنا نتعرف الآن على الجديد من جرائمك بعدها... ولكل شيء إجراءاته الخاصة... قلت لي قبل قليل إنك سافرت إلى أوروبا، وأقمت فيها مدة من الزمن... ولكن أيها القدر... لو جئت تطلب يد مها ابنتي... لكان أهون علي، وإن كنت لن أسمح لك بلمس حذائها وليس الزواج منها... ولكن

أمانة... لقد أحرقت قلبي... فهي أولاً ابنتك وأنت لا تعلم... وثانياً تلك الفتاة أمانة في عنقي... وسوف أرى إن كانت تقبل ترك العمل عندك، أم لا.

لا أريدها أن تعلم بأنك والدها إلا إذا توفاني الله... خشية وقوع المحذور والمحرم... ولكن أيها المغتصب سأرى من هو جان بار... هذا وأنا متأكد أنه أنت.

ما أن وصل إلى مكتبه... حتى فتح الملف من جديد بعد أن تمكن من الحصول على بعض المعلومات البسيطة منه قبل قليل... لكن للأسف لم يجد في هذا الملف ما يفيد زيادة عما وصل إليه، وأنه بحاجة إلى تحقيق دقيق واستجواب قانوني كي يحسم الأمر بقضيته، ولا يتم ذلك إلا باعتقاله.

انتهى سامي من عمله، وانطلق إلى المشفى متلهفاً لرؤية زوجته، وليعرف ما وصل إليه مصيرها اليوم... وجد أن ابنته مها وصلت قبله... والشاب الذي كان يحوم حولها منذ أيام، ما زال يتردد على المشفى ويلاحق ابنته... كما رأى نظراته إليها تلقى قبولاً منها ومستجابة منها له... كثر شبح الابتسامات المتبادلة التي ترسم على الشفاه...

تمعن بالشاب مطولاً فتراءى له بأن شكله مألوف لديه، بل ربما رآه من قبل...

في النهاية تذكر سامي أن هذا الشاب ربما يكون من الخريجين الجدد، الذين تم تعيينهم في وظيفة ضمن المديرية عندهم... سار إليه مباشرة... دبّ الخوف في قلبها حين رأت والدها يتجه نحو الشاب، وركبها الخوف من أن يتهمه بشيء أو يؤذيه... لكنها استغربت وتفاجأت حين رأت والدها يصافحه... اطمأن قلبها بعد أن شاهدتهما يتبادلان الحديث بشكل ودي... عندها تنفست الصعداء، خاصة عندما بدأ بتبادل الأحاديث وإن كان لم يصل إلى سمعها شيء منه... لكنها رأت في الابتسامات المتبادلة بينهما أبلغ جواب... أما حقيقة ما كانا يتبادلانه من الحديث:

_ سيدي الرائد أنا أعذر منك، وأتأسف على تلك الصدفة السيئة.

_ المقدم... ماذا تقصد؟

_ آسف... مبارك لك المنصب الجديد، خاصة وأنتك لست باللباس الرسمي ومن واجبي أن أحييك ورتبتك العالية... وللعلم أنا من قرعت الباب وييدي طاقة الورد... ما أن

فتح الباب حتى سقطت زوجتك أمامي على الأرض،
فأصابني الرعب، وهربت بعد أن رميت طاقة الورد! لكن
أؤكد لك أن سبب سقوطها لا يد لي فيه... لقد فُتح الباب
وسقطت هي في اللحظة نفسها قبل أن تنظر إلى وجهي...
لذلك هربت على الفور وإن كان هذا هو خطأ مني لذلك
أعتذر منك!

_ وما معرفتك بأهل بيتي حتى تأتي لزيارتي دون موعد؟
وما كانت غايتك؟

_ رأيت ابنتك مها أكثر من مرة في الطريق تدخل إلى
بيتكم، وبما أنني كنت من تلاميذك في الكلية... كانت
غايتي أن أسأل إن كنت أستطيع أن أدعو أهلي لزيارتكم.

_ إذا أنت صاحب طاقات الورد في المشفى بدون اسم!

_ نعم وأنا آسف جداً... كنت أحاول أن أكفر عن ذنبي
بالاطمئنان عليها، كوني لم أسعفها أو أنتظر حتى أعرف
ما حدث لها وأساعدكم.

_ على العموم لا بأس ولا ذنب لك، لقد قال الطبيب أن
الأمر نتج عن خثرة دموية في الرأس، وهي قالت لنا فيما
بعد من أنها كانت تعاني من بعض الألم في رأسها ولم
تخبرنا من قبل!

خرج الطبيب من غرفة الأم... يبشر أنها استعادت وعيها تماماً، وإن عودتها إلى البيت باتت قريبة... قد يكون غداً أو بعد غدٍ... سارعت مها الخطى لتبشر والدها بما قاله الطبيب، وكانت ترى في هذا حجة لتقترب من الشاب الذي كان يهتم بالتقرب منها... ولكنها صدمت قبل أن تصل إليهما... رأت والدها يصافحه مودعاً، ثم يتجه نحوها... أخبرته والدها بما قال لهم الطبيب، وإن والدتها أفاقت... وأنهم يستطيعون الدخول بعد قليل لزيارتها، وإن العملية لن تعيقها عن أي شيء، وقريباً ستستعيد نشاطها تماماً، ولو كان من الأفضل أن تبقى تحت المراقبة اليوم وغداً على الأقل، كي تستعيد نشاطها تماماً، وهو ما كانت تتمناه لها لسببين:

الأول راحة والدتها، لأنها لن تبقى دون أن تعمل في البيت... والثاني كما يبدو أنها والشاب حصل بينهما تقارب عاطفي خلال تلك الأيام القليلة التي مضت... قبل أن يدخلوا لزيارة سماح وصلت أمينة وإخوانها... وكأن الجميع على موعد مسبق مع صحوتها... زارها الجميع فرادى... أخيراً قرر لها الأطباء أن تعود إلى البيت مساء اليوم التالي.

وفي طريق العودة ركبت معها مع أبيها في السيارة... أخذ سامي يتكلم ويطري أخلاق الشاب، ويقول:

_ هذا الشاب اسمه سمير... لطيف وخلوق، وهو من عائلة كبيرة وثرية... في محاولة منه لجس نبض ابنته معها والتي شكّت بمراد والدها من هذا الترغيب المكشوف، لكنها لم تشاركه الحديث حتى قال:

إن الشاب يبحث عن عروس وسألني اليوم عنك، وهو لم يكن متأكداً قبل الآن إنك ابنتي، ولكنه كان يستشف صلة بيننا حتى أخبرته قبل قليل... كان والدها ينظر إليها بطرف عينه بين الفينة والأخرى، وهو يقود سيارته ليرى ردة فعلها، ابتلعت ريقها وقالت بصوت يتهدج... رداً على أبيها: ولكن منذ متى يعرفني؟

_ يقول إنه كان يراك وأنت تدخلين المنزل وهو يمر من هذا الطريق بشكل مستمر... فقالت والسعادة لا تفارق صوتها:

_ كما تريد يا أبتى، ولكن أليس من الأفضل أن ننتظر زواج أختي أمينة؟

_ كلام غير وارد... أريد سعادتكما فقط، وأنت يا بنتي اليوم جاء نصيبك لماذا نعرقله؟ خاصة وأنتك ترغبين

بالشاب، ثم قال ممازحاً... ما رأيك أن نقول له عُد إلينا بعد سنتين؟! أو عندما تعلم بخطبة أمينة أختها؟ ثم قهقهه ضاحكاً وهو يقول: تريدان أن ننتظر حتى يأتي نصيبها بعريس في علم الغيب! ثم ننتظر المراحل اللاحقة من خطبة وتأثيث وزواج... الخ، لا يا بنتي الخيرة فيما اختاره الله من أولويات لصاحب النصيب.

الفصل الحادي عشر

أمانى وأحلام

نعود إلى أمينة التي تعمل بمجد ونشاط في مكتب هشام، هذا الذي ما انفك يطلبها إلى مكتبه بصورة متكررة لتحمل له أوراقاً ومعاملات، وكل هدفه رؤيتها ومحاوله التصريح بحبه لها وإعلامها بنيته الزواج منها، ولكن الشجاعة كانت تنقصه في كل مرة... وهنا نجد الأنانية تتغلب على العاطفة وعلى المنطق والعقلانية... كان هشام يريد امتلاكها مهما كلفه الأمر... لهذا كان يحاول التقرب منها بشتى الوسائل.

أخيراً وقبل نهاية الدوام بقليل، طلب منها أن تساعد بعض المعاملات... ثم طلب منها الجلوس أمامه... كانت مطمئنة من خلال ما أوصاها والدها... إن ما تحمله في عنقها يحميها من أذيته... مطمئنة إلى السر الذي يجعله يتوقف فوراً عن أي تصرف خاطئ أو مشين... أما هشام الذي استجمع شجاعته الآن وقال دون تردد:

أمينة... أنت أمينة اسم على مسمى... فتاة رائعة وشريفة، وكما أرى إن جميع الإغراءات لن تغير ما بنفسك... هل تتزوجيني يا أمينة؟ كما ترين لا ينقصني مال ولا

شخصية، وكما أنت لا ينقصك شباب أو جمال... ولا أخفي عليك... لقد شغلت في الماضي بجمع الثروة عن الزواج ويبدو أن الأوان حان... وكان ينتظرك أنت... أعتقد بأن فارق السن لن يكون عائقاً بيننا... أنا أملك الصحة والمال، وعازب وليس لدي أطفال من زوجة أخرى، ولم أتزوج من قبل... وأنت تملكين الجمال والأنوثة والأدب... سنكون زوجين سعيدين إن وافقت على طلبي.

صمتت ولم تقل شيئاً... شجعه ذلك السكوت على متابعة الحديث، بينما كان ينتظر منها شراً مستطيراً أو ربما رداً قاسياً، وعلى الأقل كان يتوقع منها أن تخرج من مكتبه غاضبة.

لكن الرد كان لطيفاً جداً حين قالت: والدتي مريضة وفي حالة يرثى لها، ولا أستطيع البت في أي أمر... لا بد لي الآن من الذهاب للطمئنان عليها... ثم أردفت بنبرة ناعمة تسبقها ابتسامة:

_ هل بقي لك حاجة بي الآن؟

رد عليها بالهدوء نفسه الذي تحلت به وقال:

_ الآن كلا... لكن فيما بعد سأحتاج لك طيلة العمر.

سكنت لحظات ثم قالت ترد على دعابته وفي قلبها رغبة فيه:

_ بل يبقى المكتب عامراً بصاحبه... أشكرك، وأخذت تلملم أوراقها وأقلامها وحاجياتها الخاصة، وتستعد للخروج والقيام عن مكتبها... أغلقت الحاسوب الذي تعمل عليه، ثم عجلت بوضع حقيبتها اليدوية في كتفها، لكنها تفاجأت بهشام يسحب كرسيّاً ثم يضعه ملاصقاً لها... سكنت لحظات لترى ماذا يقصد بتلك الحركة... لكن صدرها بدأ يغلي كلبؤة استفزت، وتهيات للدفاع عن أشبالها أمام خطر قادم... استبق ردها المتوقع قائلاً:

_ أهلاً بك يا أمينة... بدءاً من اليوم اعتبري نفسك شريكة عمل وصاحبة!

ردت عليه بلطف:

_ أشكرك... أنا موظفة في مكتبك ليس أكثر.

_ بل مالكة المكتب والقلب معه أيضاً.

_ لا تستبق الأمور يا سيدي الكريم... أنت طلبت ردي، وأنا لم أفكر بعد والأمور لا تأتي إلا بخواتمها... أليس كذلك؟! نظر إليها كمن يدقق بشيء، ثم رفع يده نحو كتفها... عندها شعرت بأنه يتمادى أكثر مما يجب، وربما

وجدت محاولته مغرصة... ساعتها كانت الصاعقة التي
نزلت على رأسه... وقفت بعنف قبل أن تصل يده إلى
كتفها... ثم صاحت به:

_ أتراني ابنة شوارع يا سيد هشام؟! وهل تظن أن كل طيرٍ
يؤكل لحمه!!؟

_ أرجوك أنا لا أقصد شيئاً... انظري إلى حزام حقيبتك...
لقد رأيته مفتولاً قليلاً فأردت تصحيحه...

_ لأرى صحة ما تقول... كان من الممكن تنبيهي لا أن
تمد يدك... يبدو أن مسائقي لك كمديرٍ لي جعلتك تظن
أنني أصبحت ملكاً لك! أو أنني من بنات الهوى! لكنك
تعرف من هو والدي وسأخبره بسوء نواياك... ونهضت تريد
الخروج، وهنا شعر وكأن سطلاً من الماء المثلج صُب على
رأسه!

_ أرجوك... أرجوك اعتبريها غلطة، وإن كانت نيتي
سليمة... وأنت فهمتِها خطأً، ومع قوة أعصابه التي عرف
بها... كاد الخوف أن يفقده شجاعته، قال والرعب يغطي
قسماته:

_ أرجوك ثانية وثالثة أن تنسي الأمر، وإن كنت تسمحين
لي أن أقبل يدك أنا مستعد...

لم ترد أمينة على توسلاته بل استدارت وهي تبسم، وتحاول ألا تريه انفعالاتها الفرحة وتتمتم:

_ الحمد لله أعطيته أول درس قبل الزواج... أنا أريده... نعم أريده... مال... وجمال... وعز... وغير متزوج، وفي سن العقل، وفارق العمر ليس مهماً عندي، وسأكون معه الغالية المدللة... أليس أفضل من الشباب أصحاب طوبة، طوبة الذين يتهافتون على طلب ودي... قصدت هي على من كان قد تقدم لها سابقاً من بعض الشباب، وكانوا جميعاً في بداية تكوين حياتهم، وبحاجةٍ إلى سنواتٍ طويلةٍ من الكد والجهد في العمل لتأمين متطلبات الأسرة.

جلس هشام بعد خروجها من مكتبها، يفكر ويقول لنفسه:

_ يا إلهي ما الذي جرى لي اليوم؟! ألا يكفي جريمتي الأولى؟! وخطرت بباله سماح خطيبته السابقة التي أقدم على اغتصابها قبل عقدين من الزمن ثم تنهد وتمتم: ليتني أعلم والله ماذا جرى لها بعدها؟ وكيف دخل سامي الشقة وأنقذها؟ وبأي حال وجد الفتاة؟ وكيف أصبحت زوجته... أنت قدر يا هشام... بل أكثر من نذل! ولكن

مالي ومال حقيبة أمينة؟ وماذا لو عرف أبوها بحركتي؟
الحقيقة لم يكن في قصدي سوء.

بعد أن خرجت أمينة من عنده دون أن ترد عليه... ذهبت
إلى البيت وفي الطريق كانت تحدث نفسها:

_ الرجل كان يتصرف في البداية بأدبٍ بالغٍ جداً، ولا
ينقصه شيء من الكمال... لم يحاول لمسي أو يتصرف أي
تصرف يدل على خبث نواياه، لكن هذه المرة ما الذي
جرى له؟ من المؤكد أنا من جعلته يطمع بي... سايسته
أكثر مما يجب... لكنه ادعى صفاء النية... ثم نظرت إلى
حمالة حقيبتها فوجدت أنها فعلاً تحتاج إلى تسوية...
فتمتتم... ظلمته والله، لكن لا بأس هو درس جيد
يجعله لا يتدخل فيما لا يعنيه؛ لكن هل كان يجربني؟!
نعم أنا راضية به كيفما كان، ولن أرفضه... بعد أن وصلت
إلى البيت اصطحبت جدتها وأخوتها وذهبت معهم لزيارة
أمها في المشفى... جلست أمينة بجانب صباح جدتها في
السيارة وقررت أن تستشيرها حول موضوع الزواج من
هشام... جدتها التي لم تكن تعلم بظهور هشام على
مسرح حياة الأسرة من جديد ولا تعلم بأن حفيدتها
تعمل في مكتب خطيب ابنتها السابق... وشوشتها أمينة:

_ جدتي... تقدم لي عريس ثري وجميل وخلق جداً ما رأيك؟

_ وماذا تنتظرين يا بنتي؟ إن رجلاً بكلّ هذه الصفات حلم كل فتاة في مثل سنك.

_ لكنه فوق الأربعين بقليل!

_ عز الطلب يا بنتي الرجل في هذه السن يكون مكتملاً مادة وعقلاً.

_ ولكن أرى أن والدي لا يرغب فيه كثيراً.

_ لا عليك سأقنعه، ولكن ما اسمه يا أمينة؟

_ هشام يا جدتي... شاب جميل ولديه كل الصفات الجيدة وأعمل في شركته سكرتيرة.

ما أن سمعت صباح باسمه وسنه حتى وجمت قليلاً ووجف قلبها... لقد ذكّرتها سيرته الآن بقصة سماح وهشام السابقة لكنها قالت في نفسها: ألا يوجد هشام سواه؟ ابن أختي اسمه هشام أيضاً... وابن الجيران اسمه هشام... ثم ماذا لو كان هو نفسه... كان ذلك طيش الشباب فيما مضى، وأخذت تتمتم بقول زهير بن أبي سلمى... (فإن سفاه الشيخ لا حلم بعده..... وإن الفتى بعد

السفاهة يحلم) إن اتفقا ما المانع؟ طبعاً الجدة صباح لم تكن تعلم أبداً بأن أمينة ما هي إلا ابنة هشام. عندها تابعت الكلام موجّهة الكلام لأمينة:

دعي الأمر لي يا بنتي... كانت السيارة قد وصلت بهم إلى المشفى، وما أن نزلوا منها حتى شاهدوا والدها ومها عائدين من زيارة سماح قبلهم، اطمأنوا عليها على أن يعود والدها بعد ساعات وينهي إجراءات خروجها من المشفى... عادوا جميعهم إلى البيت وجلسوا لتناول الغداء... جلست أمينة معهم والسعادة تظهر في وجهها... فقالت وهي تغالب فرحة كانت تحاول إخفائها نظراً لظروف والدتها:

لقد طلب هشام يدي للزواج... سمع الجميع في تلك اللحظة صوتاً مخنوقاً أمامهم على الطاولة... كان صوت والدهم الذي تفاجأ بهذا الخبر وإن لم يكن جديداً عليه... لأن هشام من قبل كان قد طلب يدها منه... فقال متألماً:

لا... لا يا بنتي... وأخذ يتمتم دون أن يسمع أحد من حوله... إنها جريمة لن يقبل بها الشرع أبداً... ثم قام بعدها ودخل إلى غرفته يستخير الله فيما يفعل، يخطط ويبحث عن الطريقة التي سيتمكن بها من أن يوقف

تلك الجريمة، جلس يفكر ويدرس خياراته المتاحة ويقول لنفسه:

— إن كشفت السر أمام الأطفال سيعلم الجميع أن سماح أم الأولاد مُغتصبة، وربما قد تتطور الأفكار إلى قلقاقل تطل سيرتها وماضيها! بل ربما لأكثر من ذلك، هذا أولاً... وأما ثانياً سيعرف جميع الأولاد أن أمينة ليست أختهم من أبيهم، بل هي شقيقتهم من أمهم فقط... وستتأثر الأم بهذا السر بين أولادها وجيرانها، وكذلك أمينة ستتأثر مسيرة حياتها إلى الأبد... هذا السر يجب أن يبقى على ما هو لا يعلم به سوى ثلاثة... (الله... وأنا... وسماح) ثم كيف سيكون موقف جدتها العجوز صباح بعد ذلك، وليس لديها أي فكرة عن هذا الأمر وهي تعلم أن ما حدث في ذلك الوقت كان محاولة طائشة فاشلة، وكل ما تعرفه هي أن سماح ابنتها كانت قد أنجبت أمينة في الشهر السابع من الحمل... أي (خديجة... مولودة قبل الأوان).

الفصل الثاني عشر

أسرارٌ بالجملة

نعود إلى سامي الذي جلس في مكتبه في اليوم التالي يبحث في مضاعفات المشاكل المتراكمة على عاتقه، والتي طالت أسرته وأصبحت تهدد مركزه الاجتماعي ووظيفته إن لم يقوم بواجبه على أكمل وجه... وبعد تفكير طال كثيراً، وجد بأن لا حل سوى أن يبدأ بالبحث في التقرير المحول إليهم الخاص بالمسمى جان بار، ومن المؤكد له أنّ هذا الشخص هو نفسه هشام... وهو الذي تنكر في ذلك الوقت تحت هذا الاسم، والمشكلة كانت تلك الظروف التي ذكرنا تعيقه عن كشفه وهو ما أسلفناه... لذلك، وبعد تفكير شديد أناره له عقله واهتدى إلى فكرة جيدة، وهي نقل قضية هشام إلى مكان آخر... وجد أنها ستحل المشكلة برمتها... ولكن لن تحسم المشكلة في أسرته.

أخذت تتنازعه أفكار مختلفة، لا يكاد معها أن يستقر معها على قرار...

لكنه أخيراً عزم على تنفيذ الخطة التي خطرت له قبل قليل، وقرر تنفيذها بعد أن وجد فيها أفضل الأمرين. فقال محدثاً نفسه:

_ يوجد الكثير من ضباط الشرطة الذين تم تعيينهم في المدن القريبة وهم من أفراد دورتي في الكلية، وهم أصدقاء لي في الوقت نفسه... والحل أن أسلم هذه القضية لأحدهم... وإن كان لابد من كشف نسب أمينة ولزم الأمر إلى ذلك... هذا خير من الوقوع في خطأ قد لا أستطيع تداركه، وما يحدث الآن من استلطاف بينها وبين هشام، ومحاولاته التقرب منها وطلب يدها مني أولاً... ثم من نفسها ثانياً... فربما بعدها يقع المحظور دون أن أدري! لذلك سأسلم هذه القضية إلى شخص آخر سواي، وأدفعه كي يعجل في إنهاء الأمر وتقديم هشام إلى القضاء لينال عقابه... صباح اليوم التالي جلس سامي خلف مكتبه يراجع التقرير المتعلق بالقبض على المذكور المسمى جان، وليبحث في القضايا المتعلقة بقضيته، وتسليمه إلى القضاء ومحاكمته في ما بعد... أرسل سامي خلف أحد أصدقائه الخاصين، تحدثاً طويلاً في موضوع جان هذا دون أن يخبره بمعرفته له أو صلته به أو ماذا يريد منه، وطلب منه أن يتولى القضية بنفسه، على ألا يقوم بأي تصرف منفرد قبل أن يرجع إليه فيما يراه مناسباً، وأن يطلعه على كل معلومة يصل إليها... وافق

صديقه على ذلك... كان قصد سامي من ذلك ألا تمر معلومة، تكشف أسراراً لا يرغب بكشفها قبل الأوان... على هذا اطمأن الآن بال سامي ... خاصة وأن الأمر أصبح شبه مسيطراً عليه.

لم يطل الوقت كثيراً حتى جاء صاحبه يخبره أن الصورة التي على التقرير للاسم نفسه، وصاحب الصورة نفسها الموجودة على التقرير هي نفسها التي في أرشيفه (ملفه)، وهذا الشخص موجود في البلاد منذ دخلها، باسمه العربي المكتوب على جواز سفره، ويحمل جنسية بلد أجنبي باسم جان، ولا شيء غير قانوني بالنسبة له، أو لحمله جنسية أخرى.

كما أنَّ الرجل المذكور افتتح في هذا البلد مشروعات كبيرة، وأصبح لديه مجموعة ضخمة لشركة ملابس عالمية مشهورة، ولها عشرات الفروع في البلد.

فقال سامي:

__ من الضروري استدعاؤه للتحقيق، وتقديمه للمحاكمة بحسب ما جاء في كتاب الانتربول الذي ينص على ذلك، وقد قاموا بمراسلتنا بهذا الخصوص، ووردنا تقرير منهم

بأن هذا الرجل كان من كبار تجار المخدرات في العالم...
 ومطلوب في العديد من القضايا المماثلة.
 هنا أسقط في يد سامي... القانون يجب أن يأخذ مجراه...
 كذلك واجبه الوظيفي يحتم عليه عدم التهاون في هذه
 القضية... ولكن بعدها ستقع الطامة الكبرى... ماذا
 سيفعل بسر أمينة؟ كيف ستتقبل الأمر عندما يلقي
 القبض عليه، وتعلم بأنه والدها الحقيقي... خاصة إذا
 علمت بمن وراء ذلك، كيف سيكون حال الجميع؟
 ربما لن تغفر لي... وكيف ستتابع حياتها بينما إذا تقبلت
 الواقع؟ ... حتماً ستشعر بالذل والمهانة وأنها غريبة عن
 الأسرة... ومما سيزيد الطين بلة أيضاً أنها تعمل في الشركة
 نفسها، أي شركة أبيها الحقيقية... دون أن تدري صفته
 بالنسبة لها... لا يريد سامي أن ينزع من عقلها صورته
 أمامها كأبٍ حنون... هو الذي رباها، وهو من رعاها طيلة
 أكثر من عشرين عاماً، ولا يستطيع أن يصرح أمامها
 بشيء، لأنه متأكد من أنها ستترك العمل مرغمة بعد أن
 عثرت على الوظيفة مصادفة التي كانت تحلم كثيراً بها...
 وأيضاً ربما يتحول سر السنين وينقلب إلى كره وستفقد
 عاطفتها نحوه... كان يعلم بالتفصيل ماذا يدور في مكتب

السيد هشام بينه وبين أمينة من استلطاف، ومحاولات للتقرب ووعود بالزواج... لذلك قرر التأيي وترك القضية إلى زميله الذي يحقق فيها... على أن يبقى الأمر تحت رعايته وإشرافه هو...

بعد أن هدأت أعصاب زوجة سامي... سماح وعادت إلى طبيعتها العادية، جلس معها في أحد الأيام يتبادلان الأحاديث العادية، ثم تطور الحديث بينهما إلى الوضع الصحي، وما كان سبب دخولها المشفى، وإن كان يحاول جاهداً بشق الطرق عدم إثارة عواطفها وأحزانها، خاصة ولم يمض القليل من الوقت على إجراء عملية جراحية خطيرة لها في الدماغ... لكنه بحكم مصلحته استطاع أن يفهم من خلال سياق الحديث، السبب الذي أثر فيها... سأله:

_ لماذا لم تخبريني منذ البداية بأنك تعاني من آلام في الرأس؟

_ لا توجد آلام شديدة ولكن وسيس وطنين في الأذن، لكن لم أهتم به حتى أصبت بتلك الأزمة.

_ ولكن كان المفروض أن تعلميني كي نستشير أحد الأطباء.

فقلت:

_ قلت لك لم أعانِ أبداً من قبل من أية آلام شديدة بل صداع كأني إنسان آخر ولكن لا أخفيك ما حصل... فتحت الباب وإذا بي وجهاً لوجه أمام شاب لا أعرفه ولم أتبين وجهه جيداً... فكل ما رأيته هو أنه يحمل بيده طاقة من الزهور... ولا أدري ما الذي حدث... عصفت بي رأسي قليلاً! ولم أستفق بعدها سوى في المشفى ولا ذنب له فيما حدث لي... وأنت تعلم بقية القصة... والآن كل همي أن أعلم ماذا ستفعل بعد معرفتك بالأمر؟ وقد علمت من الممرضة أن الشاب كان يتردد على المشفى من خلال وصف الممرضة له حين كان يأتي وكنت فاقدة للوعي... وكان في كل مرة يطلب من الممرضة وضع طاقة زهور في غرفتي يرسلها عن طريق محل الأزهار، دون أن يكتب اسمه عليها... فقط يكتب عبارات التمنيات بالسلامة! فقال سامي:

_ نعم في البداية شككت بأسباب سقوطك، خاصة عندما أخبرني الأولاد بقصة طاقة الورد المرمية قرب باب الشقة بشكل عشوائي، ودلت بذلك على فرار الزائر المجهول لسبب أخافه... وإليك هذا الخبر الشاب صاحب الورد

جہاد مقلد

یبحث عن عروس، ویبدو أنه وضع عينه على مها... وهي
رأته وراغبة به.

الفصل الثالث عشر

حديثُ الذكريات

(لا يمكن استحضار الماضي إلا بحديث الذكريات... ولا يمكن الوصول إلى الحاضر إلا بالرجوع إلى ذكريات الماضي) الحاضر زرع الماضي والماضي وقائع سطرها الزمن. جلس سامي في الصالون وأسند رأسه بيديه يستعيد أحداث الماضي البعيد... الأحداث التي أعقبت هذه المصيبة التي حلت بجميع الأشخاص الذين كان لهم دور في تلك الفترة الغابرة من الزمن... وأولهم

الفتاة سماح البريئة، والتي هي زوجته اليوم، والتي كانت ضحية الظرف التي لم يكن لها يد فيه! ولا كان هو يتوقع أن تصل الأمور إلى هذا الحد المزري... ثم هو أي سامي طالب الثانوية آنذاك، لم يكن يطمع حتى بلمسة واحدة من يدها أو بنظرة... يفكر بنفسه كيف أصبح بنظرها اليوم هو البطل المنقذ... وها هو كافأ نفسه بها... بالزواج منها.

أخذ سامي يستعيد ما ساقته إليه الصدفة، وكيف فرضت المروءة عليه نهجاً جديداً لحياته... لحظات وأخذ يسترجع الماضي البعيد!! يسرح بفكره متصوراً ما حدث... وما

سيحدث بعد أن عثر على ضالته... وبحكم خبرته في القانون المدني يعلم بأن هشام سينجو من أية عقوبة تقيد حريته، القضية أصبحت في حكم الساقطة بمرور الزمن حتى أن المحكمة قد لا تقبل الادعاء فيها... لكنه كان يأمل من خلال إثارتها أن يستطيع فضح أعمال هشام وكشف عهره وفساد أعماله... لكن حين وصل تفكيره إلى تلك المرحلة واجهته مشكلته الكبيرة فقد يضطر لأن يفضح أسرته أيضاً! دخلت الأم في هذه اللحظة فوجدت زوجها غارقاً في تفكيرٍ شديدٍ، حتى أنه بالكاد أحس بدخولها وهي تحمل بيدها صينية عليها كوبان من الشاي بغية تناول الشاي معه، ومناقشته في بعض الأمور المنزلية، لأنه كان في شغل دائمٍ عن أسرته طيلة اليوم... ما سوى ساعات قليلة يلتقي معهم في المساء.

بعد أن جلست سماح قرب زوجها الذي بُغِت لرؤيتها فجأة، وكان مستغرقاً في تفكير عميق جداً قالت له بالمثل الشعبي مداعبة:

_ (إلي أخذ عقلك يتهنى به)

_ دعي الأمر لله يا سماح... يبدو أن الماضي لا يمكن له إلا أن يدس أنفه في الحاضر.

- _ ما الأمر اللهم اجعله خيراً لنا؟
- _ لا بد أن تعرفي كل شيء... وإن كان هذا الأمر سيثير
عندك ذكريات مؤلمة.
- _ لا إله إلا الله... ماذا تخفي أنت وأمينة عني... تكلم لقد
بدأت أعصابي تحترق!
- _ لن أقول لا شيء... بل كل شيء!
- _ أرجوك لا تلعب بأعصابي... ماذا حدث؟ يبدو أنها
مصيبة، أرعبتني يا سامي!
- _ هشام ظهر... كلمتان فقط لم يقل غيرهما، وهنا لم
تدعه يكمل بل أخذت تولول وتبكي ثم قالت:
- _ يا ساتر... وماذا يريد اليوم؟ وأين هو؟
- _ لا عليك لكن يجب الحذر منه، وهو صاحب الشركة
التي تعمل أمانة ابنتنا فيها، وتحت يده مباشرة.
- _ استر يا رب... ماذا؟ ماذا؟ وكيف؟ يجب أن توقفها عن
العمل عنده فوراً.
- _ لا أستطيع... بل هي مسرورة جداً بهذا العمل.
- _ يا إلهي تجعل الأمور تمضي على خير... كيف تم هذا
التلاقي... ومتى؟ فجأة؟!!
- _ نعم هو القدر يا سماح!

_ والحل يا سامي؟ الأمر خطير جداً وابتنتنا في خطر.
 _ لا تخافي ما عند الله سوى الخير منذ أكثر من عقدين
 من الزمن وأنا أبحث عنه، حتى ساقه القدر إلينا اليوم...
 ربما لحكمة من عنده.

عندها تركت سماح زوجها يسترجع الماضي بأفكاره
 القلقة، ودخلت إلى غرفتها تبكي فيها حال ابنتها،
 وتستعيد ذكريات مصيبتها مع خطيبها السابق الذي غدر
 بها... وكيف بدأت وإلى أين وصل حال ابنتها اليوم...
 ووصلت بتفكيرها إلى اللحظة التي كاد الخوف من
 المستقبل أن يدفع بها إلى الانتحار لإنهاء معاناتها
 النفسية والجسدية والتخلص من حياة مقبلة مليئة
 بالقهر والذل... إلا أن دخول سامي على الساحة وقتذاك...
 ساعدها على تحمل حالتها التي لا تحتمل، حين أخذ يمينها
 بقدرته على العثور على غريمها... وإجباره على الزواج منها
 وستر فضيحتها.

وكيف أخبرها بفشله من العثور عليه... لقد بحث سامي
 كما سبق وقلنا عن هشام بشتى السبل، ولم يترك وسيلة
 لذلك... بحث يومها عند الأصدقاء والأماكن التي كان
 يتردد عليها، والتي كان يتوقع أن يختبئ فيها... لكن دون

جدوى وفي النهاية علم بأن هشام قد غادر المدينة ولاذ بالفرار... وكما بدا لسامي إن هشام لن يحاول أو يقبل بإصلاح الوضع وبزواجه من سماح، التي أصبحت ضحية نزوته، وأخيراً تيقن أن هشام لو كان يريد ذلك لما هرب... ولستر على ضحيته ولم يتخل عنها... وحتماً لا أحد يعلم بأن هشام في ذلك الوقت أنبه ضميره، وبأنه عاد بعد ساعتين تقريباً، وفي نيته أن يقدم حلاً يصلح فعلته بطريقة ما، لكنه لم يجد في موقع جريمته أحداً... بل تأكد له انكشاف فعلته ممن قام بتغيير الوضع السابق في الشقة مما دفعه للهرب، ولم يعلم طبعاً بأن هشام أوقع سامي في مأزق كبير، مما اضطره في النهاية إلى الزواج منها. كان لدخول العجوز المفاجئ هذه اللحظة الأثر الكبير في تغيير مجرى الحديث فعلى الفور سألت: عمّ تحدثون؟ فأجابها سامي:

_ لا شيء جديد يا أمي...

_ اسمحوا لي إذاً أن أعود إلى بيتي في القرية.

_ ولماذا يا أماء؟ هل قصرنا معك في شيء؟

_ نعم كثيراً يا ولدي... أسرار... أسرار، كلما دخلت

تقطعون حديثكم! وهل أنا غريبة عنكم يا ولدي.

_ كلا يا أماه... نحن نعيش ببركاتك ودعواتك لنا، ولا نريد أن نشغل بالك في شيء.

_ أفهم كل شيء مما تقول يا لذي، ولكن أنا أمكم جميعاً.
_ إذا كان لا بد من معرفة كل شيء... أمسكي أعصابك يا أمي... إن من آذاكم بالأمس ظهر اليوم... أي ظهر منذ أشهر، إنه هشام الذي حاول الاعتداء على سماح ثم هرب وفسخ خطبتها دون سبب... الخ.

_ ههههه علمت بذلك... وهل في هذا ما يقلق، لولا الحياء لسمعتوني أزغرد بأعلى صوتي!
صاحت سماح بأعلى صوتها:

_ هكذا يا أماه؟! هكذا؟ يا ويلي منك ومن ردك القاسي، إنه مجرم وكذاب ومنافق، ربما أنت تمزحين يا أماه؟
_ أمزح؟! كلا وهل عثر عليه أهله في مكبات الزبالة يا بنتي؟ (الدم لا يتحول إلى ماء)! إنه ابن عمتي وجدك هانيء الذي هو والدي يكون خالاً له، وهو من أفراد العائلة... أليس كذلك يا سماح؟

_ نعم يا أمي... لكن... ولم تدعها تكمل بل قالت وبشوق ولهفة: أين هو؟ دعوه يأتي إلينا... الإنسان خطاء.

_ ماذا تقولين يا أمي؟ عند ذلك سأترك البيت له ولكم،
ونظرت إلى زوجها الذي أيدھا بعدم استقدامه إلى البيت.
_ كما تشاؤون... لكن خذوني إليه يا ولدي... هو لم
يؤذك، بل قرب لك نصيبك... أليس كذلك؟ يا لكم من
قساة القلوب! هفوة شبابية مضى عليها ما يقارب ربع
قرن، وما زلت حاقدين... حتى القانون الوضعي لن
يحاسبه!

_ نعم يا حاجة أنا مدين له بسماح، وبسعادتي التي
غمرتني بها... لكنه موقوف الآن قيد التحقيق ولا يسمح
لأحد بمقابلته الآن... وبعدها سوف أذهب بك إليه.
_ وماذا جنى هذا الخبيث؟ مسكين أنت يا هشام... أبوه
هجر أمه التي هي عمّتي صفية وتخلّى عنه وعن بقية
إخوانه... أراد سامي أن يهدئ ثورة العجوز فقال:
_ نعم كان مطلوباً للتجنيد عندما هرب ويحاكم بسبب
ذلك... لم يرد سامي أن يكشف أية حقائق قديمة
مضت... دخلت الحاجة صباح إلى غرفتها وهي ترجوه ألا
ينسى وعده لها بأن يسمح لها بزيارته.

الفصل الرابع عشر

من قديمهم الجديد

_ صاحت سماح لهول طلب أمها... لكنها غيرت الحديث بعد أن غادرتهم أمها وقالت:

_ لكن كيف نأمن يا سامي على البنت أن تجلس معه، وأنت تعرف ماضيه؟

_ لا تخشي شيئاً يا حبيبتي... لقد عملت احتياطاتي اللازمة... ثم لم أكن أعلم في البداية أنه هو صاحب الشركة الذي ستعمل ابنتنا عنده... ولعلمك أن هشام بعد أيام فقط ستحجز حريته ويسجن... أجابته والارتعاش يكاد أن يخرجها عن طورها ويعيدها إلى ما كانت عليه:

_ ما هذا يا سامي هل ستحيي جراحنا القديمة؟ هل سنعيش الآن في زمن فتح الجروح ونشر الفضائح؟ دعنا في حالنا واترك أمره لله... وهو من سيتولى عقابه... ولكن أنقذ ابنتنا من برائته فوراً.

_ لن أسامحه أبداً لقد رفعت أمري لله وشكرته بأنه منّ عليّ بك...

_ أرجوك أبعد ابنتي عن هذا الكلب الكلب... حاول أن يقاطعها عدة مرات... لكنه لم يفلح... عندها تركها تفرغ

محزونها من الغضب... دامت ثورتها أكثر من نصف ساعة وهو صامتٌ، بينما هي لا تفسح المجال له أن يتكلم أي كلمة... انتظر حتى هدأت ثورتها ثم قال:

_ دعيني الآن أتكلم واسمعي أنت فقط ما أقول: أولاً وقبل كل شيء موضوع هشام تحت السيطرة ولا تخشي شيئاً... وسنتكلم فيه بعد قليل... لكن لدي أمر آخر مهم جداً يجب أن أطلعك عليه قبل أن أنسى... عند مساء هذا اليوم سيأتي الشاب الذي أخبرتك عنه مع أهله لخطبة مها... هذا الشاب موظف عندنا وهو من الخريجين الجدد وأنا أعرفه، وقد سألت عنه، لا ينقصه شيء من الأخلاق... تعرف على مها في المشفى أثناء مرضك... حيث قال أنه كان يتابع حالة والده المريض... ووالده خرج من المشفى بعد أن تحسن حاله، وهم قادمون في المساء... ورأيت مها موافقة عليه، وأنا لن أعترض فقالت:

_ طالما سويت كل شيء دون علمي وهي راغبة به... أنا أيضاً لم يعد لي أي كلام، لن أمانع.

بعد أيام تم استدعاء هشام إلى مكتب الضابط كريم زميل سامي بطريقة غير رسمية... وفي نيتهم تسوية الموضوع... أطلعه سامي على كتاب البوليس الدولي... قال

سامي لصديقه: إذا سمحت اتركنا معاً قليلاً، فهذا الشخص كان في يوم من الأيام زميلاً لي وهو ابن قريتي:

_ يا سيد هشام... سأتجاوز واجبي الآن لأسباب أنت أدري بها... وسأمنحك فرصة للهرب خلال يومين فقط، كما لا تنسَ أنا من تعايشت مع قصة سماح بكل تفاصيلها... وأنا من رمم كل شيء في حياتها وقبلها في الشقة مكان جريمتك... وبعدها سترت فعلتك الشائنة كرامة لها ولأهلها... وكما ترى أنا مضطراً ألا أدعي عليك إذا وافقتني على اقتراحي لعدة أسباب شرحتها لك... أهمها درء الفضيحة عن زوجتي أمام الناس وأمام أولادها خاصة... وأنا أعلم بصفتي رجل قانون أن أي حكم سنحصل عليه ضدك، سيسقط بمضي المدة والتقدم، ولن نكسب من ورائه سوى فضيحتك وفضيحة أهل بيتي... ثانياً قضية الانتربول هذه القضية لا تسقط بالتقدم! وتدار من خارج البلد... لديك جواز سفر عربي، يعطيك فرصة ثمينة، وإمكانية الفرار من هنا لتتدبر أمرك في أي مكان آخر... أنت مطلوب باسم آخر وهذا يخدمك جيداً، ثم بعدها مهما حصل من تطورات لن تعدم الخلاص منها فأنت كما أراك داهية... رد عليه هشام وهو يرتجف خوفاً:

- _ يا لها من سعادة لن تدوم... ثم ما هو السبب في السماح لي بالهرب، والتخلي عن واجبك وما مصلحتك؟
- _ قلت لك أن أضمن البعد عن فضيحة تطل زوجتي وأولادي... كما ستطالني شخصياً.
- _ موافق... ولكن مهلة يومين غير كافية لتصفية أعمالي.
- _ لا تنسَ إنني مضطر لأن أحرق نفسي بخيانة واجبي، وأخطر بسمعتي ووظيفتي إن اكتشف الأمر، وفي هذا دمار لأسرتي كاملة، ولن أغفر لنفسي أبداً، وفي نيّتي بالمقابل أن أستقيل من وظيفتي فوراً بعد هربك.
- قرع كريم الباب قبل أن ينهيا حوارهما... ولم يكن هذا لديه أي فكرة عن ملابسات قضية أسرة سامي وعلاقتها بهشام فقال:
- _ مقدم سامي... هل استدعي الكاتب لنبداً التحقيق؟
- _ انتظر قليلاً، ودعه عندي، فهو يطلب أن يكلمني وحدي... خرج الضابط كريم... عندها قال هشام:
- _ لا أريد الفرار... وافعل بما يمليه عليك ضميرك وواجبك... رد سامي وقد تفاجأ كثيراً بجوابه:
- _ إذاً أنت مُصرٌّ على ترك القانون يأخذ مجراه! حسناً تفعل... ولكن هل قصدك التهديد بفضيحة حول

الحادثة القديمة لتؤذيني بتشويه سمعة سماح وبالتالي سمعتي؟ ستؤذي نفسك وتفضح غيرك؟
_ كلا... بل وجدت عقابي عن عملي قد حان أوانه... ثم لعلمك أنا لم أكن تاجر مخدرات كما تظن... بل موزعاً لها وعقابي لن يتجاوز عدة سنوات... عشر أقل أو أكثر في دول سجونها فنادق خمسة نجوم، هذا إذا وافقت المحكمة على تسليمي لمحاكم خارج البلاد... لكن أريد منك خدمة سريعة.

_ تفضل ما هي؟ أن تحضر غداً الكاتب بالعدل إلى هنا... قررت أن أعمل توكيلاً لزوجتك بالتصرف في الشركة... وفي حال حكم عليّ مدة طويلة وعندما أخرج من السجن فيما بعد... أستعيد أملاكي منها، وإن مت يكون لها حق التصرف بجميع أملاكي، وتتقاسمها مع والدتي صفية وأنت تعرفها... فقال سامي:

_ أبعد سماح عن الموضوع... لكن أملك السكرتيرة أمينة وستكون أمينة على مالك، فهي مطلعة على جميع أعمال الشركة، ولا تنس أنها هي... ولم يكمل بعد أن انتبه إلى أن لسانه كاد أن يورطه... عندما أوشك أن يقول له بأنها الوريثة الشرعية له، لكنه تدارك الأمر قائلاً:

_ لها من الخبرة بالشركة وأعمالها الكافية... حسناً تفعل بتوكيلها، وهي ابنتي وأضمن لك عودة أموالك تماماً إذا عدت إلى هنا... رد هشام:

_ تأكد أنني سأخفي سيرة سماح وأبقي الأمر سراً كما هو من قبل، لم ولن يطلع عليه أحد، أنت تعلم بأني مطلوب لقضايا خارج البلاد ولا علاقة لسماح بها... وهنا لن تطالني أي تهمة داخل البلد.

نادى سامي زميله كريم كي يدخل... وهمس بأذنه سرّاً لكي يقوم بتفتيش هشام الذي جاء في البداية زائراً... وأصبح الآن متهماً... سُحب منه مسدسه، وتم توقيفه... ومن خلال حديث غير رسمي بدأ يروي لهم جرائمه التي يستدعيه البوليس الدولي لأجلها.

حجزت حرية هشام، وتم في اليوم التالي إحالته للقضاء، وكان هشام قد وافق على منح وكالة عامة تسمح لأمينة بالتصرف بجميع ما يمتلكه... طبعاً دون أن يدري أنّها ابنته... ولكنهما اتفقا على أن تدير أمانة الشركة لأسباب مختلفة، أهمها بالنسبة إلى هشام معرفتها بأسرار الشركة... أما بالنسبة لسامي فهي الوريثة الشرعية للشركة لأن هشام هو أبوها... وكان في سريرة سامي فيما لو

أن هشام علم صدفة بالسر سيطلب منه التنازل عن كل ما يملك لها فيما لو أدين وحكم عليه بالسجن مدة طويلة، أو مات... وطبعاً هو لن يسعى إلى كشف السر بنفسه... وعلى هذا تقوم أمانة إدارة الشركة مؤقتاً.

الفصل الخامس عشر

سباق مع الزمن

جلس هشام يوماً مسنداً ظهره إلى حائط السجن، يفكر فيما وصلت إليه حالته بعد العزّ الذي كان يعيشه. أوصله تفكيره لإنهاء معاناته بطريقة ما... وأخيراً استقر رأيه على الخلاص من هذا الحال بالانتحار... لذلك بدأ يبحث سراً عن طريقة تحقق له مطلبه... كان يسأل ممازحاً بعض السجناء عن انتحر في السجن؟ وكيف، لكن دون جدوى... لم يجد وسيلة أو أداة مضمونة تنهي حياته... وكان قد اعتاد أثناء الفسحة على الجلوس وحده، وإسناد ظهره إلى الحائط نفسه يومياً... تكررت وحدته وعدم اختلاطه بالسجناء... وأخذ يتعمق بأفكاره، ويحدث نفسه أحياناً:

— بدأت حياتي بالحرام ثم سافرت هارباً... ثم اشتغلت وتاجرت بما هو حرام أيضاً... وأن لي الآن أن أجد طريقة للخلاص من مشاكلي... ترى ما نفع حياتي هنا؟ جلس في أحد الأيام بقربه رجل ضخم الجثة دون استئذان... قال له بصوت واهن أجش مسموع عالي النبرات:

_ خدمات؟؟... كيف... مخدرات... هروب... انتحار...
 مطالبات خارج السجن متنوعة... تزوير جوازات...
 عمليات تجميل... تصفية... لدي مجموعة كبيرة في الداخل
 والخارج... لكن انتبه إلى هؤلاء الذين يتابعون حركاتك...
 حركة صغيرة مشبوهة منك... تموت خنقاً تحت أجسادهم
 وكأنه قضاء وقدر، أما خارج السجن فلدي كل ما تطلب!
 أنا أبو الشوارب إذا لم تسمع بي من قبل... فهنا لن تنسى
 اسمي... ستسمعه حتى وأنت تحلم... رد هشام بقرفٍ
 شديد:

_ كلا أبداً... أنا جديد هنا في السجن، وماذا تريد مني؟
 ومن أرسلك إليّ... نظر حوله فوجد عشرات العيون
 متعلقة بهما... فقال بيأس شديد:

_ نعم، ربما أجد غايتي عندك... هل لديك وسيلة
 للانتحار؟

_ أراك محزوناً ويائساً جداً، وهل من يملك الشباب والمال
 يدبُّ إلى قلبه اليأس يا... جان؟!

_ يا إلهي... وما أدراك باسمي؟!!

_ هههه أتريد نبذة عن حياتك... لا تخف نحن نعمل لكل
 سجين ملفاً في الخارج والداخل... ثم أخذ يحكي له أدق

المعلومات عن حياته، لكنه لم يتطرق إلى حادثة
الاعتصاب القديمة... عندها تنفس هشام الصعداء وقال:
_ كل ما أريده منك أن تساعدني على الانتحار.

_ لا تقلق... كل سجين في بداية سجنه يقول هذا... لكن
لن ندعك تتعود على السجن حتى تنفذ فكرتك... ستحلوا
لك الحياة خارج السجن... وأنت بالذات أمامك الحياة
واسعة، وعندك من المال الكثير... ادفع وسترى كيف
ستلذك أمك من جديد... فگر ثم أخبرني حتى أساعدك.
_ لا أريد منك أية مساعدة سوى أن تجد لي طريقة
للانتحار.

_ لا تكذب على نفسك، أنت تحتاج إلى مساعدتي
لتعيش حراً... أنت بحاجة إليك أن تدفع... حينذاك
تحصل على لبن العصفور... والدفع كاش... طبعاً مقبول
خارج السجن... دار حوار طويل بينهما.

في غضون ذلك... نعود قليلاً إلى الضابط سامي الذي كان
يفكر في حل للوضع الحالي وتطوراتهِ؛ خاصة موضوع
هشام الذي يشغل باله دائماً... لم يجد عليه أي قضية
تدينه داخل البلاد... ومن النادر أن يُسلم سجين في مثل

تلك القضايا الجنائية إلى أية جهة خارج البلاد، بل ربما سيحاكم فقط هنا في بلده ويسجن أيضاً هنا. أما هشام فحار في أمر نفسه... فكر كثيراً بالشخص الذي قال أنه يستطيع إخراجه من السجن... وكيف؟ يدّعي بأن لديه شبكة مترابطة من الأعوان خارج السجن وداخله، وأخذ يفكر بمديته وبما وعد من قدرته على إخراجه من السجن، وأخيراً أخذ اليأس يسيطر على قلبه، وكذلك صعوبة الحياة داخل السجن، فأصبح يجذب جميع ما زين له أبو الشوارب من وسائل لهروبه... خاصة أنه وعده بتأمين حياة جديدة له...

جلس هشام في اليوم التالي كالعادة في باحة السجن في مكانه المعتاد، وأسند ظهره إلى أحد الجدران في باحة السجن أثناء فترة التنفس الصباحية... ثم أغمض عينيه وغرق في أفكاره المعتادة... بعد لحظات أحس بلكرة خفيفة في خاصرته، فوجد الرجل نفسه أي أبا الشوارب جالساً بجانبه، ينظر إليه ويبتسم له ثم يسأله بصوت خافت:

_ ماذا قررت يا هشام؟ هل ستترك أرزاقك تعبت بها الأيادي؟ وأنت لا تملك هنا جرعة من الحرية ولا حتى

أمر نفسك... سأعيد عليك... نحن على استعداد لتصفية
أملاكك... وتسليمك قيمتها نقداً في أية دولة تختارها
ويُفضل في أول الأمر أن تكون دولة عربية بعد حسم
أجورنا، إذا وافقت أخبرني غداً... قام من مكانه قبل أن
ينبس هشام بكلمة واحدة!

فكر هشام كثيراً بهذا العرض المغربي ولكنه قال في نفسه:
لو كان لدى أبو الشوارب مثل تلك القدرات لماذا لا يهرب
هو وزبائنته من السجن، ويعيش الحياة الرغيدة التي
وعدني بها؟! تكررت جلسات هشام وأبي الشوارب وسأله
هشام في إحدى المرات:

_ إن ما يشغلني هو... على الفور قطع عليه كلامه وكأنه
قرأ أفكاره:

_ أنا أعرف ما الذي ستسألني عنه... لماذا لا أهرب
وأعيش خارج السجن طالما لدي كل هذه القدرات؟
اسمع... هنا مركز تجارتي، وزبائني جميعهم ممن يدخلون
السجون... أما هؤلاء الرجال الذين تراهم حولي هم
للحماية، جرائمهم متكررة... يدخلون حسب أوامري
ومعطيات حاجتنا، جميع صفقاتنا تتم هنا... وفي الخارج
أرزاقنا... لا نغدر بأحد إلا إذا غدر بنا... لنا في الخارج

أعوان أقوياء وسترى ذلك بنفسك وتعرف كل شيء في
حينه إذا أعجبك عرضي.

أتريد مهلة أخرى للتفكير... لا مانع بعد غد تعطيني
إجابتك... لا تخف نحن سنتولى تصفية شركاتك ونقل كل
أموالك... وجميع ذلك بأجر رمزي بسيط كما قلت لك
سابقاً... الربع لك من صافي الأموال، والباقي ستذهب
أجوراً لنا ولأعواننا ولا تستقلّ حصتك.

أنت تستطيع تنمية أموالك بسرعة فيما بعد... أما نحن
سنقتسم الباقي، وحصتنا ستوزع بين العشرات، وأنت
تعلم فيما لو فرقنا البحر سيتفرق... المهم أعطنا الضوء
الأخضر واختر اسمك الجديد، والبلد الذي تريد الإقامة
فيه... وإن كنت تود أن نختار لك نحن لا مانع لدينا... لا
تخف لن تحمل معك سوى محفظتك وجواز سفرك...
ستجد كل شيء كما قلت لك أمامك... المنزل الذي
ستسكنه ستجده مفروشاً... وخدمه تحت أوامرك... وكل ما
تحتاجه... خلال شهر فقط ستعيش باسم جديد وحياةٍ
جديدة، خاصة وأنت عازب، لا زوجة ولا أولاد لديك
تخاف على فراقهم... فهذه الحالة ستسهل لنا خدمتك
كثيراً... هيّا قرر قبل أن يحكم عليك بالمؤبد... أو ترحل

إلى سجون أخرى تابعة للبوليس الدولي خارج البلاد، ثم لا تطمئن إلى أن الدولة لا تسلم مواطنيها للخارج، هناك اتفاقيات دولية لا يمكن العبث بها... استغرب هشام كيف علم الرجل بتهمته؟ وللمرة الأولى يرد على أبي الشوارب ويسأله كيف يعلم بجريمته وبحجم ثروته وممتلكاته... الخ.

_ نحن ندرس حياة المتهم خارج وداخل السجن، ولدينا تفاصيل حياتك كاملة.

_ لكن ربما أنقل إلى سجن آخر غير هذا... كيف سأتواصل معكم؟

_ هذا عملنا... جميل جداً... الآن فهمت بأن الأمر قد أعجبك وراق لك، أعطنا موافقتك أولاً... وبعدها نحن علينا تصفية شركاتك وأعمالك، أول شرط لنا هو استبدال وكيلتك أمينة بوكيل من طرفنا وعزلها عن رعاية أملاكك... ثم لا نخش على حبيبتيك هذه... لأنها ستبقى في وظيفتها مع المالك الجديد... وإذا أردت ألحقناها بك ووقفنا بينكما بالزواج... ذهل هشام كيف يعرفون كل هذه التفاصيل الدقيقة... وهذا السر لا يعلم به سوى (هو وأمينة وسامي) عندها تأكد فعلاً أن جميع

أسراره بين أيديهم، وأنهم يستطيعون تغيير حياته فعلاً...
إما إلى الأفضل كما يقول... أو القضاء عليه وموته، لذلك
قرر شيئاً مختلفاً تماماً، سنعرفه في حينه.

بقي حتى تلك اللحظة أبو الشوارب محمداً في وجهه...
يتابع قسماً وجهه وانفعالاته وينتظر جوابه... لاحظ
تبسمه وانقلاب أساريه... عندها رفع صوته من الهمس
إلى المسموع نوعاً ما قائلاً:

_ قرر الآن وبعد غد أريد سماع جوابك وشروطك إن
كانت لديك شروط أخرى... رد هشام في محاكاة متعمدة:
_ لكن إذا رفضت؟! رد عليه وقد بانث نواجذه الصفراء
بفعل التدخين المتواصل:

_ لست من الغباء حتى ترفض... مستحيل أن تترك جنتك
الجديدة... مقابل سرير من ثلاثة طوابق يهتز كلما تحرك
سجين أكان فوقك أو تحتك عليه... ولا أعتقد بأنك
ستترك الحرية المطلقة؛ مقابل تقييد الحرية... جرب
واعترض في السجن على ما لا تحب... حتماً ما زلت لا
تعرف الرد كيف يكون... ألا تسأل نفسك ما هي قيمتك
كإنسان هنا؟ ... أنت هنا إنسان بلا شخصية، تأكل
وتشرب فقط وهذا يعني أنك رقم فقط... شخص بلا

هوية... بلا وجود... مجرد فرد منبوذ... قرد في قفص يرمى له
الأكل بلا خيارات ليس أكثر... ثم عجل بالوقوف ومشى
فوراً قبل أن يسمع كلمة أخرى من هشام.
هنا تحول تفكير هشام بشكل كبير نحو الحياة وإغراءات
الحرية... وأخذ يستعيد كلمات أبي الشوارب في فكره،
ويهمس لنفسه:

_ نعم هذا هو الصحيح عثرت على ضالتي... لماذا لا أكون
رجلاً آخر، حراً مرة أخرى؟ الأمر ليس جديداً علي!
ولكن ليس بطريقتهم بل بطريقتي.

في صباح اليوم التالي بينما كان جالساً في مكانه المعتاد...
سمع من يطلبه إلى مكتب آمر السجن وخلال ثوان فقط
وقبل أن يصل الشرطي الذي سيقتاده... كان أبو الشوارب
وبعض رجاله يمنعونه من الحركة... ويتصنعون مشاجرة
خفيفة حوله... ثم سمع صوت أبو الشوارب يأمره بصوتٍ
خفيف: انتبه احذر... أي كلمة ستموت قضاءً وقدراً في
مشاجرة لا يد لك فيها... معركة وهمية تموت عفاً تحت
الأرجل... وخلال ثوان أخرى فُتح طريقه وابتعد الجميع
من حوله... لم يشعر أحد بما حصل... وصل الشرطي الذي
أُمر بتقييده واصطحابه إلى مكتب آمر السجن... وكانت

المفاجأة وهي جَلّ ما يطلبه لتنفيذ فكرته، التي أشرنا إليها مسبقاً دون إيضاحها... هناك وجد سامي ينتظره في المكتب، افتتح سامي الحديث، وبعد السؤال عن صحته وأحواله قال سامي:

_ جاءني أحد المحامين يقول إنك ستقوم بتوكيل صديق لسجين عندكم وهو محامٍ... وأيضاً قيل بأنك كلفته بالترافع عنك... كما طلبت توكيله بمتابعة شركاتك وأموالك بدلاً من أمينة... الخ، كلنا نعلم أنّ هذا حقك الطبيعي، لكن لماذا تلغي توكيل أمينة، ذُهل هشام لسرعة تنفيذ أمورهم (أبو الشوارب ورجاله طبعاً) وكيف رتبت الأمور بسرعة، بعد أن وافقه على رأيه مسبقاً، وكيف أن عصابتهم مخترقة لأماكن كثيرة في المصالح العامة والخاصة... لذلك قرر ألاّ يصرح بشيءٍ مما نوى عليه حتى يقابل الضابط المسؤول، ويطرح فكرته... وللعلم إن الذي فرض على سامي هذه الزيارة ليس شوقه إلى هشام... لكنه تضايق من تصرفاته بتوكيله لمحامٍ غريبٍ يتابع قضاياها المالية، واستبدال أمينة التي لم يمض على توكيلها بضعة أيام لتصرف كافة أعماله، علماً بأن سامي كان يشعر في سريره بأن هذا حقها الطبيعي

والشرعي وإن لم يكن يستطيع الكشف عنه، ما أزعج سامي كثيراً، ودفعه للتعجيل بالحضور للاستيضاح عن السبب.

كانت أجوبة هشام جافة جداً... لم تخف على سامي محاولات هشام التصنع بكلامه، وطبعاً بعين الخبير التي لا تخطئ فهم سامي بأن هشام يرمي لغير ما يقصد في كلامه... بعد حوار دام عدة دقائق قال هشام:

_ قراري اتخذته ولا يمكن الرجوع فيه ثم غمز بعينه دون أن يلاحظه أحد... وبعين الخبير أيضاً فهم سامي أن هناك من يضغط عليه... أو أنه يريد خلوة فقال:

_ جهز نفسك... غداً صباحاً سترحل إلى محكمة التحقيق... ثم أمر بإعادته إلى سجنه.

_ خرج الجميع من مكتب المأمور وبقي سامي وصديقه مأمور السجن فقال سامي:

_ فهمت كأن لديه كلاماً آخر؟!!

_ ربما... وهنا أرى أموراً تبعث في نفسي الشك مما يدور داخل السجن.

_ على العموم عند انتقاله إلى المحكمة غداً سنفهم كل شيء... ودّع زميله وخرج.

في اليوم التالي كانت سيارة السجن تنهب الأرض باتجاه
المدينة في طريقها إلى المحكمة، والقفص لا يحوي سوى
هشام وسجين ثانٍ، ذلك السجين هو سامي المتنكر بزي
السجين الآخر، ودار حديث سريع بينهما بدأه هشام:
_ مَنْ سلمك هذا المنصب لم يخطئ... ذكاء وفهم!

_ المهم هات ما عندك بسرعة.

_ نعم... الخلاصة سأضع نفسي كبش فداء، وأكشف
لكم عن أخطر عصابة تدار من داخل السجن، بل ربما
السجون. وشرح له باختصار عما يدور ودار داخل
السجن.

_ قمة الوطنية والمثالية التي لا علم لي أنك تمتلكها!
ولكن مقابل ماذا؟

_ أنا أعلم بأن المحكمة لن تطلق سراحى بأي ثمن
ولكن قد ترأف بي أليس كذلك؟

_ نعم ممكن... هات ما عندك بسرعة... وعلى هذا قررت
الآن أن أطلب من القاضي تأجيل جلسة اليوم بعد
عقدها بدقائق لأعود كسجين معك... ولتشرح لي
تفاصيل الأمر الذي تخفيه؟ وماذا تريد؟

_ حسنٌ... وبدأ يروي له ما حصل معه في السجن... ثم ما قام به خارج البلاد من أعمال خارجة عن القوانين.

_ لا أعدك بشيء... أنا مرؤوس وفوقي رؤساء... ولكن سأكلم أعلى السلطات لعلها تفيدك بشيء.

_ لا أطمع بغير هذا، أما العصابة فكما ترى بدأت بالتصرف بكل شيء حتى يضعوني تحت الأمر الواقع... ما أن عاد هشام إلى سجنه، حتى كان أبو الشوارب يستوي قربه، ويجلس بجانبه ويقول:

_ خيراً فعلت يا هشام بالموافقة على تكليف محاميننا بتخليص كافة أمورك... تلك الفتاة لا خبرة لها، قال هذا وهو يبتسم.

تأكد للضابط سامي بأن أصابع العصابة متغلغلة في كل مكان... وإن لم يتصرف بالشكل اللائق، ربما تخلصوا منه هو أيضاً، خاصة إن علموا بصلته بهشام... يجب عليه أن يترك العصابة تنفذ مخططها كما تشاء... لكن تحت علمه وإدارته وإشرافه.

اقترح سامي على إدارته إدخال أحد عناصرهم إلى السجن، ليكون وسيطاً بين هشام وسامي ينقل أخبارهم وما

صباح

يحصل، وأصبحت أخبار أبو الشوارب وهشام عند سامي...
تصله بشكلٍ يومي دون أن يشتبه أحد.
على هذا فكان كل شيء يدور داخل السجن لا يخفى على
سامي.

الفصل الأخير

نهارٌ جديدٌ

اقترَب موعد هروب هشام من السجن كما حُطِّط له من قبل عصابة أبي الشوارب، وطبعاً كل ذلك باتفاق سري بين سامي وهشام... كان الاتفاق على استغلال فرصة دخول دورية مؤلفة، من ضابط وبعض الأفراد بمهمة رسمية للاطلاع على أحوال السجناء، وكان هشام قد تم تدريبه من قبل العصابة على كيفية التصرف والعمل، والطريقة التي سيتم فيها إخراجه من السجن... وفي حال خروجه سيتم اقتياده وتجهيزه إلى خارج البلاد خلال ساعات، على أن يُسلم جواز سفر باسمٍ جديدٍ من قبل أحد رجال العصابة، بينما الاتفاق الآخر بين هشام وسامي يقضي بالكشف عن جميع أفراد العصابة الموجودة داخل السجن للقبض عليهم فيما بعد.

وجاء اليوم المقرر... وكانت العصابة قد نفّذت تصفية أملاك وأموال هشام تماماً وبيعت شركاته بأرخص الأثمان إلى آخرين، لمن يشتري من خارج أفرادها... وتم إبقاء أمانة في مركزها الوظيفي عند المالك الجديد، بناء على وعد أبي الشوارب!

جاءت ساعة التنفيذ... دخلت دورية نظامية للتفتيش على السجن والسجناء والاطلاع على أحوالهم... زارت اللجنة الزنازين تبعاً... وصلوا إلى زنزانة هشام... افتعلت مشاجرة كلامية في الممر خارج الزنزانة نفسها... لحظات وكان هشام بلباس أحد الجنود، والجندي بلباس هشام... تم ذلك التبادل بسرعة فائقة، ولا نقول سراً لأن كل ذلك طبعاً تم بمعرفة العصابة من جهة، ومن جهة ثانية بعلم مطلق من سامي، الذي كانت تصله المعلومات أولاً بأول، عن طريق السجين المزيف الذي كان ينقل إلى سامي كل شاردة وواردة... وكان سامي قد وعد هشام ببذل جهوده عند السلطات كي يتمكن من إقناعهم بتخفيف الحكم عليه، لتعاونه معهم في الكشف عن العصابة.

انتهى التفتيش... وخرج هشام وهو يعلم أنه سيعود قريباً إلى سجن قد يكون أصعب أو يكون أسهل، المهم في النهاية إنه سجن... بعدها تم إلقاء القبض على أكثر أفراد العصابة، جاء القرار فيما بعد أن تجري محاكمته في بلده، وأن لا يسلم إلى أي جهة خارجها... ثم وافقت المحكمة على خروجه من السجن تحت كفالة مالية ضخمة... سعى سامي وإن كان مكرهاً لتدبير أمر الكفالة المالية

للمحكمة، وإخراجه مؤقتاً ليعود للمحاكمة كلما طُلب منه ذلك... لكن هنا كمنت لهم مشكلة كبيرة... كان المبلغ المطلوب كبيراً جداً لكي يخرج هشام تحت الكفالة... وتشاء التقادير بأن من كان يسعى لسجنه قبل اليوم وإنزال أشد العقوبات عليه... وهو عدو الأمس الذي أصبح رؤوفاً اليوم!

في البداية فشلت مساعي سامي... والسبب أن المبلغ غير متوفر، ولا يمكن لموظف يرعى أسرة كبيرة مثله تأمين مبلغ كهذا.

جلس سامي على الشرفة حائراً يفكر بطريقة يفى بوعده بتدبير قيمة الكفالة، ثم لحقت به بعد قليل سماح وبدأ الحوار بينهما، لكنه توقف بسبب سماعهما طرق عصا العجوز صباح أم سماح التي تقيم معهم، الصوت الذي يقترب من الشرفة:

_ لماذا صمتما؟ وما هو الشيء الذي تكتمانه عني؟ قال
الاثنتان بصوتٍ واحدٍ:

_ أبداً يا أمي، لا شيء... وكان سامي يناديهما بأمه، وكما عرفنا بأن صباح هي أم سماح، قالت ساخرة وموجهة حديثها في البداية إلى سامي:

- _ حسرة عليك يا ولدي... ضابط كبير وتكذب!!
- _ عذراً يا أمي... مشاكل قديمة لا أريد أن أزعجك بها...
لكنها أصرت على معرفة الحقيقة.
- ثم نظرت إلى سماح نظرات ملؤها العتاب تستفسر منها
بحركةٍ من يدها... على الفور ودون مقدمات أجابتها:
- _ أماه... كما علمتِ ظهر هشام.
- _ هشام هذا الذي تخفيان سره عني؟ إنه قريبنا وابن
قريتنا.
- _ هل نسيتِ خطيب ابنتك السابق الذي هجرها قبل
زواجه منها بفترة بسيطة؟ والذي حاول الاعتداء على
ابنتك!
- _ علمت بهذا قبل أيام... مسكين أنت يا ولدي! هل تظن
أنني سأسحب ابنتي منك وأزوجها له؟ ثم أخذت تضحك
ساخرة.
- _ كلا يا أماه... الرجل سجين أعماله السيئة، وهو بحاجة
إلى مبلغ كبير ليخرج بالكفالة.
- _ وماذا فعل من جديد هذا الغبي؟! لكنها لم تجلس، بل
قالت وهي تستدير نحو الباب الذي دخلت منه:

_ طالما يهتمكما أمره... ولم تكمل... دخلت العجوز الشقة وبعد قليلٍ عادت وببيدها ورقة وهي تقول:

_ بما أن الأمر يهتمكما... إليكم ما كنت أخفيه بوصيتي... كنت أضعها بخزانتى لتقرأوها وتعملان بها بعد وفاتي... ناولتها إلى هشام وقالت: اقرأ يا ولدي ما فيها.

كان فيها... أولادي سامي وسماح:

قبل وفاة شريف زوجي بمدة طويلة سلمتنا شركة التأمين تعويضات عن إصابته في الحادث المزدوج آنذاك، وبعد وفاته أيضاً سلمتنا التعويض عن وفاته، كما أصر متسببو الحادث على دفع مبلغ من المال كتعويض آخر، لكن والد شريف رفض أن يستلم أي مبلغ من تلك التعويضات بيده، أودعه عندي وهو يقول:

لن أقبض ثمن دم ولدي أبداً بل دعيهم عندك لأولاده... كما أن شركة شريف التي كان يعمل بها سلمتني مبلغاً بسيطاً كتعويض عن المدة التي كان يعمل فيها... جميعها أودعتها في خزانتى إلى اليوم... والآن خذوها وحلوا مشاكلكم بها، وفي النهاية هي لكم، وعندما يعاد المبلغ من المحكمة إذا أردتم لكم الخيار في أن ترجعوه لي أو تأخذوه وفي النهاية كما قلت هو لكم.

تم قبول الكفالة عن هشام، وأفرج عنه مؤقتاً ريثما يُستدعى إلى المحاكمة من جديد... كان مبلغ الكفالة الذي طلبته المحكمة كبيراً جداً... وكان سامي قد استطاع تأمين الجزء الأكبر من أم سماح حماته، والباقي من ديون الشركة عند بعض الزبائن... أما حصة العصابة من أموال هشام فقد خرجت إلى جيوبها... وأما حصة هشام فقد أُخرجت بمعرفة العصابة إلى خارج البلاد تحت اسم مستعار... ولا يملك هشام حتى الآن أية أوراق تثبت هويته الجديدة، وحتى الاسم الجديد والبلد التي سينقل إليها لم يعرفهما بعد... ولم يستلم أي شيء يثبت صلته بالأموال التي كانت ناتجة عن بيعهم لحصته بثمان عقاراته وشركاته، أي أنه أصبح (ري كما ولدتي) لا يملك شروى نقيز... كان عليه أن ينتظر اعترافات العصابة، ليعرف إلى أين ذهبت أمواله، وهذا ما لا يستطيع الوصول إليه بوقتٍ قريب، بل ربما لا أمل بذلك... وفي النهاية ما كان ليستطيع تدير مصاريف الفندق الذي ينزل فيه، بعد أن بيع بيته وجميع أملاكه.

دبَّ اليأس في قلب هشام وعاد به التفكير إلى الانتحار... شعر بأن حياته أصبحت جحيماً لا يطاق... وقف هشام

على شرفة الفندق يستذكر حياته الماضية، والعز الذي فقد منه، وفي لحظة فقد فيها إدراكه، دفعه يأسه إلى التصرف بما أملى عليه عقله المشوش، أحضر ورقة وكتب عليها (لا تتهموا أحداً بقتلي) لم يعد لي أمل في الحياة... ذهب كل ما جمعته بالحرام... وأخذه أولاد الحرام... قرر موته وهو لا يعلم بأن لديه ابنة جاءت أيضاً بالحرام، من جراء جريمته الأولى... صعد إلى حافة الشرفة ورمى نفسه من الدور العاشر... سقط هشام على الرصيف ميتاً لا حراك فيه... مات هشام وسر ابنته لا يدري به.

قالت سماح لزوجها:

_ ليتك أخبرته بسر ابنته قبل موته...

_ لقد رحل إلى حيث يجد هناك من سيعلمه بكافة ذنوبه.

باقي أفراد الرواية

مها... تزوجت من خطيبها الذي يعمل في المكان الذي يعمل فيه والدها سامي.

أمينة... تزوجت من ابن صاحب الشركة الجديد، وأصبحت المديرية، والمالكة صورياً للشركة بحكم زواجها من صاحب الشركة.

سماح.... كان موت هشام فرجاً لها، وهدأ بالها نهائياً.
سامي.... ذهب الهم الذي كان يقلقه بحمله سر نسب
أمانة... لكنه تابع قضية هشام في المحاكم حتى استعاد
مبلغ الكفالة بعد انتحار هشام... وسلمه لأمانة...
وسحب العقد والأيقونة منها وأتلفهما أمامها بعد أن
أوهمها بأن ما كان في الأيقونة لا يتعدى سر جرائمه، وأن
هذا ما أوصل هشام للانتحار.

صباح.... لبست السواد عليه ما عاشت... حتى رأت
أحفادها من أمانة ومها، وفي النهاية ماتت وهي لا تعلم
بتفاصيل ما حدث، ولا حتى بسر نسب حفيدتها أمانة.

وإلى اللقاء
تمت بعون الله

نشر و توزيع

ديوان العرب للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية - بورسعيد

جميع حقوق النشر الورقي
و الإلكتروني محفوظة للناسر